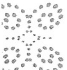
69
سلسلة روايات عالمية

رامون خ. سندر

الملك والملكة

رواية عالمية

ترجمة
علي أشقر



منشورات
وزارة الثقافة
ج. ع. س
دمشق
2002

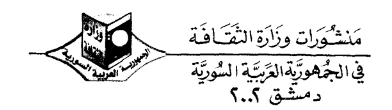
رامون خ. سندر

الملك والملكة

رواية عالمية

ترجمة

علي أشقر



العنوان الأصلي للكتاب:

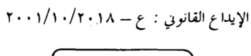
Ramon J. Sender

El rey y la reina

الملك والملكة : رواية عالمية = El Rey Y La Reina/ رامون خ. سندر ؛ ترجمة علي أشقر .ـ دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠١ .ـ ١٩٢ ص؛ ٢٤ سم .ـ (روايات عالمية ؛ ٨٩).

١- ٨٦٣ س ن د م   ٢ – العنـــوان   ٣ – العنوان الموازي
٤ – سندر   ٥ – أشقر   ٦ - السلسلة   مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع – ٢٠١٨/١٠/٢٠٠١



رامون خ. سِنْدِر

ولد عام ١٩٠٢ في إسبانيا وتوفي في سان دييغو في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٢ . يُعدّ أحد أبرز الوجوه الروائية الإسبانية المعاصرة؛ غادر إسبانيا بعد الحرب الأهلية إلى المهجر واستقر به المقام في الولايات المتحدة حيث عمل مدرساً للأدب الإسباني في جامعاتها إلى أن وافته المنيّة فيها .

نال عام ١٩٣٥ الجائزة الوطنية الكبرى في الأدب . وجائزة بلانيتا عام ١٩٦٩ . من أعماله : كارولوش ملكًا -ثلاثية تاريخ الفجر- قداس من أجل فلاح إسباني- في حياة إيغناثيوموريل -تانيت- الجلاد اللطيف إلخ ... وسلسلة من الكتب النقدية .

يركز في رواياته على تحليل الأحاسيس الداخلية وربطها بالشأن الاجتماعي العام والسياسي، لكن الغلبة دائماً للفني والأدبي .

الملك والملكة:

تجري أحداث الرواية في قصر أرستقراطي في مدريد عشيّة الحرب الأهلية الإسبانية . إذ تجرح دوقة آرلانثا صاحبة البيت باستعراضها الجنسي إحساس الجنائني

الخلقي. وهذا الجنائني آخرقِنّ في سلّم القيم الإقطاعية الذي كان مايزال سائداً في ذلك العصر. يوم ١٨ تموز من عام ١٩٣٦ شهد بداية انقلاب وتحوّل في العلاقات الاجتماعية. فيستولي عناصر الميليشيا على القصر الذي تختبئ فيه الدوقة.

حبكة الرواية ذات طابع باروكي معقد وإشكالي وذو كثافة رمزية موحية: الدوقة هي «المثال»، أي إسبانيا التقليدية. والجنائني رومولو هو العنصر الإسباني البسيط والبطل والقوي الذي يطمح إلى تملّك هذا (المثال) المعرّض للخطر... فلايصنع شيئًا آخر سوى أن يحطّمه. ولسنا مع ذلك، بصدد رواية سياسية. وإنما هي قصّة بمضمون إنساني: تزول العبوديّة، لكن المهمّ بالنسبة للبطل أن يُنقذ الدوقة ويتحوّل إلى ملك إلى جانب ملكة بعيدة المنال.

I

على جانبي مطلع السلم كليهما مَحْمِل[1] من القرن السادس عشر ذو خشب مرصّع بالفضّة، ومنجّد بالحرير الأزرق، وعلى بابه الصغير نقوش بارزة من عصر النهضة. أمّا التنجيد الداخلي فيُرى مطرّزاً عليه رمز النبالة ممثّلاً بثلاثة رؤوس خنازير بريّة على أرضيّة قماش أحمر، إضافة إلى الشعار المكتوب بأحرف غوطيّة دقيقة: «حبًّا بالرمز وليس بالطريدة». هذه التفاصيل وأخر غيرها تشبهها كانت تضفي على جانب من القصر شيئًا من مظهر متحف كانت الدوقة تجده محبّبًا إليها.

كان القصر مكوّنًا من ثلاثة طوابق؛ وفيه برج كأبراج الأديرة يعلو الجناح الشمالي بمدى طابقين اثنين. وكانت تحيط به من واجهاته الثلاث حديقة كانت أشجارها تطلّ من فوق الجدران على شويرع هادئ. وقد كان أحيا الدوقان في هذا البيت خلال عامي ١٩٢٨و١٩٢٩ أفخم الحفلات التي عرفها البلاط. وكان يحضرها الملكان ذاتهما. وكانت تضاء الحديقة والبناء خلال تلك الليالي المترفة على شكل مستور. فقد كانت المصابيح المخفيّة بين طنف البناء ترسل ضوءاً مشتّتًا فوق العشب، وتنبعث من كتل البقس أضواء غامضة كانت تلفّ القصر كلّه بهالة غير واقعية. وكان رومولو البوّاب والمشرف على الحديقة ينظر بفخر إلى البساط

(١) - مَرْكَب متنقّل له قبّة ومحصور بين خشبتين تحملان على الأكتاف أو تُشدّان إلى حصانين أولهما من الأمام والآخر من الخلف.

الكبير الذي يغطّي السلالم الخارجية، ويمتدّ حتى الرمل الأصفر تحت ظلّة البوّابة. وكان على البساط طراز من الحرير الأبيض يبدأ من عند الباب وبعرضه أيضًا، وينتهي حيث كانت تقف العربة الملكية. وكان رومولو رأى الملك مرّات عدّة، ولم يكن يبدي احترامًا لشخصه، فقد كان يبدو له تمثالاً لعرض الأزياء، أو دمية ميكانيكية ذات ساقين خشبيّتين طويلتين تنتهيان بخير أحذية في العالم. وكانت الحفلات تدوم طيلة الليل. لكن الملكين كانا ينسحبان سريعًا. وما إن ينصرفا حتى يطلب رومولو الجنائني إذنًا من القهرمان في إطفاء أضواء الحديقة، لأنّ «تلك الأضواء تقلق راحة الأشجار والنباتات لاسيما الأزهار ليلاً».

كانت الدوقة من عائلة آرلانثا، وزوجها الدوق من عائلة ألكنادْرِه. لكنّ الناس ظلّوا يدعونه باسم آرلانثا، لأن القصر الذي يقطنه كان لتلك العائلة. وهو أمر كانت تُسرّ به الدوقة لأنه يشكّل إقرارًا بمتانة وضع عائلتها الاجتماعي. أمّا زوجها فما كان يكترث بذلك كلّه. فقد كان أهدى الدوقُ العجوز مالك العقار البيتَ إلى ابنته وصهره، وهذا يفترض التنازل عن ملايين عدّة. لا لأنه كان امرأً سخيًّا، وإنما كان يجد العيش صعبًا فيه كلّما تقدّم في السنّ. كان يخشى لأسباب يطول شرحها الإقامة في حجرات لقيت زوجه حتفها فيها. وكان يؤمن من جهة أخرى، بأنه لا يملك الحقّ في بيع إرث الأجداد.

كانت قاعة السلاح تقع في الطوابق السفلى، وكان فيها مسبح مغطّى. وقد كان ذلك المسبح والمصعد المشيّد عند أسفل البرج تجديدًا جريئًا في تقاليد القصر. وإلى هناك كانت تسعى الدوقة كل يوم تقريبًا لتسبح لمدّة نصف ساعة وهي عريانة عريًا كاملاً. وكان أحد بابي قاعة السلاح يطلّ على الحديقة، والباب الآخر على فناء داخلي مُحاط بالأعمدة. وكانت النوافذ العليا تعكس في الأصباح الشامسة على مياه المسبح الدافئة بقعًا صفرًا، وظلالَ الأغصان الخضر. وكانت الدوقة تلهو في المسبح كأنها طفلة، وتتردّد صيحاتها وسط الحجارة الرمادية، وتحت القنطرة

معيدة تشكيل الصدى بمنحه إصداء كالذي يُسمع في قلعة أو دير. وكانت تقول أحيانًا بعد أن تتعرّى: «ما أغرب هذه السعادة التي تشعر بها المرأة إذا تعرّت من ثيابها!» وكانت تقول ذلك في العادة وهي تنظر إلى (مانوكان) يستعمل لعرض أصناف من سيوف المبارزة، ويشبه حارسًا يقف إلى جانب خزن السلاح. فلم يكن مستغربًا أن تطلب إلى خادمتها أن ترفع عن بعض الزوايا الستارة التي تغطّي جانبًا من الجدار. وكانت الخادمة ترفع الستارة فتطير من خلفها دائمًا فراشة بيضاء صغيرة. وتطمئن الدوقة إذْ لا ترى أحدًا مختبئًا بين الستارة والجدار.

وكانت تنتصب في الجانب الآخر من المسبح إزاء منصّة الغطس التي كانت تقفز منها الدوقة إلى الماء، مرآة تعكس جسمها كاملاً، وكانت تتذكّر كلما نظرت إلى نفسها بتلك النظرة الشكّاكة التي تتأمّل بها النساء أنفسهنّ في المرآة: «في صغري، كان يقال لي إني إذا نظرت إلى المرآة عريانة، فقد ألقى الشيطان». ومافتئتْ منذ ذلك الحين تتأمّل نفسها في المرآة كثيراً، فلم تلقَ الشيطان قطّ. وخَلُصت إلى أن الشيطان قد يكون في اللذّة التي تتأمّل بها نفسها. لكن الشيطان لم يثر فيها أدنى خوف. «ربّما لأنه ذكر!» كانت تقول لنفسها. وكانت حتى في سنيّ طفولتها، تتصوّر الشيطان نوعًا من فتى جميل دون جوانيّ من فتيان الكنيسة. وقد قالت ذات يوم لكاهن الاعتراف، أيّام كانت تقرأ كثيراً ولديها (هوس التفسير).

- أتخيّل الشيطان شابًّا عالمًا أنيقًا جميلاً. هو في نظري ربما أشْبَهَ أبولو كما يراه الوثنيّون.

وكان الكاهن يضحك ويؤنّبها.

كانت الدوقة شابّة وسيّدة ذات عادات مألوفة. وهي، على الرغم من جمالها، لم تفسح المجال للكلام عنها لا عازبًا ولا متزوّجة. وهذا أمر نادر. ذلك لا يعني أنها كانت تسلك حياة زهد. فقد أتيحت لها بوفاة أمّها وانشغال أبيها عنها بعشيقاته وجياده حريّة سارّة استغلّتها في الأسفار وممارسة بعض أنواع

الرياضة. ثم تخلّت عن الرياضة شيئًا فشيئًا، لأنها كانت «تزيد في نمو ّعضلاتها». تلك كانت الحجّة الرسمية التي أبدتها لنفسها. لكنّ الواقع هو أنّ «الحرية الرياضية» تُفهم خارج إسبانيا بمعنى مزدوج؛ وهي كانت تكره كلّ خطأ في الحساب. كانت تسير في العادة بصحبة عمّتها البارونة آلكور المولعة بالأسفار. وفي سفر من تلك الأسفار تعرّفت في سويسرا على إستبان ر. مركيزر. الذي اشتُهر في مدريد بأنه تبِع نساء رهيب، وكان على مثال الصورة التي كوّنتها في طفولتها عن الشيطان. فحظي بإعجابها لهذين السببين معًا؛ واصطحبا مدة من الزمن. فكانا يُريان معًا في كلّ مكان. لكن إستبان -كما كانت تقول في سرّها. - لم يكن رهيبًا كما كان يبدو. ولمّا أدركت أنه يعاملها «بشكل آخر»، لأنّ فكرة خامرته بأن يتزوّجها، خاب أملها فيه خيبة كبيرة دون أن تجد لها تفسيراً. فعادت إلى مدريد؛ وخلال أسابيع تزوّجت دوق ألكنادْرِه. وهو رجل لطيف وجادّ وشديد المراعاة للأعراف الاجتماعية. وقد سيطرت عليه سيطرة لو خانته بعدها لبدت له الخيانة تعسّفًا غير مجد. ولم تكن الدوقة من جهة أخرى ذات طبع قويّ.

وكان الدوق يجد في طبع امرأته ذاك تناغمًا غير ثابت، وإنّما هو متقلّب وملآن بالمفاجآت الصغيرة منها والكبيرة. وكان يشعر بالنشوة كلّما انبعثت هذه المفاجآت بلطف كماتنبعث الألوان والأشكال في الضوء الطبيعي الثابت دائمًا والمتبدّل دائمًا. لكن الدوقة كانت تنفرد أحيانًا ببوادر مزعجة. وكانت هذه التقلّبات الطارئة تبثّ الرعب في نفس الزوج الذي كان مغرمًا بها حتى المدى الذي يستطيعه رجل عاجز عن الحبّ. حتى أنه قال لها ذات يوم إنها غول من الغيلان، لكنه يحبها كما هي.

وبدت على محيّاها علائم جد كبيرة:

- غول نحبها، ليست غولاً وإنما هي أعجوبة.

كانا يعيشان بانسجام، لأنّ أيًّا منهما لم يكن يحاول أن يسبر أغوار مشاعر الآخر. وكانت الدوقة تقول دائمًا: «نحن زوجان مثاليّان لأننا لسنا مُغْرمَيْن ببعضنا». كانت الدوقة ذلك الصباح من تموز ١٩٣٦ ما تزال تسبح في المسبح وتفكّر في أن تخلّفها عن الخروج هذا الصيف من مدريد، أخذ يلفت انتباه الأقرباء والأصدقاء. كانت تسبح عريانة عريًا كاملاً. وكان جسمها ينساب بحركات حلوة بين ألواح المسبح المرمرية. كانت تطفو ساكنة على سطح الماء، لما دقّ رومولو الباب المطلّ على الحديقة. كان رجلاً في أواسط العمر، وله رأس فلاح قرطبي من العصر الروماني. وكان قليل الكلام وذا أفكار ثابتة جداً حول الأشياء والأشخاص. وهو، ككلّ الفلاّحين شكّل فلسفة خاصة به ويسرّه أن يعمّمها. فكان يقول عن الحياة إنها «كومة من المتناقضات». وكان يحاول أن يوطّد النظام في ذلك الخليط كونه أحد أفضل الجنائنيّين في البلاط. دقّ الباب مرة أخرى. وسارت الخادمة لتفتح. كان الباب منحرفًا عن المسبح لأنّ قاعة السلاح ضخمة وتشكل زاوية -فلم تجد الخادم بأسًا في فتحه. سمعتهما الدوقة يتجادلان. وكان صوت الخادمة الحادّ وصوت الجنائني الخفيض يشكّلان طباقًا طريفًا. كان رومولو يلحّ على أن الدوقة أصدرت له أوامر خاصة. فتدخّلت الدوقة حينئذ قائلة:

- ادخل، رومولو!

وتقدّمت الخادمة.

- سيدتي، إنه رجل!

وقوّست الدوقة حاجبيها

- وهل رومولو رجل؟

وضحكت ضحكة صغيرة كأنها سقسقة عصفور. وكانت ما تزال تضحك لما وصل، وحاولت الجارية أن تطوي إحدى المناشف. لكن يديها كانتا ترتعدان. وكان صوته يرتجف أيضًا لما ألقى تحية الصباح. وكانت الدوقة ماتزال تطفو على

ظهرها محركةً يديها وقدميها حركة خفيفة. وكان رومولو الذي سمع جملة الدوقة والسقسقة التي كرّست بها احتقارها له وختمته: «وهل رومولو رجل؟» يفكّر في أنه لو حاد ببصره عن جسم سيّدته، لكان ذلك منه إعلانًا بنشاز الموقف وشذوذه. لذلك، ظلّ ينظر من غير أن يرفّ له جفن، ولا مفر من القول، من غير أن يرى أيضًا؛ وبوقوفه إزاء الدوقة العريانة كان يحسّ بنفسه أنه شخص آخر. كانت الحاجة إلى فهم «ذلك الآخر» الذي كان يمثّل له مفاجأة فظّة تمنعه من إدراك ما كان يراه؛ تناولت الدوقة الظرف الذي مدّه إليها وفتحته وقرأت شيئًا ما في ورقة، ثم أعادت الورقة إلى الظرف وأعطته الخادمَ وهي تنظر إلى رومولو.

- وحامل الرسالة: أهو سائق السيدين م.؟

- نعم، يا سيدتي.

- أما زال ينتظر؟

- بلى، يا سيدتي.

- قل له أنّي سأتصل عند الظهيرة.

وما كان رومولو يستطيع الحركة. لحسن الحظّ، اعترضت الخادم بينهما ونشرت مناشف على حافّة المسبح، وحطّمت تيبّس الهواء في ذلك المجال حيث الضوء كان يبدو أنه قد تبلمر، وجعلت حركة الجنائني ممكنة، فقدّم قدمًا وحاول أن يسير، وانطلق أخيرًا. لما خرج إلى الحديقة كان رأسه يدور دورانًا، وعاد إلى البوّابة ببطء ناظرًا إلى قدميه ذاتيهما، إلى هاتين القدمين اللتين شُدّ إليهما ظلّ جسمه، وما كان يعي شيئًا: لا الظل، ولا قدميه ولا عينيه المبهورتين نفسيهما. وقد كان نسي من حمل الرسالة. ولمّا رأى العربة أمام الباب الحديدي بدا كأنما استيقظ من نوم.

إبّان ذلك، كانت الخادم الخائفة تبدي جزعها في كل حركة، وفي كلّ نظرة، وفي كلّ صمت. وكانت تفكر: «تجري حوالي السيدة أمور كما في الأحلام». وتنبّهت الدوقة لذلك وقالت:

- جنائني ليس رجلاً!

وانقلبت على جنبها، وراحت تذرّع في سباحتها. ثم خرجت من الماء، وتناولت الظرف مرة أخرى، وأخرجت منه برقية، وقرأتها من جديد، وأحرقتها بعدئذ في فرن كهربائي كان قرب المزينة. ولزمت الصمت. وكان للصمت بين تلك الجدران من الرخام والحجر القشتالي ما يشبه نسيماً عذباً. ثم سُمع في الحديقة صوت فرملة عربة. ولعلع بُعيد ذلك، صوت الدوق في الجانب الآخر من الباب طالبًا إذنًا في الدخول.

- انتظر! - أجابت الدوقة طالبة البرنس الذي تلفّعت به.

ولما استطاع الدخول، خرجت الخادم خفية. وراح الدوق يذرع المسافة بين المزينة والمسبح بخطا عصبيّة وعلى وجهه تعبير قاتم.

- لم أجد أحداً في بيته. أحسبهم خرجوا جميعًا وصاروا في أماكنهم المقصودة.

كانت الدوقة تستمع إليه وقد أولته ظهرها متنبّهة إلى المرآة التي كانت تتراءى فيها بتلك النظرة الحادّة الثاقبة التي تنظر بها إلى منافسة أخرى. وقالت:

- سبق أن قلت لك بألا تزعج نفسك. لأن الأخبار جاءتنا حتّى عقر الدار.

وأشارت إلى الورقة المحروقة على الرخام وقالت:

- غداً في الساعة السابعة.

كان الدوق يلعب لعبة خطرة. وكانت هذه أولّ مرة منذ قرون يخاطر فيها آل

أرلانثا وآل ألكنادره بحياتهم. وكانت الدوقة تنظر إلى زوجها بفضول متحفّظ. ولمحت على قسماته قراراً حاسماً يشوبه ظلّ من ضعف. وكانت «نرفزته» تثيرها، وإن كانت «نرفزة الوداع». وإلى أن يقع الحدث سواء أكان ملائمًا أم معاكسًا فإن الدوق قد يستعيد هدوءه.

- ماذا سيجري؟ -سأل:

- كنت تؤمن بأن النصر مضمون وسهل.

- كلّما اقترب الموعد تجلّت الصعاب على شكل أوضح. وأنتِ، ماذا تحسبين؟

- هناك طريقة للانتصار دائمًا.

- كيف؟

- يكفي أن تعرف كيف تخسر.

- كان الدوق يردّد إنه لا يستطيع البقاء في مدريد، لأن النهار فيها يبدو له طويلاً على شكل موئس. ولم يهتديا إلى برنامج معيّن فعزما على الانتقال إلى سيغوبيا حيث كان يصطاف أب الدوقة. وسيتناولان الطعام معه ويعودان في آخر ساعة من المساء. ولعلّ الدوقة كانت ترغب في أن تطمئنّ إلى أن أباها لايصطحب «اللئيمة». ولربما كانت غفرت لتلك المرأة التي لا تعرفها لو أن الأمر اقتصر على أنها مجرّد صديقة أبيها. لكن ثبت أنها كانت منذ سنوات كثيرة خلت، ضالعة في موت الدوقة الأم (حسب سلسلة مسمومة من الدسائس). ولاكت الألسن اسم الدوق باستخفاف كبير. جرى كلام كثير عن انتحار، وقد استقرّ الرأي رسميًا على هذا الرأي. لكن الناس ما فتئت تتحدّث بشكل آخر، وفي ضمير الدوقة ما انفكّ ظلّ من شكّ كان كافيًا حتى لا تستطيع التفكير في تلك المرأة دون نفور. بالمقابل، لم تكن تتهم أباها. بل كانت تقول لنفسها إذا ما حلّلت سلامةَ حكمها ذاتَه على هذا الأمر الشائك: «أنا لا أتّهمه، ربما طلبًا منّي للراحة».

ولما صارت الدوقة مستعدةّ خرجا إلى سيغوبيا. فأقفُلت أبواب القصر وجلس رومولو عند عتبة باب بيته المشاد بالآجر الأحمر والمختفي بين الأشجار قرب الباب الحديدي، وما يزال يقطنه منذ خمسة عشر عاماً. وكان ينظر من فوق الصحيفة إلى زوجه بلبينا التي كانت تروح وتجيء مشغولة. وأخذ يولد داخل خياله ويثمر، ويريد أن ينمو ويمتدّ (رومولو الآخر) الذي لقيه عند المسبح وما زال لايفهمه. لم يكن جديداً عليه تمام الجدّة. فقد كان عرفه، عرف رومولو ذاك لمّا كان في التاسعة عشرة أو في العشرين من عمره. ثم أخذت الصورة تفقد بُعيد ذلك مرحها وحيّويّتها، وانتهت إلى أن فقدت خطوطها وشكلها أيضًا، وتلاشت أخيراً قُبيل بلوغه الثلاثين. كان رومولو ذاك أكثر ثقة بالحياة وبنفسه؛ لكنه تذكّر بغتة كلمات الدوقة: «وهل رومولو رجل»؟ وشعر بنفسه يترنّح. وكان يتذكّر الضحكة التي تلت تلك الكلمات. وأحس بأنه مهزأ. وسأل امرأته:

- ماذا تقولين لي، يا بلبينا، لو سألتك ما هو الرجل؟

وراحت زوجه تنظر إليه راغبة في أن تتحقّق مما يدور داخل ذلك الرأس. ونطقت أخيراً.

- ألا تعرف خيراً مني، ما هو الرجل؟

لكنّه كان يُعدّ سؤالاً آخر أصعب. سؤال جد صعب حتى ما كان يجرؤ على طرحه.

وأخيراً قال:

- أتسمحين بأن يراك الدوق عريانة؟

وأجابت بلبينا شاعرة أن في الأمر دعابة:

- ما هذه النكتة؟ ولا بشكل من الأشكال.

- ولِمَ؟

- لأن السيد الدوق رجل.

آه! لكنّ رومولو ليس رجلاً! فقد سبق للدوقة أن قالت ذلك. وقد ضحكت من عبارتها: «وهل رومولو رجل؟». لأنّ هذه الفكرة وحدها جعلتها تضحك. مسح جبينه بيده دون أن يعي شيئًا. وصار الأمر فوق طاقته. فذهب عند الظهيرة باحثًا عن جارية الدوقة؛ فوجدها جالسة إلى الطاولة في غرفة معيشة الخدم. وقال لها بصوت خفيض:

- أرأيت ما جرى هذا الصباح؟

- لمّا سلّمتَ السيدة الرسالة؟

- نعم. لكن، كان هناك شيء خارق غير مألوف.

- أي شيء؟

- شيء لا يُصدّق.

قدّمت له الخادمة مقعداً.

- حقًا! حسب نظام الخدمة، كان يتعيّن على خادم آخر أرفع مرتبة منك، أن يسلّمها الرسالة وليس أنت.

- لا أعني ذلك، يا امرأة. أنتِ تفهمينني.

وابتسمت الخادم.

- رومولو، بعد الحلاقة يرتسم ظلّ أزرق على وجهك يلائمك جداً.

- دعيكِ من السذاجة! أسمعتِ ذاك؟

- أي شيء؟

- ما قالته السيّدة.

وكانت تنظر إليه دَهِشة.

- قالت السيدة إنها ذاهبة إلى سيغوبيا.

وأدرك أنّ إلحاحه على الخادمة كان أمراً مضحكاً أيضاً.

- لابأس، لابأس عليك! -قال:

وخرج، وعاد إلى بيته بخطا بطيئة. وعدّ سعيه عبثاً لدى الخادم بحثاً عن تفسير ما، أشدّ إذلالاً له.

كان رومولو ما يزال عند العصر في حجرته التي تطلّ نافذتها على الشارع، لما سمع دقّاً على الزجاج بالعصا. فدنا منها ولم يرَ شيئاً. «لِمَ لا يُقرع الجرس؟» فقالت زوجه بلبينا: «ربما كان إيلينا!» وخرج إلى الحديقة مستاء.

إلى جانب مدخل العربات، كان يوجد باب آخر أصغر كثيراً. وكان يقف على الجانب الآخر منه إيلينا. على الرغم مما يوحي به اسمه، فلم يكن امرأة، وإنما رجل في الأربعين من عمره، جدّ صغير حتى لا يكاد يبلغ ركبتي رومولو، وقد سمّاه الناس إيلينا بإدغام أحرف (إيل إينانو) أي القزم، كان يُعنى بملبسه عناية فائقة، وعلى رأسه الكبير يرتسم تعبير صارم جداً، وكان من عادته أن يقول بفخر: «صغير، لكنه شديد». وكان يعمل في معمل شمع في الحي وحاول عبثاً منذ سنوات خلت أن يدخل في خدمة القصر. ولما وجد رومولو فارغاً من العمل، قال:

- أليس معاليهما هنا؟

- لا!

- آسف! جئت أنقل إليهما شيئاً هامّاً جداً. أنت يمكنك أن تنقله إليهما، يا رومولو.

- أنا؟ ما هو؟

- اغتيل كالبو سوتيلو .

وما كان يوحي ذلك الاسم لرومولو بشيء . وأضاف إيلينا وقد ثنى ساقيه شيئًا قليلاً .

- أنت تعيش في السماء!

ثم قال وكأنه لا يريد تجشّم عناء تلقين رومولو سرّ المسائل السياسية :

- قل ذلك لسيّديك .

وفطن إلى أن رومولو لاينوي أن يقول لهما ذلك ؛ فأضاف ليتحقّق من أنه لايجهل نظام تسلسل الخدمة .

- قله للقهرمان ، وهو سينقله إلى المدير ، وهذا بدوره إلى سكرتير سيادتهما .

ثم راح يسعى على ساقيه القصيرتين متبختراً . ورآه رومولو يدنو من أحد الأبواب في الجانب الآخر من الشارع ، وينظر بإمعان إلى تحت وإلى فوق ، ولما تحقّق من خلوّ المكان ، رسم بالطباشير صليبًا معقوفًا على الباب . عاد رومولو إلى البوابة وقال لزوجه : «أنا لا صبر لي على هذا الرجل اشمأزّت نفسي منه» .

وصاحت بلبينا : «مسكين منكوب!» واحتج رومولو : «لا أرى سببًا لشفقتك عليه . هو أكثر مخلوقات الله رأته عيناي رضًا عن نفسه» . لكنّه كان ما يزال قلقًا متذكّرًا حادثة المسبح . وما كان يستطيع النوم حتى يعود سيّداه . وكان الوقت قد تأخّر كثيراً لما سمع صوت العربة . ففتح الباب وقد بهرته أضواؤها . وكان يبدو أن ذلك الضوء ينبعث من الدوقة ، من ذات الدوقة التي كان يتصوّرها عريانة في العربة كما كانت في المسبح . وما كان يستطيع تجنّب هذا التصور . كما لم يستطع رؤية من كان في داخل العربة ، وإن تعرّف على السائق لما ردّ له تحيّة المساء . ثم اضطجع بعد

أن أقفل الباب. وما إنْ مضت ساعة عليه في السرير حتى رنّ جرس الهاتف قربه. كان القهرمان يهتف له قائلاً إن السيد الدوق سيخرج مرّة أخرى. فلبس ثيابه على عجل وخرج ليفتح الباب ثم يغلقه بعد ذلك. ولما رجع رأى ضوءاً في جناح القصر حيث حجرات الدوقة. كان الوقت تأخّر كثيراً، وسمع مذياعاً بعيداً يذيع أخباراً، ولمح أشياء جديدة في عادات أهل البيت. وانقلب إلى مخدعه قائلاً لزوجه:

- شيء ما يجري حولنا!

- نعم، وأنا أرى أيضاً حركة كبيرة جداً. وكأنّ العائلة شهدت ولادة طفل أو موت عجوز.

وخفّف ذلك عن رومولو الذي كان يحاول عبثاً أن ينام. وكان القصر ما يزال في حركة واضطراب. وكانت الهواتف ترنّ مرة بعد أخرى. وقالت له بلبينا أن ينهض ويرتدي ثيابه، فلربما استُدعي على عجل. لكنه لم يجبها. وأطفئت الأنوار أخيراً، وهمدت الضوضاء. ونام رومولو.

- في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، تحولّت مدريد إلى ساحة معركة. وعند العاشرة، كان يبدو أن القتال يتركّز في ثكنة مونتانيا، وهي تجمّع من المنشآت العسكرية تحتلّ تلّة معزولة بحدائق وشوارع بين ساحة «إسبانيا» وروساليس. واستطاع عند الظهيرة شعب مدريد بعد هجوم متكرّر كلّف مئات الضحايا، أن يستولي على الثكنة ويخمد حركة المتمرّدين. وتغيّر مظهر المدينة في ساعات قلائل. فقد جرت أغرب الأمور بأبسط طريقة وأيسرها. جوّ مدريد الذي كان جوّ يوم عمل رجّه قصف المدافع، انقلب وبدا جوّ عيد واحتفال. عُثر بعد المعركة على خمسين قتيلاً بين ضابط صغير وكبير في باحة ثكنة مونتانيا. وعثر في جيوب أحدهم على وثائق تدين الدوق ألكنادره.

ظهرت عصراً أمام باب القصر الحديدي عربة «الهسبانو» التي كان خرج فيها الدوق الليلة الفائتة، وقد اخترقت صادَّ الريح طلقتان. كانت السيارة تغصّ بشبّان يحملون بنادق ويطوّقون أذرعهم بشارات الجمهورية. وراح رومولو ينظر إليهم دون أن يعي شيئًا. فلم يكن يرى في ذلك كلّه شيئًا من الجدّ، وفكر: «يبدو أنهم جاؤوا ليصنعوا فيلمًا سينمائيًا». وسأل بسذاجة:

- أليست هذه سيّارة السيد الدوق؟

- لا وجود «لسيد». -قال أحد أفراد الميليشيا مشددًا على كلمة «لسيد». - والعربة مصادرة لصالح رجال الميليشيا الجمهوريين.

قال ذلك وهو يشير إلى ورقة مختومة ملصقة على صادِّ الريح. فطلب إليهم رومولو أن ينتظروا. وتغلغل داخل القصر. كانت الدوقة في الممشى تنظر من خلال الزجاج. وراح رومولو يردّد في الطريق تلك الكلمة -مصادرة. - التي يسمعها لأوّل مرة في حياته. أمّا عبارة «لا وجود لسيد»، فلم يكن يعلم بما توحي به إليه. وانتابه مرة أخرى شعور «برومولو الآخر» لمّا وقف أمام الدوقة التي كانت تنظر إليه بصمت. فكرّر كلمات عناصر الميليشيا، وقالت له الدوقة التي امتقع لونها قليلاً:

- لا يمكننا أن نقاوم. افتح لهم.

وتدخّل القهرمان العجوز.

- يستحسن أن تتوارى السيدة الدوقة قبل أن نفتح لهم.

وسارت ببطء صوب المصعد الذي كانت أبوابه المنزلقة الموضوعة بإحكام بين عمودين تخفيه إخفاء تامًّا. وخرج رومولو وفتح الباب. ووصلت العربة وفرملت بعنف إزاء الباب الرئيس، ونزل منها عناصر الميليشيا ودخلوا ما عدا اثنين منهم ظلاّ خارج البناء يحملان بندقيتهما. وكان التعب يتجلّى في عيونهم جميعًا، ووجوههم

سفعتها الشمس. وكان في حركاتهم شيء من الخطر، لكنّ طريقتهم في الإنصات كانت ملأى بالهدوء والحسّ بالمسؤولية. كان القهرمان يؤكّد لهم أن أيًّا من أفراد عائلة الدوق غير موجود في البيت. وصدّقه عناصر الميليشيا، حتى قال من يبدو عليه أنه رئيس الدورية: «هذا طبيعي! فما كانوا ليظلّوا هنا بانتظارنا». وكان الخدم يتكأكؤون خلف باب زجاجي ضخم دون أن يجرؤوا على الخروج. وسأل عناصر الميليشيا القهرمان:

- أيوجد بينكم من ينتسب إلى حزب جمهوري؟

ونفى القهرمان بإيماءة منه وجود شيء من ذلك. فأمر أحد أعضاء الميليشيا الخدم أن يخرجوا. ولما تجمّعوا جميعًا على شكل نصف دائرة كبيرة، وقال لهم:

- ألا يوجد بين خدم المطبخ أو الحديقة أحد منتسب إلى نقابة ما؟

نظر رومولو إلى عربة / الهسبانو/ التي رُسم على صادّ الريح فيها ثلاثة أحرف بيض، وتذكر أنّ لديه أوراقًا وبطاقة مروّسة بهذه الأحرف ذاتها. فقد حثّه منذ أشهر خلت أحدهم للانضمام إلى تلك النقابة. فقام بذلك إرضاءً له مفكرًا في أن الأمر يخلو من الأهميّة. وتقدم وقال:

- أنا. أنا عضو نقابة، وهذي هي أحرف اسمها الأول.

- حسن! -قال عنصر الميليشيا. - فليخرج الآخرون جميعًا من البيت. أماأنت فلتبقَ، واستلم المفاتيح. ولسوف تتعهّد لنا بألا يدخل أو يخرج أحد من غير علمك. ألديك سلاح؟

- لا!

عزموا على تسليمه مسدّسًا لكنهم طلبوا منه أولاً إبراز بطاقة النقابة. وسعى باحثًا عنها. ولما عاد سُلّم السلاح، وقيل للخدم الآخرين:

- أمامكم ساعتان كي تغادروا البناء الذي صار منذ الساعة ملك الجمهورية، أي ملك الشعب.

تمّ ضبط محتويات البيت على عجل. وكانت الخادمات يرحن ويجئن باكيات وهن يعددن أمتعتهن، وشرع أعضاء الميليشيا يبحثون في أوراق الدوق الخاصّة، لكن، تبيّن لهم أنها مهمّة شاقّة ولا تفضي إلى نتيجة. حتى قال بعضهم إنهم يضيعون وقتهم، وإنه شخصيًّا، لا يريد الهبوط إلى مستوى تلك المهمّة البوليسية. أمّا الدوقة فلم يسأل عنها أحد. ونزل الجنود إلى قاعة السلاح وأخذوا منها أحزمة وحمائل وسيوراً وثلاثة أزواج من أحذية الركوب. وكان رومولو يرافقهم في جولتهم تلك. ولما رأى نفسه إزاء المسبح راح يستعيد مشهد اليوم السابق في ذاكرته. صارت الشمس لا تدخل الآن من النوافذ العالية، وإنما كانت تُرى أغصان الأشجار ذات الخضرة الناضرة الخضِلة. وكان رومولو يصغي إلى أسئلة أعضاء الميليشيا، وكان يجيبهم بلهجة صادقة بسيطة؛ لأن أولئك الرجال الذين يرتدون ثياباً مدنيةً مثل كلّ شخص آخر، ويحملون سلاحهم على أكتافهم ويطوقون أذرعهم بشعارات الجمهورية، لم يكونوا يوحون إليه بأدنى انطباع برهبة السلطة. وكان يبدو له خبر موت الدوق شيئًا لا يُصدّق. وخلوّه من إمكانية التصديق كان يضفي على الأشياء الأُخر مظهراً لا واقعيًا أيضًا. لكنهم، لما غادروا قاعة السلاح وغرز أحد العناصر سيفًا كان يحمله في يده، في واقية صدر (المانوكان) فكر رومولو أنّ في حركة ذلك العنصر رهبة وعفوية مدهشتين. وقد يكون شيء من الحقيقة في كل ذلك. ولما سلّمه من يبدو أنه رئيس المجموعة الشعار الجمهوري مختومًا بختم أزرق في الشريط الأصفر الذي يشكل أحد ألوان العلم الوطني، وقال له: «مرتّبك سيُصرف من حساب اللجنة الوطنية للمصادرات»، رضي بذلك، لأن بيت الدوق آرلانثا قد ينهار في ظـــروف معيّنة، ثـم تلقّى من القهرمان المفاتيح، كل المفاتيح. ولم يُصدق نفسه إذْ وجدها في يده. وصار له ملء الحقّ في فتح الأبواب وإغلاقها والتصرّف بالأشياء بلا إذن من أحد. كان البيت، بصفته بيت نبلاء، موجوداً مؤقّتًا فقط بشخص الدوقة التي ماتزال مختبئة،

وصارت تحت رحمته. ولو مكث يفكّر في ذلك لرأى نفسه مرة أخرى، وكأنه إزاء شخص آخر -مثل رومولو أيّام شبابه-؛ وكان التغيّر الطارئ سريعًا جدًا حتّى لم يدعْ له مجالاً للتفكير. ذلك كأنما الحياة نفسها، بعرضها عليه تلك الصورة الباهتة عن نفسه، فقدت كل قوانينها الخفيّة التي جعلتها خطيرة ومهيبة، وتحولّت إلى فكاهة.

انصرف عناصر الميليشيا، وعاد رومولو إلى مسكنه في وقت متأخّر من المساء. وضع المسدس وحزمة المفاتيح على المنضدة-(أكثر من خمسين مفتاحًا) معلّقة بها بطاقاتها ومكتوبًا عليها أرقامها. ولبث مدة طويلة يتأمّلها محاولاً تنظيم أفكاره. وبدا له أن كل ما قام به تقريبًا ينطوي على معنى خطير على شكل غامض. «رأيت الخدم يخرجون من غير أن ينطقوا بكلمة واحدة».

«فتّشت حقائبهم كما يفعل شرطيّ. ووجدت في حقيبة الطبّاخ أشياء ذات قيمة، فأخرجتها نزولاً على طلب الميليشيا بعدّها ليست ملكًا له».

«سمحت لرجال الميليشيا أن يحتفظوا بسيارة الهِسْبانو».

«ما كان بمستطاعي تجنّب ما حدث. لكني كنت مسؤولاً بشكل ما. إذ دللتهم أيضًا على سيارتي البويك والشيفروليه الموجودتين في المرآب. وسوف يأخذونهما غدًا صباحًا».

«قبلت شريطة الذراع الجمهورية والمسدس».

ولما وصل في أفكاره إلى هذه النقطة سأل زوجه عن شريطة الذراع. فقالت له إنها ألقت بها إلى النار. وأردفت درءًا للنزاع، إن لديهم ما يكفي منها. فسكت وخرج إلى الحديقة مرة أخرى. كانت تُسمع من بعيد طلقات متفرّقات خلال هواء أكثر طراوة وكأنّ الشفق سكب عليه عطوره. وكان المساء أيضًا مساء بهجة واحتفال. وكان رومولو يتذكر الدوقة عريانة. «ذلك العري جلب كلّ هذه

الفوضى» كان يقول لنفسه بقناعة كبرى. «كيف؟ ولِمَ؟ هذا أمر لن أعرفه أبداً».
كان يرى الحديقة صامتة هادئة تبدو كتل البقس فيها سوداً عند حلول الليل، أمّا الحور فكان على العكس منها، ذا خضرة مضيئة. كان يتذكر ليالي الترف إبّان الحفلات الكبرى. إذ كانت الحديقة والقصر والسماء نفسها في عليائها تبدو حينئذ من بلور. وكان ينظر الآن إلى الحديقة المقفرة وإلى الحجارة المشغولة قوام العمودين اللذين يشكلان دعامتي الباب الحديدي، ويقول لنفسه: «لا أدري ماذا يمكن أن يحدث بعدُ منذ أن رأيت السيدة الدوقة كما رأيتها أمسِ. لكن كل الناس يحتفلون كأنهم في عيد». وكان يحمل المفاتيح في يده ويتأملها شارد الذهن: «إنها الحرب. لكن، أية حرب؟ وأيّ صنف من الحرب هي؟ لكن، ماذا سيحدث هذه الليلة أو هذا الصباح؟» وكان ينظر إلى جادّة السرو المنعزلة. لقد قُتل الدوق، والعصافير تصخب بين الأغصان العالية قبل أن تأوي إلى أعشاشها. وكان يسأل نفسه إن كان ما قام به، أو ما لم يقم به، حسناً. ومسح حنكه بيده الخشنة محدثاً ضوضاء جافّة وكأنّ جلده من كرتون. «انصرفوا جميعاً. انصرف كل منهم لشأنه. وأنا؟» عاد إلى بيته. وما عتم أن سمع مرة أخرى قرعاً بالعصا على الزجاج. وقالت بلبينا: «إنه إيلينا». وتمتم رومولو الذي كانت تغيظه هذه الطريقة في الدق: «ولِمَا لا يدقّ الجرس؟» فذكّرته بلبينا أنه لا يبلغ الزرّ بيده وخرج. كان إيلينا في الظلام يشبه بقبّعته الزاهية فطراً نبت بين بلاط الشارع. وأطلع رومولو على مسدس كان يتقلّده في خصره.

– قل لسيادتيهما: إني تحت أوامرهما.

وانطلق ينحدر في الشارع دون انتظار جواب. لكنه ما لبث أن عاد وقال:

– ينبغي لسيادتيهما أن يتذكرا (جوكيًّا) عمل عندهما منذ ست سنين يُدعى فروالان. قل لهما إني أحد أبناء عمومته.

وأبرز أخمص السلاح مرة أخرى، وبصق مشيحًا بوجهه قليلاً وقال:

- «الحمر» يبحثون عني. وإذا ظلّوا يبحثون عني فسوف يعثرون عليّ. وانصرف. وما كان رومولو يدرك معنى: «الحمر» ولا كالبوسوتيلو، ولا الصلبان المعقوفة على الأبواب، ولا القزم المطارد. ومن عساه يطارد قزمًا بجدّ؟ لكن القزم، فوق ذلك: «كان يتولّى حماية سيادتيهما». وأخذ فهمه يتضاءل شيئًا فشيئًا. وجلس عند عتبة مسكنه. وكانت الدوقة في الطابق الأخير من البرج، وكان يتخيلها عريانة. وما كان يستطيع ذلك النهار أن يفكر فيها من غير أن يراها على هذا الوضع. وكان البرج مكوّنًا من خمسة طوابق مخصّصة للمدعوين، لم تُستعمل منذوقت ما. أعني أربعة طوابق. لأن الطابق الأرضي كان مغلقًا منذ موت الدوقة الأم. وكان رومولو ينظر إلى البرج. كان يرغب في صنع شيء من أجل الدوقة. لكنه ما كان يستطيع صنع شيء غير انتظار أوامرها.. وكان الليل قد خيم لما رنّ الهاتف في البوّابة. وكان الاتصال منها. كانت جدّ هادئة كعادتها وطلبت إليه أن يوقد مراجل منشأة أصبحت لا تُستعمل، من أجل تزويد البرج بالماء الساخن؛ وأن يحمل إليها مذياعًا. كانت ما تزال تتكلّم بخفة وعزم هادئ هدوءًا تامًا، حتى لايُخيل إلى أحد أنّ زوجها فارق الحياة منذ قليل. وختمت كلامها بأن يتنبّه إلى تصرفاته، لأنه قد يُسأل عنها ذات يوم. هي وإن قالت ذلك بلهجة تحذير وديّ، فقد خرج إلى الحديقة مغمومًا دون أن يدرك لما بدت له تلك الكلمات تهديدًا.

لما صعد حاملاً المذياع رأى الدوقة تذهب وتجيء ناظرة إلى كل شيء باهتمام مجرّد نظرة شخص بدّل مسكنه للتوّ. وركّب جملة تتلاءم والظروف: «أشارك السيدة ألمها». وراحت تنظر إليه وكأنها تراه لأول مرّة.

- ولِمَ تكذب، يا رومولو؟ -قالت باسمة. - أنت لا تشعر بحزن لموت الدوق وهذا طبيعي. إذًا، لا حاجة بك إلى أن تقول شيئًا.

وكانت تروح وتجيء محاولة التآلف وجو تلك الحجرات التي لم يقطنها أحد قطّ. كانت حجرات فسيحة ومريحة، وفيها ثريّات بلّورية ومرايا قديمة وسجّاد ذو ألوان زاهية. كان مخدعها قرب السطيحة. وكان له كل إغراءات حجرة أمراء. لم تكن تشعر بالاستياء لوجودها هناك. لكنها كانت سمعت حكايات قديمة ذات صلة بالبرج. وكانت كلّما تقدّم المساء تنظر بخوف إلى هذا الجانب أو ذاك، وكأنها تخشى أن ترى صور الأجداد وقد تجسّدت في الهواء. وأحست بالطمأنينة لمّا ظهر رومولو الذي ظلّ واقفًا إزاءها متحاشيًا النظر إليها، لأن وراءها لوحة ضخمة معلّقة على الجدار تمثّل البحر بسمائه الزرقاء وأمواجه التي تتحطّم على شاطئ ضحل، وكان وجه الدوقة ينتصب إزاء المياه وكأنها على شاطئ أو عند المسبح. وخامره إحساس بأنها تسأله شيئًا ما. ذلك أن للأمكنة المهجورة مدة طويلة أصداءً مختلفًا. وأبطأ حتى أدرك ذلك. وكانت الدوقة تسأله إن كان أعضاء الميليشيا قالوا له متى سيعيّنون حارسًا دائمًا، فأجابها إنه سيكون اليوم التالي، لكنه حاول طمأنتها قائلاً إن القصر كبير جداً، وإنه سيسهر على أمنها وسلامتها ليل نهار.

- أو نهب «الحمر» البيت؟- سألت:

- لا، يا سيدتي. لم يمسّوا شيئًا منه.

وكانت تنظر إليه ببرود.

- هم شبّان طيّبون. أليس كذلك؟

وكان على وشك أن يقول: بلى، لكنه كبح نفسه؛ وبدلاً من أن يؤمّن على كلامها بهزّة من رأسه، مال بهذا الرأس إلى أحد منكبيه وفتح ذراعيه قليلاً. كان موقفها يبدو له جد متعجرف حتى ما كان يدري ماذا يقول. وكان على وشك أن يتكلّم لما قالت له بلهجة عتاب وديّة:

- لا أرغب في وجود مواقف مزيّفة في بيتي. رومولو، أنت حرّ بنفسك، فارحل كما رحل الآخرون، إن أحببت.

وتلعثم رومولو:

- أفضل البقاء في خدمة سيدتي.

ورأت الدوقة أنها ملزمة بتحذيره أنّ هذا الوضع قد يدوم أشهراً.

- سيدتي، وإن دام سنين فأنا عند كلمتي.

وكانت تنظر إليه صامتة:

- لكن هناك شيئًا لا أفهمه. كيف أُعطيت المفاتيح دون غيرك؟

وقال في نفسه: «لعلّ السيدة كانت تفضّل لو أعطيها شخص آخر، كالقهرمان ربما». لكنه أجاب شارحًا ما جرى بدقّة. لئن كان محظوراً في نظام الخدمة الانتماء إلى النقابات، فكان رومولو يتحدّث عن بطاقته بسعادة وبراءة أدهشت الدوقة التي أرْخت له العنان للكلام. كانت ما تزال تُسمع طلقات بعضها بعيد، وبعضها أكثر قربًا. وكان يبدو على الدوقة أنها توليها ذات الانتباه الميكانيكي المجرد. وسألت:

- أهناك مفاجآت أخر، يا رومولو؟

كانت تنظر إليه مرة أخرى من غير اكتراث كان يهينه. وكان يقول لنفسه: «لايُنظر هكذا إلى كائن بشري، وإنّما إلى حيوان أو قطعة أثاث». وكانت تتكلّم:

- أمعك المسدس الذي أعطاكه «الحمر»؟

- نعم، يا سيدتي.

ومدّت يدها. فأعطاها إيّاه. فوضعته على ذراع المقعد.

وبعد مدة صمت طويلة، تناولته مرة أخرى وقدّمته له.

- احتفظ بـه، وفكـر فيمن ينبغي لك التسـديد إليه، إذا اضطُررت ذات مرة للإطلاق.

وابتسـمت ابتسـامة عـريضـة. -«وما بال زوجهـا المتوفّى!»- كان يفكر. وتناولت من الخط الذي يصل وسادتين بمسند مقعد الديفونة مسدساً آخر وعرضته في راحة يدها. كان مسدساً صغيراً له قراب مذهّب ومرصّع بالصدف. وأحس بنفسه لما رأى ذلك السلاح في يد الدوقة أنه في موقف مضلّل. كانا يبدوان عدوّين. فلم يسـتطع أن يتخيّل الدوقة قطّ وسـلاح في يدها. كان ينظر خلفها ومن فوقها إلى اللوحة البحرية الضخمة المعلّقة على الجدار والمفعمة بالزرقة المائعة كتنجيد الديفونة، وكأحجار الأوبال الكريمة الصغيرة التي تزيّن المرايا. وسأل بثقة:

ربما قمت بحماقة. لكني لا أعلم شيئًا سوى رعاية الحديقة. أتظنّ السيدة أن الانتماء إلى نقابة غير جيّد؟

- سواء أكان سيئًا أم جيداً، فهو محظور في البيت حظراً صريحاً.

وكان ينظر إليها مضطرباً.

- معذرة، يا سيدتي! لكن الأب لوقا الذي كان يقيم القداس للخدم، حدّثنا عن صحّة الانتماء إلى نقابة.

وأدركت الدوقة أن رومولو لم يكن ينصت إلى الأب لوقا. أو أنه كان ينصت إليه نصف إنصات، كما كانت تصنع هي ذاتها.

- لكن الأب لوقا كان يحدّثكم عن النقابة الكاثوليكية.

- المعذرة من السيدة: أنا أتذكّر جيداً أنه كان يتحدّث عن النقابة الحرّة.

- بالطبع، بالطبع هو ذاك!

وما كانت تستطيع أن تشرح له أن النقابات الكاثوليكية هي اسم آخر للنقابات الحرة. ثم نهضت قائلة:

حسن! هذا غير مهمّ. شكراً لك إخلاصك، يا رومولو.

وكان رومولو ينظر إلى المصابيح المشعلة وإلى إحدى النوافذ المفتوحة إذ تمكن رؤية النور من الحديقة. ولو عاد عناصر الميليشيا لربما سألوه عمّن يقطن هنا، وقد يُضطرّ إلى تقديم تفسيرات صعبة وحذّرها:

- الوقت ليل، يا سيدتي. وقد تجلب الأنوار انتباه من ينظر إليها من الخارج

- حسن! أغلق النافذة وانصرف. سأطلبك إن احتجت إليك.

ولم يغلق الجنائني هذه النافذة فحسب، وإنما النوافذ الأخر كلها. ثم انحنى ودخل المصعد. ولما صارت وحيدة، اقتربت من مكتب وتناولت دفتراً مغلّفاً بجلد أبيض وراحت تكتب بهدوء.

«الدوق حيّ، كما أُعلمت بالهاتف. وقد يحسب هذا البائس رومولو إذْ يراني جد باسمة أني امرأة لا قلب لها.

«لست قلقة على مصير أبي. اتفقنا البارحة أنه سيلجأ إلى إحدى السفارات إن كان انتصارنا غير وشيك. وفوق ذلك، ما قيل لي عبر الهاتف وإن كان غامضاً وعامّاً، فقد كان كافياً لطمأنتي. صوت محدّثي كان صوت البارون C ... الذي لم يقل لي بالطبع اسمه. هو يعرف خوض الغمرات من غير خطر. وأنا لم ألتزم الحذر بسؤاله باهتمام فائق عن الشيطان الجميل إستبان مركيزر. هما صديقان، ولن يلبث حتى يُعلم إستبان بقلقي على مصيره. نعم هذا صحيح». لكنها لم تشأ كتابة المزيد خشية وقوع هذه المذكرات ذات يوم في يد أحدٍ ما.

«أنا لست في خطر. وهؤلاء الناس الشعبيّون يحسبون حقًا أن احترام المرأة شعور نبيل. وإني على ثقة بأنهم لن يؤذوني إن اكتشفوا مكاني. والشعب، فوق ذلك، يلقي السلاح أمام الجمال. وأقول ذلك من غير تواضع. وإنما أختبئ لأتحاشى الصعوبات فقط كالتوقيف والتحقيق، ولأن أنصارنا قد ينتصرون خلال أسبوع، أو أننا سنفقد كل شيء فقدانًا نهائيًا. أنصارنا هم الملكيّون. وأنا لا أرغب في أن أدسّ أنفي في شأن بعض الناس. لا أدري في الحقيقة، كيف سيجلبون إليّ آلفونسو الثالث عشر. لكني قد أمتطي متن سحابة وأنزل بلطف على هدير ألحان المارش الملكي.

«أما من يؤمن بأني في خطر فهو رومولو، أو أنه لا يؤمن بذلك. وإنما هو يراهن عليه ليبرز أهمّيته بعد مشهد المسبح. أعلم أن ذلك المشهد كان جنونًا مني. صرت أعلمه الآن إذ رأيت كيف أن القدر عاقبني بأن جعلني تحت رحمة الجنائني الذي ربّما أفرطت في إذلاله. وسيوبّخني كاهن الاعتراف لاستعمالي كلمة قدر بدلاً من الله. أفكر أحيانًا في أن الحياة لعبة محتومة من التوازنات يوجهها حقًا كائن لا مبال وعادل.

«ينبغي لي أن أتحقّق من القرائن حول وضع والدي».

وصل المصعد إبّان ذلك إلى تحت، وتوقّف بضربة خفيفة. خرج منه رومولو واجتاز الحديقة وأحس بشيء من الحزن وسط تلك الوحشة المسكونة بالظلال التي كانت محبّبة إليه دائمًا، وصارت الآن باعثة على القلق. ثم دخل بيته، فوجد امرأته تبكي. وبعد العشاء اضطجعا. وكان يحسب أنه تصرّف تصرفًا حسنًا، وهو يستذكر مقابلته الدوقة. ربما كانت تحب أن يحدّثها. ولعله لم يحدّثها الحديث الكافي. لكن كان يبدو عليها من جهة أخرى، أنها ترغمه على السكوت بلامبالاتها وببسمتها الفارغة. على كل حال، كان يصعب عليه أن يحدّثها أمام

تلك اللوحة المعلّقة على الجدار والملأى بالإشارات إلى العري الأنثوي الذي لا يرى مسوّغًا له. ومع ذلك كله، كان يبتسم. لكنّ بسمته كانت تختفي شيئًا فشيئًا، وكانت بلبينا ما تزال تنتحب وتردّد: «يا للدوقة المسكينة! أسفي على جمالها وشبابها بفقدانها كل شيء في الحياة!» وما كان بمستطاع رومولو أن يتسامح في السرور واللذّة اللذين ينطويان خلف تلك الكلمات. نهض وخرج إلى الباب. وسعى ليتفقّد المراجل لتزويد البرج بالماء الساخن. فألقى فيها مزيداً من الفحم وعاد إلى بيته. كانت المراجل في مكان معزول عن الحديقة، يقع خلف المغاسل الميكانيكية. وبدت له الحديقة مرة أخرى مقفرة وصامتة. لم تُشعل الأضواء. ولأي شيء تُشعل؟ وكان بابا المرآب مفتوحين ويسمحان برؤية مكان الهسبانو الشاغر كأنه إصبع اتهام موجهة إليه.

لما عاد إلى مسكنه سمع رنين هاتف في القصر. وفكر: «لو عاد عناصر الميليشيا وسمعوا رنين الهاتف لصعب عليّ أن أشرح لهم الأمر». ولقد جفاه النوم. كان الليل قد انتصف، فقرّر بعد شكّ طويل أن يقطع سلك الهاتف، فخرج بقميص النوم محتذيًا نعلاً منزلية-وهي حرية لم تكن متاحة له قطّ إذا كان أحد سيديه في البيت. وإذْ كان يقوم بقطع السلك، كان يقول لنفسه: «هذا العمل يجعل السيدة في عزلة ويزيد من ضغط الحصار عليها ويحرمها من التسلية بالاتصال بشخصيات صديقة، أو ربما بصديق ما. لكن، ليس بيدي حيلة أخرى إلا أن أقطعه إن كان ينبغي لي أن أسهر على حياتها». ولمّا أنجز عمله عاد مسروراً وهو يفكر أن الدوقة ستظلّ من غير اتصال بأحد. كانت ما تزال تسمع طلقات بعيداً. «الحرب هي الحرب». وبلبينا جفاها النوم أيضًا. وكانت تنهمك بتذكر أبرز الحوادث في حياة الدوق. وكان لا مفر لرومولو من أن يتحمّل نحيبها. ولمّا تنبّهت إلى أنه استسلم لسلطان النوم ضاعفت من حدّة بكائها لإيقاظه. وأخيراً، نفض عنه النعاس وجهد في أن يتحقّق من أن البرج يخلو من كل ضوء. وكان يفكر في الدوقة: «لربما بكت كما تبكي زوجي، إذا كانت وحيدة. لكنها تبتسم أمامي لأنه لا ينبغي لي أن أدخل

عالم مشاعرها» . وهذا كان يثير فيه شيئًا من حنان مبطّن بشيء من خيبة الأمل . ونهض وجلس قرب الباب ولبث هناك ساعات طوالاً .

لكن الدوقة لم تكن تبكي . بل كانت في سريرها ساهرة وهي تتصفّح كتابًا . كان الكتاب الثالث الذي تناولته من فوق الرفّ ، وبعد قراءة صفحتين فيه تطبقه ثم تبحث عن آخر .

لم تكن تستطيع القراءة . وإنما كانت تستذكر المشهد مع رومولو عند المسبح . وما كانت لتتذكر الحادثة قط لولا الأحداث الطارئة كالتمرّد والهزيمة . أمّا وأنها ترى نفسها الآن مرغمة على استقبال رومولو بكثرة وشكره على إخلاصه الذي مايزال يبدو لها مشكوكًا فيه ، والذي كان من قبلُ مضمونًا وتامًا ، أخذت تفقد روحها المعنوية ، ثم انطلقت من بين أسنانها دون أن تدرك أنها كانت تتكلّم : «كان ذلك غفلة مني» .

وعادت إلى القراءة لتشتّت تفكيرها . لكن النوم لم يلبث أن وافاها . واستيقظت عند منتصف الليل شاعرة أنها سمعت صوتًا ما . كان المصباح الصغير عند رأس السرير ما يزال مشعلاً ، لكن ضياءه لم يكن بأشدّ من ضوء الحباحب . وماكان يتيح لها أن ترى أبعد من حدود السرير . وكانت الظلمات حولها تتراكم بعضها فوق بعض وتحاصرها . فعزمت عزمها فجأة وقفزت من السرير وخرجت إلى الغرفة المجاورة ، فأبصرت رجلاً جالسًا على الديفونة وظهره باتجاهها . فصرخت صرخة والتفت الرجل . وكان الدوق زوجَها .

- ما لك يا رجل ! لشد ما أفزعتني !

فنهض وقبّلها قائلاً :

- معذرة ! ما كنت أريد إيقاظك .

وجدت عينيه محمومتين بل تبدوان تعبتين بتأثير قسوة الطقس ذلك اليوم من تموّز . وكان يجهل نفسه جهلاً خُيل إلى الدوقة أنها لم تلمحه من قبل ، فوجدت

عوده قد صلب فجأة، وازداد رشداً ونضجاً، لكن، على شكل غائم قليلاً. وكان لكلماته صدى داخلي، وكأنها تنطلق من أمكنة ذات أبعاد سحيقة ومهجورة.

- وهل أنت بخير؟

- مازلت حتى الساعة بخير.

وراح يقصّ عليها ما جرى في ثكنة مونتانيا. لكن، كان يبدو عليها أنها لاتسمعه بل كانت تبحث في قسمات وجهه وفي نبرة صوته عن الأشياء التي لم يقلها، والتي لا يستطيع قولها، لأنه ما كان ليستطيع التفكير فيها وسط التوتّر الذي خلقته الأحداث. وحدّثت نفسها: «إنه فارغ. وهواء هذا الفراغ بارد كالجليد».

جلسا قرب باب السطيحة، وسألته مؤكدة:

- لا أرى أملاً لنا. أليس كذلك؟

وكان الدوق يرى رأيها أيضاً، لكنه ما كان يطيق سماع هذا الرأي من شخص آخر.

- لا يمكننا التحدّث هكذا. كما تعلمين، تتراكم خلفنا أشياء كثيرة. وفي نهاية المطاف لا نستطيع أن نخسر. لكن الوضع قاسٍ بالطبع. والناس تسقط صرعى. وكانت تقول لنفسها وهي تستمع إليه: «في برودة فراغه الداخلي أضواء صغيرة باطلة كما في المقابر القديمة». وراح الدوق يسرد عليها أسماء أشخاص ماكانت تحسبهم قطّ قادرين على أن يموتوا ببطولة، وتابع كلامه: «استطاع إستْبان مركيز R. أن ينجو بجلده، كما نجا هو أيضاً قبيل استيلاء الجمهوريين على ثكنة مونتانيا». وكان الدوق أشدّ قسوة في كلامه عن دوق ر. وكانت هي أكثر تنبّهاً إلى كلماته عنه. فقد جاءت إستبان فكرةُ تبديل سترته بسترة قتيل مدني. أما هو فقد بدّل سترته بسترة عسكري لأنه كان يلبس في الأصل زيّاً عسكرياً رسمياً. ووجد في أحد جيوب السترة أوراق هويّة، ثم في بيت إستبان ... يعني في «المضمار» الذي يملكه ... لم تفهم الدوقة معنى هذه الكلمة، فبيّن لها إنه مكان سرّي إلى هذا الحدّ

أو ذاك للقيام بمغامرات دون جوانية . فتبسّمت . . وهناك أعطاه إستبان بدلة مدنية . لكنّه ظلّ يحتفظ بوثائق الضابط القتيل المدعوّ مارتينيث هُنغريّا . وكان يبدو عليه أنه نجا بشخصيته الجديدة . فلا مجال للظنّ بأن عناصر الميليشيا يعرفون ذلك الضابط . لكن ، هناك خطر ... وقاطعته الدوقة :

أو كنت تقيم هناك؟

- أين؟

- في «المضمار» .

«آه! - فكّر الدوق . - «المضمار» علقت في مخيّلتها» . وأضاف بصوت عال :

في ذلك الحين ، نعم . كنت أقيم في شقّة استؤجرت باسم مستعار . وماكان أحد في البيت يحسب أن إستبان هو المركيز ر .

- وماذا يقول إستبان؟

- حالته مختلفة جداً . حالته مثقلة بالأعباء .

ما كانت الدوقة لتفهم . بل كانت ترى الأضواء «الخادعة» ترتجف في صمت الدوق العصبي . أو لا تقع على عاتقهم جميعاً الأعباء ذاتها؟ أم أنّ زوجها لم يقاتل؟ وقال :

- بالضبط لأني قاتلت . أنا جندي ، ولست شيئًا آخر غير جندي . يعني أني خارج العمل العسكري عاجز عن قتل أحد . على العكس مني إستبان ... لكن ، لِمَ الكلام؟ خسرنا في مدريد وإن تكن حركتنا ستنتصر في النهاية . فقدنا المعركة هنا اليوم . وعلينا إدراك الفكرة والتسليم بها .

كانت الدوقة تلمح في عيني زوجها وكلماته فترات هدوء غريبة ، تلمح أضواء متنافرة ، بل كانت ترى فيها تفككًا .

-استسلام؟ أليس ذلك خطراً؟

- كل ساعة تمر أسوأ من سابقتها بسبب أخطاء إسْتبان وآخرين من أضرابه.

وأضاف مفكراً: في هذه اللحظة أنتِ على صواب. ربما كان ذاك انتحاراً.

لزما الصمت كلاهما. ثم أضاف:

- إستبان- مهما يكن رأيك فيه- قتل بدم بارد رجالاً عدة. فقد أطلق الطلقات الأُول في مدريد. هؤلاء الرجال رفضوا مؤازرة التمرّد، فجرّدهم قائد الكتيبة من السلاح وأرسلهم إلى السجن. ولما وصل إستبان أخرجهم وقتلهم بإطلاق الرصاص على صدورهم، وقام بمئة فظاعة أخرى. أنا لست عاطفياً. لكن ذلك كله لا ضرورة له، ويُضعف موقفنا إذا طولبنا بتطبيق قانون أسرى الحرب.

فسألته ما الذي كان يصنعه هو في ثكنة مونتانيا. كان الدوق ضابط احتياط مدفعي. فقال وقد أحسّ بالدهشة من صوته ذاته:

- أمرت بطّاريّة مدفعيّة بإطلاق مئة طلقة. وقد دمرّ الطيران في الساعة الأولى ثلاث قطع في نصف ساعة. قمت بما استطعت، وقد أقوم به مرة أخرى لأنني أؤمن بأنه واجبي. لكني لا أفهم إسْتبان. يقول إن الشعب على صواب. لكن، ينبغي لنا أن نزيل هذا الصواب من رأسه بإطلاق النار. إنه مجنون.

- وأين إستبان؟

- هو تحت يحمي ظهري.

- أليس من الخطر عليكما كليكما أن تسيرا معًا؟

وبعد مدة صمت، هزّ الدوق كتفيه، وكانت الدوقة تنظر إليه من غير أن تعي شيئًا.

- على الأقل، تعالَ وحيداً إذا جئت لتراني. فإذا ما جئتما معًا، فَسْوف نسقط نحن الثلاثة جميعًا ذات يوم.

وكان الدوق يتكلّم كالرجل الآلي.

- هويّتي الجديدة لن تخدمني طويلاً، لأن الحكومة استدعت بالراديو كلَّ ضباط حامية مدريد. فإذا مثُلت هناك بصفتي الضباط مارتينيث هُنغريا، فسوف يتعرّف عليّ أحد ما. وإذا لم أمثُل فسوف أُعدّ فاراً.

- وسوف تُعدم إن عُرف أمرك.

أشعل الدوق لفافته الثانية، وكان يحرّك يده في الهواء ليطفئ عود الثقاب، وكان يصنع ذلك كله بشيء من الكبرياء.

- على الأغلب.

ورأى عيني زوجته قد فقدتا تلك القتامة الغائمة التي كانت تضفي عليها لونًا من الشفقة. وقال إنه متعب، ودنا من السرير وألقى بنفسه فوقه. استنشق بعمق. ولما زفر الهواء، راح يقول بلهجة هادئة.

- لقد مضت علينا أعوام منذ الأمس!

وكان التقط كتابًا من تحت الديفونة وأخرجه وقرأ العنوان: رمزيّة الألوان الدينية في العصور الوسطى، فألقى به جانبًا وقال:

- بعض الأمور كان يمكن لها أن تحدث منذ قرون. لكن، من المحال رؤيتها من غير احتجاج.

فلم تجبه وأضاف.

- القتل كما يجري اليوم حماقة. ولقد بدأناه نحن. والسفلة آخذة بتعلّم الدرس. وإذا تعلّمته تعلّمًا متقنًا، فأنّى لنا أن نعجب؟

وظلّت على صمتها، وسألها:

أليس لديك شيء نأكله؟

وهي كانت جائعة أيضًا، ولم يكن لديها شيء في البرج. فذهب الدوق إلى المستودع والقبو وعاد بالزيتون والكافيار وقطعة كبيرة من لحم العجل. وجلب أيضًا زجاجة من الشمبانيا كانت بُردت في رطوبة القبو. فتح الزجاجة خانقًا طقّة الغطاء. ثم سألها عن رومولو. وسردت له ما جرى. وأثنى الدوق على الجنائني خلاف ما كانت تتوقع، وقالت لنفسها: «يثني على الناس جميعًا. إنه يخشى مشاعره ذاتها، ويرهقه الدم والأحقاد». وسكتا كلاهما. ثم قال وهو يملأ قدحًا:

كلميني، يا عزيزتي، فالصمت يجعلني مثار الأعصاب.

فقالت:

في هذه الأوقات، ما عليك أن تضع في مخيّلتك سوى فكرة واحدة ثابتة: إبعاد الخطر والنجاة بنفسك، عسانا نستطيع الصبر أشهراً معدودات.

وقوّس الدوق حاجبيه.

- أنا أقول: أسابيع!-

وارتعد قدح البلّور بين أصابعه. وجرع جرعة أخرى وأضاف:

أما إستبان فيقول: أيامًا.

وجرأت على أن تسخر من قلقهم جميعًا.

- أنا أعلم أن حسابات كل واحد منّا تتداخل فيها شروط السلامة التي نحسبها تحيط بنا.

والتقط الدوق الفكرة من بين شفتيها

- وأنا الآخر فكرت في الأمر جيّداً. أنت ترين أن النصر قد يبطئ أشهراً، لأنك تؤمنين بقدرتك على الانتظار أشهراً معدودات مختبئة هنا. أمّا أنا فأستطيع الصبر أسابيع فقط. لذلك آمل أن يجيء النصر سريعًا جداً، لكن إستبان يقول أيامًا، إنّه متفائل. ولو كنت في تفاؤله لقلت ساعات.

- وضحك وكانت تلك الضحكة أول شيء أعجب الدوقةَ فيه وأشعل سيجارة أخرى ودخّن أكثر من نصفها صامتاً. ثم استأنف الكلام ببطء نافثاً الدخان من بين الكلمات.

- لو كسبنا المعركة لربما أصبحنا أبطال الوطن والمسيحية.. الخ.. الخ. مثلما صنع أنصارنا. لذلك هم سعداء. لكننا لم نكسب في مدريد. فماذا نحن؟ ماذا سنصبح بعد عشر ساعات؟

- لا تسرفْ في الشرب. - قالت له الدوقة.

- ولِمَ؟ أم تحسبينني سكران؟

- إذا كان ينبغي لك الخروج من هنا قبل الصباح، فمن الخير ألا تسرف في الشرب كان يخيفها ذعر زوجها الذي جلس على الديفونة وقد جُرِح إحساسه بغتة، مفكراً: «لا تريدني أن أسرف في الشرب. لأنني بذلك قد لا أستطيع مغادرة المكان. وإن فكرة بقائي كانت تسبّب لها الضيق».

- لا تغتمّي. أفكر في الانصراف ما أن أدخّن هذه اللفافة.

وإذْ كان يتوقّع أن ترقّ له الدوقة وتبدي اعتراضات تنمّ عن الحب سمعها تقول:

- بذلك تحسن صنعاً. وإذا فكرت المرة القادمة في البقاء هنا طويلاً، فلاتصطحب إستبان.

- حقّاً!. - قال لها باقتناع. - أنت دائماً على صواب في الأمور العملية. ودنا منها وقبّلها على عنقها وقال:

- نحن مجرمان. سيادة المجرم ألكنادره، وسيادة المجرم مركيز ر. مجرمان يلاحقهما الجلاد من زاوية إلى زاوية. يساورني الشعور أحياناً بأني أراه وحتى أسمعه يقول كلما وقفت ونظرت إلى الخلف: أهلاً!

وارتعش عرنينا أنفه :

- ما العطر الذي رششته؟

- لم أرشّ عطراً .

وازداد منها قربًا ، وأسرّ إليها :

- أتعلمين ماذا قال لي الخنزير إستبان؟

- ماذا قال؟

- إني إذا أطلت المكوث قربك ، فسوف «يسيل لعابه» غيرة؟

وفكرت الدوقة : «لقد ذهب الشيطان بعيداً جداً في مباسطته له» . وعانقها الدوق . والتفّت هي حوله من الركبتين حتى الكتفين ورفعت رأسها لتقبّله . لكنه نظر تلك اللحظة من فوق كتفها بحركة شاردة مزعجة ، إلى الوقت في ساعة المعصم . ولمحت هي الحركة في مرآة . وانفلتت منه مستاءة قليلاً لإحساسها به أنه خارج «الموقف» تماماً . وسارت إلى الحجرة الأخرى يتبعها زوجها . وجلست على الديفونة ، وفتحت كتابًا كانت أخذته في طريقها من على السرير . وسقطت نظرتها على بعض السطور التي تتحدّث عن : «جنون اللون الأخضر» ، الذي ربما كان جنونًا صوفيًّا أو جسديًّا ، وسألها الدوق .

- أأسات إليك بما قلته عن إستبان؟

ونفت بهزّة من رأسها . ثم نهضت .

- لقد فات الوقت ...

ما كانت في الواقع تعلم الوقت . وإنما قالت ذلك بلهجة جدّ حيادية حتى كان بمستطاع الدوق أن يلمح فيها ، إن شاء شيئًا يشبه أن يكون سروراً . كان يسرها أن يكون الوقت تأخر وفات ، وتهاوى فوق مقعد .

- أتعلمين أن هذه الزيارة قد تكون الأخيرة؟-

قال ذلك مستعملاً حواراً لعلّه كان يريد أن يتحاشاه.

- نعم، أعلم.

وسكتا مرة أخرى. كان في فراغ الدوق الداخلي شيء يشبه طيوراً جارحة تطير بنعومة.

- أشعرتِ بالاستياء مني؟

- كانت الدوقة تنفي هازّة رأسها دون اقتناع، ودون رغبة في إقناعه. وإذْكفّت هي عن الكلام، احتبس هو أيضاً في صمته. ثم نهض وأراد أن يستحم. «لن يخرج الماء صافيًا طيلة الليل». قالت مذكّرة أن أنابيب ذلك الجانب من القصر لم تُستعمل منذ مدة طويلة. وألحّ الدوق. «هذه حيلة معروفة جداً. -فكّرت الدوقة. - الدوق يثق ثقة مضحكة قليلاً بجسده عريانَ». وأضافت: «إن أردت الانتظار...» كان صامتًا. ولما بدا أنه على أهبّة الانصراف سارت إلى الحمام وقالت من الباب:

- قد ينصلح!

وأخذ الماء الذي كان يخرج وسخًا، يصفو لونه شيئًا فشيئًا. ولما رأى الدوق أن كل شيء قد يُحلّ خلال خمس دقائق، ربط تحذير الدوقة الجديد: «لن يخرج الماء صافيًا كل الليل»، بالتحذير السابق ذي الصلة بالوقت، واعتصم في تحفّظه مرة أخرى. هي كانت تريد أن تطرده. وانتصبت شاكية شكوى ملائمة، وسارت إلى مخدعها. وراحت تنظر إلى إحدى اللوحات. كانت لوحة فرنسية من القرن الماضي، ما كانت تستطيع تأملها دون أن ترتجف. كانت تمثّل خروجًا من حفلة رقص وكانت تبرز بين سترات ومعاطف جلدية وبسمات، وشكات زهر، مدعوةّ كئيبة (هي هيكل عظميٌ يرتدي ثياب امرأة) تنحني بميلان غنج عند خصرها. وكان

يبدو عليها أنها تستمع من فتحات جمجمتها إلى قصيدة غزل، وحاولت الدوقة أن تنزل تلك اللوحة. لكن الإطار كان ثقيلاً؛ وكان فوق ذلك، معلّقًا بسلك معدني يصعد حتى الطنف. ولما خرج الدوق من الحمام وقد لفّ منشفة على خصره، بادرت إلى الطلب إليه أن يخرج هذه اللوحة من الحجرة «قبل أن يذهب». ونظر إليها دون أن يدري فيما يفكر، فدنا من اللوحة وقرأ أسفلها جملة مطبوعة بحروف كبيرة: «سحر الرعب لا يسكر غير الأقوياء». وحدّثت نفسها: «يسكر الأقوياء من أمثال إستبان». حاول الدوق إنزالها صاعداً على كرسي. وكانت الدوقة تنظر إليه شبه عريان. وردّدت في سرّها: «لديه كالعادة ثقة صبيانية بجسده». لئن كانت هذه الاستعراضات الرياضية، عنصراً مساعداً، فما كانت تبدو كذلك للدوقة. وفي غياب التوافق تقوم فجوة مزعجة حسبما تبيّن. وشرحت وهي مضطجعة:

– يثير أعصابي ويخيفني التفكير في أن هذا الهيكل العظمي له جاذبية في نظر الشبيبة. وكيف يكون ذلك ممكنًا؟

نقل الدوق اللوحة إلى الغرفة المقابلة، ووضعها هناك مقلوبة ومستندة إلى الحائط. ثم عاد بعد قليل. لكن الدوقة لم تكن راضية.

– لكن، صار الآن مكان اللوحة على الجدار فارغًا إزاء السرير. ألا تستطيع أن تغطّيه بشيء ما؟

ونفد صبر الدوق الشاحب قليلاً.

– قولي أنت.

لدينا لوحة أخرى. لكن، لا تجلب لوحة الغرفة المقابلة. بل هات لوحة المكتبة.

واحتجّ.

– سترغمينني بذلك على ارتداء ثيابي، وأخرج إلى هناك وأشعل الأضواء لافتًا الانتباه إلينا.

ورأته يدنو من السرير ويرفع الملاءة. كان السرير زوجيًّا ضخمًا. لكنها أبدت معارضة.

- إن كنت أزعجتك ... قال متردّدًا.

- لا. وإنما الطقس شديد الحرارة.

وعمدت إلى خزانة، وأخرجت ملاءة جديدة واحتفظت بها لنفسها. وتخلّت له عن الملاءة الأخرى. وبيّنت أنه باستقلال كل منهما بملاءة، وبتجنّب الاحتكاك، فلربّما ابتردا كلاهما على شكل كاف. لكن الدوق طوّح بها وغلبها بالقوّة. وكانت هي الأَمَة السلبيّة دون مساهمة منها في الوليمة. وكان الدوق يتنفّس بعمق وبشكل متقطّع. وعلّق بين منهك وساخر.

- آمل ألا ترغميني على القيام بشيء مؤسف.

وكانت هي تلتزم الصمت انتقامًا. لكنها كانت مهزومة معنويًّا أيضًا، وإذْ رأى، أنها لا تجيب بدأ مونولوجًا. وكانت الدوقة ترى أن الفجوات الفارغة والجليدية التي تنطلق منها تلك الكلمات آخذة بالامتلاء شيئًا فشيئًا بأشكال حيّة ونسائم حارّة.

- اثنان وثلاثون عامًا ليست كثيرة. أليس كذلك؟ أنت إلى جانبي وهو كل ما أملك. (كانت الدوقة تحدّث نفسها: «يحتاج كالعادة إلى المسارّة بعد الحب). لقد قضيت النهار كله تحت شمس محرقة، إلى جانب مجنون، (وسألت: أهو إستبان؟) نعم، إلى جانب مجنون يجعل في تصرفاته انسجامًا متفاوتًا. ما العمل معه؟ أحسب أنه لو قُتل، لرأى في ذلك نكتة أخرى، فتصوّري! لديّ انطباع أنه يُسرّ بذلك، لا تحسبيني أتكلّم لمجرد الكلام. ما أقوله لن تصدّقيه. وما كنت لأصدّقه أنا نفسي لو لم أره بعيني، كان إستبان يكلّم عاملاً عنصراً في إحدى الدوريات المسلّحة. وراح يذمّ نفسه بشخص غائب. كان يقول بضرورة شنق المركيز ر. لأنه أحد كبار المجرمين أليس ذلك حماقة وجنون؟ لحسن الحظ، ماكان

يعلم العامل هذا الاسم، ولا أحسبه علق في ذاكرته شكل وجه إستبان الأحمق. كان يصنع هذه الأشياء بهدوء يثير الرعب. (كانت الدوقة تفكّر: «هو معجب بإستبان. معجب به وربما يخشاه».) وأنا لست معنيًّا بالموت أيضًا؛ ولامفرّ من أن يأتي ذات يوم. حينئذ، تُرى الأشياء بوضوح كبير وعن كثب، حتى يقف المرء عندها ويفكر فيها. قد لا يكون مخيفًا جدًا. قبل الموت يكون المرء مايزال حيًّا؛ كما هو حالي الآن. وما الفائدة بعد الموت؟

ثم استوى على السرير. ونظر إلى امرأته محاولاً أن يقرأما يلوح في محيّاها. فرآها هادئة ودودة، قائلة: «لا ينبغي لنا الكلام عن هذه الأشياء. ومّا الجدوى؟ في مكان ما، يتحدّث الموت عنك وعني. - هي كانت تفكر في اللوحة الفرنسية- فلنتركْه يتكلّم ويصنع صنعه متى وكيف وأين شاء أن يصنعه. هذا شغله وليس شغلنا». وبعد توقّف سألته لِمَا لم يغطّ الفراغ الذي خلّفته اللوحة المنزوعة، بلوحة أخرى من الحجم نفسه؟ فنهض مستاء وكسلان كسلاً مزعجًا، وغاب في سلّم الدرج ولما عاد وعلّق اللوحة الجديدة أبدت له عرفانًا بالجميل طفوليًا. واكتسب الليل لونًا غنائيًا حيث تهديد الأوضاع والظروف لم يكن سوى حافز آخر. وتبادلا بكسل كلمات كانت ضوضاؤها تسري في هذا الواقع المعكوس حيث يتردّد الصدى كان الصباح يُقبل بطيئًا. وتذكر الدوق على حين غرّة إستبانَ قبل أنوار الصبح الأول.

- نسينا أنه ينتظرني تحت.

فلينتظر! قالت هي.

- لا! أنت لا تعلمين من أية طينة هو، فقد تواتيه الجرأة فيصعد.

بكلامهما عن إستبان ودّعا بعضهما بعضًا عند السلّم. وانطلق اسم «الشيطان» من شفتيه إلى شفتيها بالودّ نفسه، وأوصاها قبل رحيله أن تعامل رومولو بودّ.

II

أخذ رومولو مقصّ التقليم، وراح يقصّ في برودة ساعة الصباح الأولى، كتل البقس قرب موقف العربات القديم. كانت ضوضاء المقصّ المنتظمة علامة الحياة العادية وسط هدوء الحديقة. لكن «الحمر» قد يعودون بين لحظة وأخرى. فإذا بلغ فضولهم حدّ الخطر على الدوقة، فهو على استعداد لصنع كل شيء بيد أنه ما كان يعلم إلى أيّ مدى يمكنه أن يكون مفيداً لها على بذله كلّ شيء في سبيلها. كان يراها طافية في المسبح وسط الزبد الحلو، وكان يتذكّر قدميها المكتنزتين الصغيرتين كأنهما ثمرتان. وكان يسأل نفسه: «لأيّ شيء كانت تريد أن تظلّ طافية على سطح الماء إن لم يكن بقصد أن يراها هو؟» ونبّه زوجه:

- ضعي في ذهنك فكرة أن السيدة الدوقة ميتة منذ الآن مثلها مثل زوجها. وإذا اضطررتِ إلى الحديث عنهما، يفضّل أن تتناوليهما بالسوء.

واحتجّت:

- صار الدوق تحت التراب المبارك، وتريد منّي أن أتكلّم عنه بسوء؟

كان رومولو بحاجة إلى أن يرى الدوقة، لكنه ما كان يجرؤ على الصعود حتّى تطلبه؛ أو على الأقل حتى يرتفع الضحى فيقلّ الخطر بأن يجدها مستلقية. حوالي الساعة التاسعة وصل عناصر ميليشيا اليوم السابق يرافقهم أربعة آخرون

جدد. ولم يكونوا يثيرون انطباعًا عسكريًا أو حربيًا، وإن كانوا يحملون بنادق، بل كانوا يبدون متقدّمين في السنّ، ويرفعون رايةً جمهورية لنصبها فوق البيت. وقال قائد المجموعة، الذي ضبط محتويات القصر اليوم الفائت مشيراً إلى عناصر الميليشيا الجدد: «هؤلاء الرفاق سيقومون بالحراسة الدائمة هنا».

أوّل شيء أرادوا صنعه أن يركزوا الراية. رأى بعضهم أن تُنصب في طابق البرج الخامس- حيث الدوقة. لكن رومولو بادر إلى القول إن تلك النافذة مسدودة وليس لها منفذ إلى الداخل. وكان يفكر في أنّ هذه الكذبة التي يسهل كشفها تجعله مذنبًا في أعين أولئك الرجال. واقتراح أن تُرفع الراية فوق البوّابة على شكل تعلو فيه الباب الحديدي وتهيمن على الشارع. ونُصبت الراية فعلاً فوق بيت رومولو ذاته، وراحت تخفق مع الريح. أخرج أعضاء الميليشيا الشبّان الذين سيغادرون القصر السيّارتين الأخريين من المرآب وذهبوا بهما. أما رجال الميليشيا العجائز، فقد انقسموا إلى حارس عند الباب، وإلى فئة لجأت إلى محلّ إقامة السائقين فوق المرآب. ولاحظ رومولو بشيء من الغرابة، أنهم لا يحاولون الإقامة في حجرات القصر. ولما انتظم كلّ شيء سار بحذر ليرى الدوقة.

وجدها في أهدأ حال. وما كان يثير خوفها الراية ولا إقامة الحراسة التي راقبتها، كما قالت، من النافذة المفتوحة مواربة. ولما نظر حواليه وقع بصره فوراً على منضدة فوقها منَفضة ملأى بأعقاب السجائر. هذه المنفضة لم تكن الليلة الفائتة موجودة. والدوقة لم يكن من عادتها التدّخين. وكان رومولو يعلم أن للقصر سلالم سرية قد دخل منها رجل ما. وشعر أنه خُدع قليلاً. وقال منبّهًا:

- لتكن سيدتي على حذر. لأنّ أعضاء الميليشيا مزوّدون بالسلاح، وعلى الباب حارس.

فأمّنت على قوله بشكل آلي، وكانت تروح وتجيء موازبة أحيانًا نافذة كانت تدخل منها طعنة من شمس صفراء تخترق العتمة، كان رومولو يريد أن يُعرب عن تعاطف سرّي مع «الحمر» مذ رأى المنفضة. وقال:

- يبدو عناصر الميليشيا هؤلاء ناسًا حسني المعشر.

لم تكن الدوقة لتسمعه. وأضاف هو كلمات بدت لها أبعث على الاستفزاز والتحدّي.

- يقال إن الحكومة آخذة بكسب الحرب في أماكن أخر.

وسألت: كم عدد عناصر الحراسة، وما الانطباع الذي يوحون به. وكانت تسأل وكأنّ الأمر متعلّق بحراسة شخصية أقيمت لحمايتها، وأجابها وهو ينظر إلى رأسها وكتفيها فوق خلفيّة اللوحة البحرية وكأنها تطفو فوق الماء.

- إنهم أربعة. أعرف ثلاثة منهم معرفة محدودة، أحدهم المسمّى رويث كثير الكلام جدًا. وأحسبه دون عائلة. وهو-بالإذن من السيدة- يشبه إلى حدّ ما الغجر الذين يسيرون في الطرقات. العنصر الآخر يتحدّث عن ضرورة إعدام أعداء الجمهورية كلهم. وهو أكثر ثرثرة من رويث؛ وأوحى إليّ بأنه يريد أن يبرز نفسه بكلماته. أمّا الثالث فيبدو مضجرًا يكاد لا يتكلّم، وإذا سئل أجاب إجابة غامضة دون أن يقول نعم أو لا، وأنا أرى أنه الأخطر بينهم، يا سيدتي. وينبغي لنا اتخاذ الحيطة والحذر منه. أمّا القائم على الحراسة الآن، فلم أستطع رؤيته عن قرب. يقال إن اسمه إسترادير ا.

وأدركت الدوقة باستماعها إلى رومولو أنه يحظى بعلامات من الذكاء قد تكون مفيدة جدًا لها في وقت ما. وقالت:

- حسن! ولِمَ الهاتف لا يعمل؟

وأجابها إنه قطع السلك، فبدا عليها أنها استُفِزّت:

- من أمـــرك بذلك؟ ألا تـرى أنك تجعلني معزولة أسيرة حقًا ومقطوعة عن العالم؟

ونبّهها إلى أنّ ذلك ما قصد إليه بالضبط.

- أحسب أنه يمكن التنصّت إلى السيدة من مركز الهاتف، وإعلام الشرطة واستشاطت غضباً.

- الأخطار التي تحيط بي مشكلتي. وأنت عليكَ الاكتفاء بالطاعة.

لزم الصمت لكنه كان ينظر إليها وجهًا لوجه، وقالت له:

- أريد الهاتف فوراً.

- غير ممكن، يا سيدتي.

كانت مثارة الأعصاب. وقد بهر ذلك الغضب المكبوت رومولو.

- معـذرة، يا سـيدتي. أعني ليس سهـلاً وصله فـوراً، فلا بدّ لي من انتظار اللحظة الملائمة لأصله مرة أخرى كيلا يراني عناصر الحراسة.

ورجاها أن تُبقي النوافذ مغلقة والستائر مسدلة دائمًا لئلا يُسمع رنين الهاتف في الحديقة إذا ما اتصل بها أحد. ثم خرج ووصل تحت محبطًا قليلاً. ولمّا رأى الحارس يروح ويجيء متنكبًّا بندقيته دون انضباط عسكري، أدرك أن هؤلاء الرجال لا يمكن أن يشـــكّلوا خطراً ما. ولربّما كانت الدوقة على حق. ســار إلى المرآب فوجد أعضاء الميليشـيا الثلاثة يفتّشـون بيت الســائقين ويتبادلون النكات كلما عثروا على شيء صغير. كانوا يعاملون رومولو بثقة تامة. وكان لهذا الأخيـــر

مهـارة فلاّح في جـعـل الآخـرين يتكلّمـون، ويحكـم مـن كـلامـهـم على خفاياهـم. لكنه لم يكن بحاجة إلى حيله هذه، لأن أعضاء الميليشيا كانوا ثرثارين وتنبّه الجنائني إلى أنهم ينظرون إليه على أنه كائن من طبقة أخرى ليس بالضرورة أعلى منهم أو أدنى. لكنه مـختلف، وفيـه قليل من الفكاهة ولاشيء آخر. كـان عضـو الميليشيا منهمكًا باهتـمام كبير بتصليح حـمالات عسكرية، ويرفع رأسه أحيانًا ويسأل.

- أستقضي الصيف في هذا القصر؟

وكـان لوبِث يدعو هذا العضو باسم (فشكة). ومـا إن سـمع رومـولو هذا الاسم حتى تحقّق من أنه يلائمه أشدّ الملاءمة. كان ناحلاً، صغير الحجم. وكانت النسبة بين رأسه وعنقه ومنكبيه تُذكّر، دون أن يدري بـ(فشكة) بندقية، رفع هذا العنصر رأسه وسأله، رومولو:

- وأنت ما عملك هنا؟ ما هي وظيفتك في بيت الدوقين؟

- جنائني!

- أهي أدنى وظيفة في المنزل؟

وابتسم رومولو.

- لا أدري. يبدو لي على كل حال أنها خير من العمل في المطبخ أو ارتداء الزي الرسمي للخدم كل يوم.

ولما سمعه لوبِث يتكلّم حدّد بلده من لهجته.

- أنت من قرطبة.

- من الريف وليس من العاصمة.

وقال لوبِث مقلّدًا لهجته .

- من قُرَيّة متوسطة بَعْد بوهلانثِه وعلى بُعْد فُرسخين من قبرة .

- أو أنت من هناك أيضًا؟ - سأل رومولو :

وتدخّل رويث .

- لا . وإنما هؤلاء المدريديّون من كلّ مكان وليسوا من مكان .

وكان رومولو في طريقه ليصل الهاتف لما قال له الأعضاء إنهم يرغبون في رؤية القصر من الداخل، واستُنفِرت شكوكه بينا هم سائرون جميعًا صوب الباب الرئيس . وسأل لوبِث :

- وهل الدوقة شابّة وجميلة؟

واكتفى رومولو بالابتسام . وأضاف عضو الميليشيا :

- أحيانًا تضطجع الدوقات مع الجنائنيين .

وامتقع لون رومولو وعُري سيدته يطوف في مخيلته، وتظاهر بفتح الباب . وأضاف (فشكة) :

- بفضل الجنائنيين وخدم آخرين حافظ الأدواق على عرقهم سليمًا معافى إلى حدّ ما . وانقلبوا ضاحكين جميعًا مرة أخرى، وكان يبدو على رومولو أنّه لايسمعهم .

- ادخلوا!

وكان يفكر في الدوقة قلقًا . وليس بسبب فضول أعضاء الميليشيا فقط . وإنما بسبب حاجتها إلى الهاتف، ربما لتكلّم الشخص الذي دخّن تلك السجائر الليلة السابقة . فقد كان يرى في الغرضين معًا-الهاتف والمنفضة-معنى واحدًا . وأصبح لا يستطيع التفكير في الدوقة دون أن ينتصبا أمام الذاكرة، إلى أن تنبّه إلى أن

أعضاء الميليشيا كانوا يخاطبونه. وكانوا يخاطبونه دون كلفة، أما هو فكان يخاطبهم على شكل رسمي. كان رويث ذاهلاً مما شاهده من ثراء البيت. وكانت التعليقات تتفاوت بين واحد وآخر. وردّد رويث.

- أجد عظمة حقيقية في كل شيء من هذا. لكن الفضل فيها يعود إلى الفنّانين والرسّامين والنحّاتين والمعماريين الذين هم من أفراد الشعب.

وأحبّ لوبث أن يسعّر كل غرض.

- كم تساوي هذي الرسوم إذا عُرضت للبيع؟

واتّفق الثلاثة على أنهم لا يفهمون رغبة الدوقين في اقتناء المزيد وإعلان التمرّد بعد كل هذا الثراء العريض. وكان العضو الصموت يبتسم، ويمسح أحيانًا بيده على سجاد الجدار متلذّذًا. كان رويث يرى رومولو متجهّمًا وخشنًا قليلاً مازجًا حلاوة الملمح بقسوة التعبير، وربّت على كتفه قائلاً: «ماذا جرى لك؟ تبدو مخدّرًا. لا تحسب أننا سنسلبك شيئًا من هذا». وكان لوبث ينظر أيضًا إليه ساخرًا: «تبدو أحد ملوك ورق اللعب». وضحك الثلاثة جميعًا. طافوا البيت كله ما عدا البرج الذي كان مدخله عبر المصعد مخفيًا في الطابق الأرضي؛ ومدخلاه في الطابقين الأول والثاني محجوبين بالسجاد. أما المدخل في الطابق الثالث فهو في ركن مظلم لا يوحي بالفضول. وعلى الرغم من ذلك، أراد (فشكة) أن يطلّ برأسه. لكن رومولو وقف فيما بدا مصادفة محضة أمام الباب المؤدّي إلى السلّم ويده على المسدس في جيبه. ولمّا رأى أنهم لن يتابعوا طريقهم بذل جهداً كبيراً ليبدو هادئًا، لأنه كان يخشى أن تكون عينا الصموت الذكيّتين قد اكتشفتا شيئًا وشرعوا ينزلون؛ ولم يكن رومولو وصل الهاتف بعد. وكان فرحًا لأنه تعرّض لأدنى خطر خلال الحوادث المتوقّعة في تلك الزيارة. وعند خروج عناصر الميليشيا نبّههم مستبقًا دهشتهم بفطنة، أنه سيقوم كل يوم بجولة شاملة في أنحاء القصر ليتوقّى أخطار

انـدلاع حـرائق ممكنة، أو خشـيـة أن يتسلّل إلى القصر، نظراً لضخامته، هارب مـا في الليل ويختبئ فيه. وقـال باسـمًا: «سـأتولّى المسـؤولية عنكم في هذا، وعن حق». وربّت رويث على كتفه وسرّه أن يكرّر تلك العبارة المألوفة:

- من جهتنا، نمْ مطمئنّاً. أنت أحد أبناء الشعب. أي منّا وفينا.

وعاد إلى مسكنه، ثم سعى إلى وصل الهاتف. كان يخادع أعضاء الميليشيا. وكانت مشاركته الدوقة (العمل السرّي) تمنحه لذّة تكاد تكون جسدية. وانتابه شعور بأن كل شيء على ما يرام. فرأى نوافذ البرج العالية مغلقة، وفكر بشيء من الحنان، في أنّ الدوقة أطاعته. ولما رجع إلى بيته تلقّته زوجه التي راحت تقصّ عليه حياة الحارس ومعجزاته، والعملية الجراحية الخطرة التي أجريت له منذ سـنتين خلتا، وتفاصيل أخر شـائقة. وكـان رومولو مـا يزال يفكر في أنّ للدوقة «حياة سرّية»، وأنّ تلك الحياة بعيدة المنال عنه. وأضاف يخلط الظَّرْف بالاستياء: «من عساه يكون هذا الزائر الغامض؟» ورنّ الهاتف في وقت متأخر من المساء في البوابة بهدوء. لأن رومولو كان خمّد الجرس بأن شدّ إليه منديلاً. وكانت الدوق تطلبه. فذهب إليها ووجدها كما كانت في الصباح تعلو وجهها علائم مألوفة لديها. وماإن رأته حتى بادرت إلى إصدار الأوامر.

- اجلب أحـد البرّادات الصـغـيـرة من المطبخ. يقـينًا تستطيع جلبـه دون أن تُرى. عناصر الميليشيا في الجانب من الحديقة، كما أرى.

ظل رومولو ينظر إلى النافذة الموارِبة. وأردفت الدوقة.

- أغلقها إن شئت.

ولمّا أغلقها أشعلت الضوء، وخرج هو لتنفيذ أمرها وقصد المطابخ. وكان مضطراً لنقل البرّاد، إلى دحرجته على اسطوانتين من حديد. وأخيراً استطاع وضعه في المصـعـد. ولما صـار في الطابق الخـامس من البـرج، راح يجـفّف عـرقـه قـائلاً لنفسه: «سأسأل الدوقة عن المنفضة». لكنها دنت منه وأشارت إلى المفاتيح المعلّقة بالحزام. وأصدرت له أوامر جديدة.

- هذا مفتاح القبو. اذهب إلى هناك واجلب زجاجات من الشمبانيا. ضع في إحدى السلال المعدنية ستة منها.

وكان يقول لنفسه: «في الليل يقصفان معاً على الرغم من موت الدوق». سار إلى القبو بخطا بطيئة وهادئة، كان يسير مثل كلّ فلاح أصيل؛ دونما أيّة عجلة ولا توقّف. وما كانت تؤثّر حالته الداخلية، لا فرحه ولا حزنه، على حركات جسمه التي كان يتجلّى فيها وقار هادئ. نزل مصطبة، ثم درجاً اسمنتيّاً، كان القبو يشبه سرداب دير تتخلّله أعمدة رومانية. وكانت الرفوف القائمة بين عمود وعمود تحوي آلاف الزجاجات الراقدة والموضوعة في أغماد من القش. وعجب أن رأى الأضواء مشعلة. وإذ كان يبحث عن السلّة المعدنية حَسب أنه سمع ضوضاء في الطرف الآخر من القبو. وتنصّت حابساً نفسه. «لعلها الفئران!» قال في نفسه: لكن الشك لم يفارقه، وسار ليتحقّق. فوجد إيلينا في إحدى الزوايا. حسبه في البدء حيواناً، لأنه رأى رأسه وجمّته فقط يتحرك على مستوى الأرض. لكن سرعان ما لمح مسدساً أسفل رأسه مسدّداً إليه، كان القزم يتوسّل ويهدِّد في آن واحد.

- لا تطردني. وإذا طردتني فقد لا أتمالك نفسي.

وخبّأ المسدس متابعاً كلامه: «الحمر يقتلون الناس. ولقد اختبأت هنا. فلاتطردني». وكان رومولو ينظر إليه دون أن يجيب. كان يشغله دخوله هنا سراً من غير أن يعلم بذلك، وهو الذي أخذ على عاتقه مداخل القصر. كان اضطراب إيلينا ظاهراً وغروره مترنّحاً ومتذبذباً.

- لا تطردني. أنا هنا لخدمة سيادتيهما. بافتراض أنك أحمر، شيء ما كنت آمله من رجل مثلك...

وسأله رومولو.

- منذ متى أنت هنا؟

- منذ ثماني ساعات .

- من أين دخلت؟

- من باب الخدمة في شارع سانتا خينوبيبا .

- هذا الباب مقفل . أو كسرت القفل؟

وضع إيلينا يده مرة أخرى على أخمص المسدّس وتحاشى الإجابة .

- «الحمر» يلاحقونني ! - قال أخيراً متملّصاً .

- يلاحقونك؟

- نعم، هم يعلمون أني كنت أرسم صلباناً معقوفة على أبواب بيوت الجمهوريين .

وراودت رومولو الرغبةُ في الضحك .

- لا أحسبهم يقتلونك لهذا السبب . قد تنال منهم «علقة»، وهذا أقصى ما يجري لك .

وشحب لون إيلينا من المذلّة . وتنبّه رومولو إلى أن ذلك الجسم الضئيل يتسع للشعور بالمذلّة والغضب كالعملاق . وقال القزم :

- أتظنّني رجلاً يمكن أن يُضرب دون عقاب؟

وضع رومولو الزجاجات في سلة وتأهّب للخروج .

- أأستطيع البقاء هنا؟ - سأل إيلينا .

- لست أدري بعد .

لما رأى القزم زجاجات الشمبانيا، وسمع تلك الكلمات، فكر في أنّ الدوقين قد يكونان في القصر، وأن رومولو يحمل إليهما تلك الزجاجات التي لا يمكن له أن يقصد بها أحداً غيرهما . وربما طلب منهما توجيهات بشأنه . لكنّ رومولو سأله مرة أخرى .

- أو كسرت القفل؟

تراجع القزم وقد تقلّص وجهه، وكشف عن أنياب كأنياب الكلب.

- نعم. وماذا في ذلك؟

وكان ينظر إليه رومولو دون أن يعي ردود فعله. وقال:

- لا شيء!

ثم تثبّت من أن طاقات القبو لا تطلّ مباشرة على الخارج، وبالتالي لا تمكن رؤية الضوء من ذلك الجانب. فاطمأنّ ودلّ القزم على مرحاض وحنفيّة ماء في ممر مظلم خارج المرحاض، وقال له ألا يخرج من هنا، وألا يشعل الأضواء إلا بأقلّ قدر ممكن. وفاجأه إيلينا قائلاً:

- من الخير ألا تقول شيئًا عنّي لسيادتيهما.

- ولِمَ؟

- أنا في خدمتهما. وقد يُخيل إليهما أني أخاطر بحياتي لأجلهما. لكني لست على يقين بأن يفهما ذلك.

- أكلّمت الدوقين ذات مرة؟

- لا. لم أكلمهما قط؛ وإنما رأيتهما فقط من بعيد.

وبعد توقّف أضاف:

- دعني هنا حتى يدخل أنصارنا مدريد. وما الحاجة إلى أن يعلم سيادتهما أني هنا؟ لنترك المسألة سراً بيني وبينك.

دنا منه رومولو، فتراجع إيلينا وعلى وجهه علائم الرعب ذاتها. وفكر: «لو تقدّمت خطوة أخرى، فسوف يكشف لي عن أسنانه مرة أخرى». فمدّ يده وعرض عليه:

- أعطني المسدس، وأنا أعدك بألا أقول شيئًا لأحد.

وسلّمه إيلينا المسدس، ولما تجرّد من السلاّح تغيّرت ملامحه، وصار جلده بلون رمادي مخضرّ. وأخرج نصف سيجار وأشعله قائلاً بعد ذلك:

- حياتي صارت بين يديك.

وحذّره رومولو:

- هذا الممر حيث المغْسَلة يؤدّي إلى المستودع. والأبواب مقفلة مثلما كان باب الخدمة في شارع سانتا خينوبيبا. فإذا كسرت هذه الأقفال...

- لا تهتمّ، يا سيد.

وتذكّر عرضًا أن (الجوكي) أهمّ في نظام الخدمة من الجنائني، وأنه كان ابن عمٍّ ثانٍ للجوكي فروالان. وخبأ رومولو مسدّس إيلينا وقال له:

- ألستَ تدعى إيلينا...؟

- «الحمر»، حمر الحيّ يدعونني هكذا. لكن أبوابهم معلمة. وسيأتي يوم حسابهم.

وقال له رومولو إنه سيأتيه بالطعام بين حين وآخر. ثم انصرف حاملاً الشمبانيا إلى الدوقة. كان ينوي أن يكلّمها بشأن القزم. لكن الموضوع بدا له غير جدير بأن يُعرض عليها. وفكر: «إني وإن لم أقل شيئًا حول ذلك، فلابدّ لي من أن أطرد إيلينا من البيت. لأنني لا أستطيع إبقاء أحد هنا دون إذنٍ منها».

وكان عليه أن يحمل إليها أيضًا بعض الأطباق الباردة، وزجاجات أخر من خمور المائدة وأصبح أخيرًا متعبًا تعبًا شوّش تفكيره حتى لم يجرؤ على مواجهة سرّ المنفضة. ولما فرغت هي من وضع القناني في البرّاد نظرت إليه:

- سأطلبك، إن احتجت إليك.

وخرج دون أن يجرؤ على تكوين حكم على ما كان يراه؛ حكم على استقبال الدوقة أحداً ما في الليل ولما ينقضِ على ترمّلها يومان. وتذكر النظرة الواثقة المتعالية لما قالت له: «سأطلبك إن احتجت إليك». وخُيِّل إليه أن تلك النظرة كانت تأتيه من سطح ماء متبدّل. وكان فيها ما يشبه ضوء نهارٍ حيّ ينطفئ فوق سطوح حارة سيغوبيا.

وترك الدوقة عريانة حسب تخمينه منتظراً حلول الليل.

كانت الدوقة إبّان ذلك، تكتب في مذكراتها: «سيأتي الدوق مرة أخرى عما قليل وعيناه منطفئتان ويداه حيّتان. يبدو أن الخطر يُحدث فيه نوعاً من اللامبالاة والبعد عن ذاته.

«كآبة رومولو الحيوانية تدفع بي إلى التفكير. لقد رسخ في ذهنه مشهد مسبح قاعة السلاح. إذا كان لا يضمر لي حقداً، فذلك أنّه مبهور. وما زال لا يعي أني عاملته كما يُعامل حيوان أليف. وهذا ما جعله في اضطراب كامل، وينظر إليّ على أنّي كائن غير واقعي، على أني آلهة، يبدو لي أن التعالي، إذا بلغ درجة معينة صفة إلهية حقّاً.

«كنت البارحة على وشْك أن أنقل إلى الدوق ما حدث لي في المسبح. لكني كبحت نفسي في الوقت الملائم، متنبّهة إلى أن الدوق، أو أيّ رجل آخر قد لا يدرك مغزى ذلك مطلقاً».

جلس رومولو على عتبة مسكنه، من خلف البرج كان يطل القمر، وكان ظلّ مستطيل وكثيف ينبسط فوق جانب من الحديقة، ويغشى البيت والأشجار في ذلك الجانب، والراية الجمهورية. أمّا ما بقي من الحديقة، فكان يبدو على النقيض من ذلك، نقشاً بارزاً من القصدير. وقد اتّخذ بعض الحيطة، مراجل تسخين الماء

القديمة. ومكث عندها أكثر من ساعة محاولاً أن يعرف الزوايا التي يمكن أن تُرى المراجل منها، وإن لم يكن يخرج منها خلال النهار نفثة من دخان، لأن الفحم كان محترقًا احتراقًا كاملاً، بين هذا المكان وبيت السائقين ينتصب ممر صغير محفوف بالشجر. وكانت أكبر كتل البقس وأكثفها مقصوصة بعناية. وقد كان تصوّر تفسيراً في حالة اكتشاف المراجل متّقدة. سيقول إنه أوقدها بهدف تنظيف قنوات الماء، وإنه يقوم بذلك مرة واحدة في الشهر. ولربما أراد أحد العناصر أن يرى إلى أين تتجه أنابيب الماء الساخن، وفي هذه الحالة، فكر أن يقول إنها تزوّد الجانب السفلي من البرج. (وهناك توجد حنفيات ماء مختلفة). أمَا وأن هذا الطابق لايحوي، ذلك الوقت، مدخلاً مرئيًّا، فقد يخطر (لفشكة) أن يريد التثبّت منه. فسار إلى هناك وأزاح الستارة التي كانت تغطّي المدخل، وجعله مكشوفًا ومرئيًا، قد يكون خطراً أن يعثروا على مكان مخفيّ عمداً، أو قد يوقظ فيهم فضولاً جديداً.

هنا الحجرات التي ماتت فيها الدوقة حسبما حُكي له. فدخلها ببطء خائفًا لما رأى أنها ما تزال تبدو مسكونة، وأشعل الضوء، كان السرير فوضى والملاءات مطويّة عند موضع القدمين. وكانت ثياب نسائية ملقاة على مقعدين متلاصقين. وثمة مهد إلى جهة. ووضع رومولو يده على منضدة جدارية، ثم رفعها وقد ملئت راحتاه غباراً، كانت تُشتمّ رائحة غريبة، رائحة مكان مقلق. وبدا الضوء له ضوء «كنيسة عائلية، أو كنيسة عامّة».

ولو علم أن تلك الحجرات لم تطأها قدم أنسيّ منذ وفاة الدوقة الأم عام ١٩٠٥، لما دُهش كل هذه الدهشة. حتى لو لم يعلم ذلك، فقد انتابه شعور بأنه إزاء وضع محزن وكئيب، كان ينظر إلى ألعاب الظلّ بين الستائر القديمة التي لونها كلون زجاجة خضراء، ويقول لنفسه: «يبدو أن أحداً ما يزال يقطن ها هنا». وكان ينوي الانصراف، لكنه جلس، بدلاً من ذلك، على مقعد كبير. فقد أثار مشاعره التفكير

في أنه انتهك أكثر أسرار سيديه حميمية. وكان المقعد يصر صريراً شديداً غير متوقّع منطقيًا كلّما استرخى عليه. فنهض مرة أخرى. ولما عزم على المسير أطلّ مع ذلك، على مرآة. كانت الحجرة تبدو كما تنعكس في المرآة أشد غرابة، حتى خُيل إليه أن الأصل والصورة مكانان مختلفان.

وكانت تبدو أضواء المخدع المستورة أشد حيّوية في انعكاسها، فإذا ضُمّت رسوم سجاد الخلفية إلى الانعكاس الهادئ المنبعث من زجاج مصباح مشغول، لبدا أنها تخطّ شكل شخص معلّق في الهواء. وخرج يمشي القهقرى من غير أن يتخلّى عن احتضان المشهد كله بنظرته. ولما صار في الخارج جلس على «ديفونة» متعباً. وكانت رقّة الفلاح الأندلسي فيه، توقد في ذاكرته أضواء أسطورة تعود إلى أيام القرية. وساوره إحساس بأن ذلك المكان مقدّس. فغطّى مرة أخرى مدخله معلّقًا ستارة فوق الباب وخزانة السلاح الكبرى.

كان الدهليز يرقد في عتمة هادئة، فخرج منه إلى فناء البيت العام ثم إلى الحديقة تاركًا المدخل المؤدّي إلى تلك الحجرات مغطّى كما وجده من قبل. وسار إلى البوّابة. وبدلاً من أن يضطجع جلس قرب الهاتف ولبث مدة ينتظر. كانت زوجه مستيقظة وسألها إن كانت تعلم لِمَا كانت الحجرات السفلى من البرج مقفلة (ولم يشأ أن يقولِ لها إنه فتحها ليتحاشى نحيبها). وشرعت تشرح له أن الأشباح أخذت تظهر للدوق العجوز ولبعض الخدم أيضًا بُعيد وفاة الدوقة الأم. وتذكرت بلبينا التي كان يستهويها الموضوع، الأقاويل التي سمعتها خلال ستة عشر عامًا من الحشم والخدم الذين يزعمون أنهم سمعوا ذات ليلة ضوضاء قطع أثاث تُجرّ جرًا، وفي ليلة أخرى أصواتًا. ولما أصاخ أحدهم السمع، سمع بوضوح كلمتي «أنا عطشانة». ويبدو أن الخادم التي كانت تُعنى بالغرف خرجت إلى الحديقة ونظرت من النافذة فرأت وسط المخدع لهبًا أزرق ناعمًا يبلغ طوله قامة كائن بشري، كان لهبًا نادرًا جدًا . لأن اللهب الأزرق يكون أكثر وضوحًا في مثل هذه الأمكنة،

لأنه في أمكنة أخر يبدو مرتعشًا . وكان رومولو يستمع من غير اهتمام كبير ؛ فما كان يميل أدنى ميل لتصديق خبر يجري على لسان بلبينا . لكنه يتذكر هو أيضًا أنه قرأ قصّة في كتاب منذ سنوات خلت . ولربما ما زال يحتفظ بالكتاب في بيته ، ولعله استذكر القصة ما إن وطئت قدماه حجرة الدوقة الأم ، لئن جاء في الكتاب أنها قصة ، فقد كان سحر الحرف المطبوع يضفي عليها قوّة حدث حقيقي . لأن رومولو يؤمن على عكس أغلب الناس أن الأشياء المرويّة بحروف طباعيّة قد حدثت لامحالة . كان الكتاب يحكي قصة حجرات كهذه الحجرات توفّيت فيها سيدة حديثًا . دخل زوج المتوفّاة ذات يوم باحثًا عن شيء ما ، وانتابه ذات الانطباع الذي انتاب رومولو . فقد بدا له ذلك المكان مسكونًا ، وكان على يقين بأنّ أحداً مادخل خلال لحظة معيّنة من باب الغرفة المصاقبة ، وفي اللحظة الملائمة التي كان ينتظره فيها ، رأى زوجه تظهر أمامه لابسة ثوب نوم أبيض . وكان شعرها الذي هو بلون القنّب مسدلاً على كتفيها ومتنها . مرّت قرب زوجها من غير أن تنظر إليه ، وجلست قبالة المرآة . ولما استقرّت هناك ، أخذت مشطًا وبسطت يدها تقدّمه له . فأخذ الزوج المشط . وقالت :

- يؤلمني شعري ، ولم يسرّحه لي أحد .

وشرع الزوج يسرّحه ، وأحس بكل شعرة من شعرها الطويل باردة بين أصابعه ، ومفروقة عن سائر الشعر . وكانت الزوجة تتشكّى مطلقة تأوّهات وأنينًا متقطعًا . كان الزوج يضع المشط فويق الجبهة ثم يرسله عبر الشعر ببطء . صنع ذلك ثلاث مرات ، بل خمسًا ، بل ثماني مرات أخر دون أن يحس بأدنى مقاومة في الشعر . وأخيراً نهضت وانصرفت مرة أخرى من الباب نفسه وقد سُرّي عنها كما يبدو وإن لم تُفصح عن ذلك . ولما رأى الزوج نفسه وحيداً ، خرج يسير القهقرى . ولم يشأ أن يقطن البيت فحسب ، وإنما المدينة كلّها أيضًا .

اضطجع رومولو. وكان يرى في إطار النافذة المضاء ظلّ الدردارة (علامة الشرف). هكذا سُمّيت. ولا يدري أحد سبب التسمية، وإنما هي نكتة انحدرت من أجداد الدوقين، وأخذ ذلك الظلّ يتقلّص كلّما صعد القمر في السماء، ومرّ أعضاء الميليشيا مرّتين بذاك المكان لتبديل الحراسة عند الباب.

نام رومولو، واستيقظ متأخراً. كانت زوجه تروح وتجيء منهمكة في أعمالها الصباحية. والسيدة لمّا تستدعه إليها. فنبّه بلبينا إلى أنه ذاهب إلى حيث المراجل، فإذا طلبته الدوقة فلْتخرجْ ولتجلْس على عتبة الباب واضعة خرقة بيضاء على تنّورتها وتتظاهر بأنها تخيط ثم انطلق. داخل حَوْش المغاسل الأوّل -وهو باحة مبلّطة بألواح من الحجر كبيرة- كانت ثمة كرزة. كانت شجرة ضئيلة الحجم لكنها عالية إلى حدّ ما. وكان بين أغصانها دستتان أو ثلاث دستات من حبّات الكرز. جلس على مقعد حجري يستند إلى حائط وراح يتأمل الشجرة بصمت، وكان يجد لذّة في رؤية العصافير تروح وتجيء وتنقر أحياناً حبّات الكرز الناضجة. كانت عصافير الدوري خير أصدقائه دائماً. وكان يحسب أنه يعرف كثيراً مما يعيش منها في الحديقة. كان ينظر إليها تطرد بعضها بعضاً قافزة من غصن إلى غصن. كانت تبدو أكثر فرحاً تحت كُريّات الكرز الحمر. ولمّا نهض ليدخل الحوش المجاور حيث المراجل سقطت كرزة عند قدميه. فالتقطها ونظر إلى العصافير وهو على قناعة من أنها قطفتها ورمت بها إليه.

وتثبّت من أن في المراجل ناراً تكفي حتى الساعة العاشرة ليلاً. وخرج قاصداً فناء المغاسل الصغير، لكنه عاد فجلس هنيهة قبل أن ينطلق. وكان ما يزال يحس بنفسه بعيداً عن كل شيء في هذا الحوش المغلق ذي السماء البنفسجية والبلاط الحجري الرديء الذي كانت تنمو بين شقوقه العشبة الصفراء. لكن هدوء الفناء الصغير سرعان ما أظلم بانشغال ذهنه بالدوقة. فلربما طلبته وهو خارج البوّابة. فسار ودنا من طرف كتلة من البقس يُرى منه باب بيته. ولم تكن بلبينا جالسة

فيه. فعاد وجلس مرة أخرى على المقعد الحجري. ثم استلقى على جنبه مستنداً إلى مرفقه، وأخيراً استلقى على ظهره وقد شبك يديه تحت رأسه. وإذْ رأى السماء فوقه، وأحس بذلك الهدوء المحيط به هدوء «مكان لايعرفه أعضاء الميليشيا»، ويذكره بأمكنة أخر من أيام طفولته، شعر بنفسه مرة أخرى أنه في نقطة المركز من ذاته، ثم عاده تفكير آخر شقّ لنفسه طريقًا وسط الهدوء:

«أيكون صديق الدوقة قد جاء الليلة الأخيرة؟»

ولم يكن يجرؤ على القول عشيقها. لكن تجربته كرجل ناضج كانت تقول له إن زيارات رجل ليلية لمن كان في عمر الدوقة هي زيارات غرام، اللهم إن لم يكن الرجل أخاها أو أباها. وظلّ رومولو يعالج الفكرة بينما كان يتأمل السماء محاولاً بإلحاح أن يكوّن صورة جسدية للعشيق السري دون أن يستطيع إلى ذلك سبيلاً. وكان مسروراً بالانتظار هنا ليجعل من استدعاء الدوقة له أكثر احتمالاً متى خرج. وخُيل إليه بإدامة النظر إلى السماء أنه يرى في الزرقة التي صارت بنفسجية لفرط مانظر، شيئًا يشبه أن يكون مستنقعًا فيه إشارات إلى عري أنثوي كما حدث له أمام اللوحة البحرية المعلّقة على الجدار، وكان عري المرأة يظهر له كلما تذكّر الدوقة على أنه شيء طاهر طهراً مبينًا. وكان يحاول أن يفسّر كلماتها في المسبح. إذًا تقضي الضرورة التفكير بتروٍّ إن قالت الدوقة حقًا ما خال أنه سمعه. وتذكّر أن القاعة لماتكلّمت كانت تسودها ضوضاء ماء متدفّق وأصداء غامضة في الزوايا العليا، ولربّما خانه السمع، أو لعلها قالت كلمات أخر. ولربّما قالت دون حاجة إلى خلط ما: «وهل رومولو نومْبرِه (اسم.)؟» ثم ضحكت. لأن ذلك الاسم -رومولو- ليس مألوفًا في التسميات الإسبانية العادية. وربما ضحكت من ذلك الاسم من غير انتقاص قدْر من يحمله. «وهل رومولو نومبره (اسم)؟» وخُيِّل إليه أن تلك «اللقية» مَحت في لحظة واحدة عناء قلق دام ثلاثة أيام. وأحس بالنشاط والسعادة تقريبًا

فراح يصفّر بلطف للعصافير حتّى أجابه أحدها. وتذكّر أن في بيوت قرطبة الكبرى حيث كان يخدم والده، أمكنة كهذا المكان. وكان يلوذ بها من مراقبة الكبار مختفيّاً ومُخفيًا سراً ما، كما يفعل الآن.

كان ما يزال مسروراً بالاكتشاف. «وهل رومولو اسم (نومْبره)؟» حتى أحس بطراوة الهواء عند المساء وفقد القدرة على الانتظار، فنهض ثم خرج. لم تكن طلبته الدوقة، ولم تطلبه سائر اليوم. فآوى إلى فراشه في وقت متأخر متعباً من الانتظار. وأبطأ كثيراً حتى وافاه النوم. ورأى راحتي الدوقة تتحركان على شكل لايُلمح تقريبًا في الماء وقد بسطت ذراعيها لتستطيع البقاء طافية. وفكر أيضًا في المغاسل والمرجل ولوحة الجدار البحرية. وذابت الذكريات وتحولت إلى سوط عذاب واحد. وقال لنفسه متمتماً: «هي فوقُ. ومعها عشيقها وهذا العشيق يعرّضها للخطر. وهذا الخطر ينالني أيضًا بالطبع. لكن ذلك لاأهميّة له». ولم يستطع الرقاد، وانتهى به الأمر إلى النهوض والخروج إلى الحديقة. لم يكن يعلم ماذا يصنع لشعوره بالإهانة تقريبًا لأن الدوقة لم تطلبه. ومع ذلك، كان اكتشافه ذو الصلة بجملة الدوقة: «وهل رومولو اسم (نومْبره)؟» يملؤه بالحبور، فزار الأقبية وقاعة السلاح والمسبح الذي كان ما يزال يحفظ الماء الذي سبحت فيه الدوقة آخر مرة.

وتقدّم وسط الظلام حتى ذات المكان حيث كان يوم الحادث. وقال بصوت عالٍ:

- وهل رومولو أومْبرِه (رجل)؟

ثم أردف بالنغمة ذاتها:

- وهل رومولو نومْبره (اسم)؟

وتحقّق من أن كلتا الجملتين لها رنين واحد على حدٍّ سواء. وكررهما واقفًا في زوايا أخر من القاعة. أحيانًا كان يجيب الصدى. وإذا تردّد الصدى كان الخلط

بينهما كبيراً جداً. وكان على يقين تام أنّ ما قالته كان (نومْبرِه-اسم-Nombre، وليس أومْبرِه Hombre-رجل.) وذلك كان يذكّره بما كان يقوله الخدم أحياناً: من أطلق عليك هذا الاسم؟ وهذا ما ردّده القهرمان نفسه ذات مرة دَهِشاً.

ولم يخطر في باله أن التفسير لا يسوّغ خُلقياً أن تعرض الدوقة نفسها عريانة أمامه. لكنّ هذا العري كان يبدو له معجزة لا تحتاج إلى تفسير. لقد حدث له ذلك، لأنه كان يملك الحق في أن يحدث له.

أخذ سيف مبارزة من الخزانة، وصنع عيْن ما صنع لوبث يوم جاء أعضاء الميليشيا هذا المكان. وطعن (المانكان) طعنة. لم يكن للسيف زرّ في طرفه، فانغرز في واقية الدمية القطنية. فانتزعه منها ثم غرزه مرة أخرى. كانت الطعنة جدّ قوية حتى نفذ رأس السيف من ظهر التمثال. وتركه على هذا الوضع وخرج ببطء. تعوّدت عيناه على الظلمة، وكان ينظر إلى ماء المسبح الهادئ كصفحة مرآة. وقال: «سآتي ذات ليلة لأسبح فيه».

لمح أضواء لبنية في النافذة العليا. فقد كان القمر يطل على الحديقة. لم يكن رومولو يدين الدوقة لاستقبالها رجلاً في الليل، بل كان يدين الدخيل، يدين العشيق هي لا يمكن أن تكون موضع تهمة وإدانة. لكنها لم تهتف له، فما كانت بحاجة إليه، وعاد إلى بيته محبطاً ونام.

كانت الأيام التالية أصعب وأشقّ؛ وسقط في كآبة شرسة لما رأى الدوقة ما تزال مضربة عن طلبه. فصار سريع الغضب من زوجه. وجعلت الليالي الطوال دون نوم في مدينة مظلمة زارها الطيران المعادي ثلاث مرات أو أربعاً، أرقَه أمرّ من العلقم. وكانت الظلمة مطبقة تمام الإطباق على الشارع وعلى الحديقة، نعم كانت تُرى أحياناً نوافذ مضاءة في الطوابق العليا من البيوت القريبة الواقعة على جانب الحديقة جهة الباب الرئيس. لكن، ما إن تدقّ صافرات الإنذار حتى تُطفأ هي أيضاً. وكان رومولو مضطراً آناء النهار للظهور مرة أخرى بمظهرها هادئ

وودود بصحبة أولئك العناصر الأربعة الذين ما انفكّوا يتحدّثون عن رؤساء عسكريين لايعرفهم، وعن وقائع حربية ما كانت تعني له شيئًا وعن نظريات سياسية لايبلغها فهمه.

«سأصعد لأرى سيدتي.» كان يقول لنفسه كل يوم، ثم لا يجرؤ على الإتيان بحركة. وظلّ على دأبه بزيارة المراجل دون جدّة فيها، وكان يقف أحيانًا عند المغاسل، لكن تلك الوحدة، وذلك السرّ الذي ما كان يفيده في شيء صارا باعثين على قلقه، وكانت الكرزة فقدت كل ثمارها. لكن بعض الأغصان كانت تحتفظ في أطرافها بالنوى التي جردتها من اللبّ مناقير العصافير الشرهة. وكانت بلبينا هي الأخرى مشغولة البال على الدوقة. لكن، على شكل مختلف. فلربما كانت مريضة وليس لديها قوى حتى تتصل بالهاتف.

- لكن رومولو كان يتذكّر كلماتها: «إن احتجت إليك فسوف أطلبك». وذلك يعني أنه لابدّ لها من أن تطلبه.

مضى أسبوعان -خمسة عشر يومًا صامتة- عليه دون أن يراها. فعزم على الصعود، وقام بذلك بُعيد الظهر. وبينا كان يجتاز سلالم البرج -بدءاً من الطابق الثالث- أخذ يحس بأنه ارتكب جرمًا من غير أن يعلم لذلك سببًا، مع ذلك كان احتمال أن توبّخه الدوقة على عصيانه يمنحه رضًا خفيًّا. ولما صار في المصطبة الأخيرة قرع الباب، فلم يجبه أحد. ودفعه ثمّ دخل. ولم يجد أحداً في الغرفة المقابلة. ونادى بشيء من الذعر:

- سيدتي ...

وخرجت الدوقة وعلى عينيها غشاوة من يستيقظ منَ النوم. وفكر: «تنام نهاراً». وأردف: «إن كانت تنام نهاراً فهي لا تنام ليلاً». رآها هادئة مطمئنة هدوءاً وطمأنينة يشيان برضا سعيد عن نفسها وعما يحيط بها. وقالت:

- أحسنتَ صنعاً بمجيئك، لأني كنت أفكر في استدعائك هذا اليوم عينه .

ودنت من منضدة ونظرت إلى ورقة كانت سجّلت فيها شيئًا ما . فتناولتها وأعطتها رومولو .

- عليك أن تجلب ذلك كله .

نظر مرة أخرى والورقة في يده إلى المنفضة الملأى بأعقاب السجائر وفوقها غليون مطفأ، وشعر بإهانة شخصية، كانت الدوقة فوق ذلك، تريد كتبًا وقال إنه سيذهب إلى المكتبة ويجلب لها دستات منها، لكنّ الدوقة كانت تريد كتاباً بعينه وسجّلت على الورقة التعليمات الضرورية للعثور عليه . فبادرها بالقول متجهمًا :

ينبغي للسيدة أن تكون أكثر حذراً .

- ماذا تقول؟- سألته مدهوشة .

وبذل جهداً كبيراً لئلا يحمرّ وجهه . لكن ذلك الجهد جعل لونه يمتقع .

- أنا أبذل حياتي عن رضا فداء للسيدة إن لزم الأمر . لكن، على شرط أن يكون إنقاذاً لها .

ونظرت إليه من قرنه إلى أخمص قدميه وقد زادت دهشتها . وبادرته بالقول :

هيّا أنجز ما كلّفتك به .

- وخرج راضياً عن نفسه، وفكر في الذهاب فوراً إلى المكتبة، لكنّه أجّل هذا المسعى حتى النهاية نظراً لصعوبته .

لقي في القبو إيلينا الذي كان خلع ثيابه وأصبح لا يحتفظ منها بغير بنطال بالٍ . وأعطاه قطعاً من لحم الخنزير وعلبة بسكويت جلبها من المستودع فقال إيلينا :

- لعلك رأيت أن الأقفال لم تُمس. فإذا فُقد شيء من المستودع، فأريدك أنْ تعلم أنّ ذلك ليس من صنع يدي.

وأبدى رومولو دهشته:

- أنا لم أدّعِ فقدان شيء.

- إذا نقص شيء فيجب عليك أن تعلم أن في هذه الأقبية كائنات حيّة أخر.

- ماهي؟

- جرذان.

وقال رومولو:

آها! جرذان!

وأضاف إنه قد يجلب قطًّا. لكن إيلينا انتصب على ساقيه القصيرتين:

- الجرذان لحسن الحظ، ليست كثيرة. لكنّك لن تجد في مدريد قطًّا واحدًا يصمد أمام واحدة منها.

- أهي كبيرة جدًا؟

ونفخ إيلينا صدره مرة أخرى -صدر يبدو أنه يبدأ من الركبتين- وقال:

- هناك جرذان كبيران كبر جسمي تقريبًا.

كان رومولو ينظر إليه دون أن يعي أنه يمكنه الكلام عن الجرذان بفخر. وأضاف الآخر رافعًا بناطيله.

- تأتي باحثة عن أطعمة سيادتيهما.

وسار رومولو وكان ما يزال يسمعه يتمتم من بين أسنانه، لكنه تنبّه وسمع كلمات. وحسب أنه سمع:

- لحسن الحظ أني هنا. وعليهما أن يحسبا حسابي.

ولما حمل القناني والأطعمة إلى حجرة الدوقة رأى أن المنفضة أمست نظيفة. «لقد تنبّهت إلى ما قلته لها بأنّ هذا التفصيل يشي بها». وذكّرته الدوقة أنه لم يجلب إليها الكتاب، فانطلق يسعى إلى المكتبة. ولما وصلها لاحظ أن الضوء الذي يأتي من النوافذ العالية المغطّاة بالشعريات كان يشبه ضوء مخدع الدوقة الأم. «ضوء كنيسة». كان السقف العالي جداً مغطّى برسوم بالفريسك تمثل آلهة «الشهرة» حاملة بوقًا طويلاً وتحيط بها نساء عدة عاريات يسبحن في سماء زرقاء، ويبدو عليهن أنهن سينفصلن عن السقف ويطرن. كان ذلك الخلط المنسجم بين أجساد وردية على خلفية زرقاء تجدّد مشهد المسبح. وخرج من ذهوله باحثًا عن تعليمات الدوقة، كانت آلاف وآلاف من الكتب تصطفّ في كل الاتجاهات؛ من أمامه وخلفه وإلى جانبيه، وأحس بالضياع مفكراً في أنه لن يعثر على بغيته أبداً، وكان يدور حول نفسه، وكان كلما نظر في كل الاتجاهات انخفضت رؤيته. وشرع يقرأ تعليمات الدوقة مرة أخرى. آه! عليه أولاً، أن يبحث عن اسم المؤلف والعنوان في البطاقات الموجودة في خزانة على يده اليسرى وهو داخل. فقضى بعض الوقت من غير أن يعثر على مكان البطاقات، ولمّا وجده أخيراً كانت أضواء النهار قد انطفأت، فأشعل الضوء الكهربائي. ثم بحث عن الرفّ فوجده وأخرج الكتاب الذي كان يحمل الرقم ٧٢، فتح دفّته فرأى أن العنوان والمؤلف يتطابقان وما جاء في ورقة الدوقة. لكن الكتاب كان محكوكًا، وغلافه باهتًا وحوافّه متآكلة. وكانت صفحاته الداخلية من ورق رخيص حتى يبدو وسخًا. فلم يكن عن ذلك راضيًا. وفكر في أن يحمل لها علاوة على ذلك الكتاب كتابًا آخر خيراً منه مظهراً. فبحث فيما حوله وأخذ ما بدا له أشدها ترفًا. كان كتابًا صغيراً مغلّفًا بجلد أبيض، ونُقشت على صفحة الغلاف أحرف من فضّة تذكر أنّ المؤلف مركيز. كل ذلك بدا له جد ملائم. وكان يتأهّب للخروج لمّا رأى على منضدة صورة ضمن إطار من البلّور المشغول، وكانت تلك صورة حديثة للدوقة. ووقف رومولو عليها يتأمّلها حتى

دقّت ساعة الجدار العاشرة فتنبّه إلى ضرورة عودته إلى البرج. وإذ كان جيبه لا يتّسع للصورة والإطار حملها والكتابين بيديه. ولمّا استعدّ للخروج وإطفاء الأضواء سمع وقع خطا خارج المكتبة. وظهرت له الدوقة من غير أن تتيح له التفكير فيمن يكون صاحبها.

- ألم تجد الكتاب؟

ودنا منها حاملاً بيديه كل ما كان جمعه إضافة إلى الصورة. ونظرت إليها ثم نظرت إلى رومولو نظرة خاطفة كالبرق، وكالبرق أيضًا في وميضه المزعج. ووضعتها مرة أخرى على المنضدة. لم يكن اهتمام الدوقة منصبًا على الصورة، بل سألت والكتابان في يديها- (كتاب المركيز فوق الآخر):

- لِمَ جلبت هذا الكتاب الآخر؟

- لا أدري، بدا لي أطرف وأنظف من غيره.

كان كتابًا للمركيز ده ساد. وكانت الدوقة تكبح بسمة على زاوية فمها اليسرى.

- ألم تفتحه؟

- لا، يا سيدتي.

تلك الطبعة كانت تحوي رسومًا إباحيّة. وكانت موضع تقدير الدوق كثيرًا. ونظرت الدوقة إلى صورتها ذاتها مرة أخرى، وأخذتها معها قائلة:

- اخرج إلى الممرّ أمامي. فإذا اشتبهت بوجود أحدٍ ما، فاسعل مرتين، وإذا كان الطريق خاليًا فاسعل مرّة واحدة.

أخرج رومولو سلاحه وجهّزه وحفظه في جيب سترته. كل ذلك تمّ على شكل ميكانيكي مما أوحى للدوقة بوجود خطر حقيقي.

وودّعته قبل أن يصلا درج البرج قائلة له مرة أخرى :

أحسب من الخير ألا تأتي غرفي إلا إذا دعوتك .

وفكر : «تخشى أن أفاجئها مع الشخص الآخر» . وخرج إلى الحديقة . ولمارآه الحارس لويث ، قال له : «ما أخبار الدوق؟» فأجابه بزمجرة ، لأنه لم يُعجب بتلك النكتة .

مضت أيام أخر من غير أن تدعوه الدوقة . وتذكر ذات صباح الكلمات التي نطقت بها في المكتبة مشيرة إلى كتاب المركيز ده ساد : «أفتحته؟ أو نظرت إلى ما في داخله؟» وفكر في أنه رأى إلى جانب ذلك الكتاب ثلاثة كتب أخر تشبهه شبهًا كاملاً تحمل على ظهرها اسم المركيز ذاته . ولم يستطع كبح فضوله لفرط مافكّر في الموضوع ، فعاد إلى المكتبة .

وجد قرب المكان حيث كانت صورة الدوقة من قبلُ ، ثُقّالة من فضّة على شكل امرأة عارية . وكانت خطوط الجسم المنحنية الحلوة تلمع بهدوء تحت الضوء . فداعب ذلك التمثال الصغير بيده ، وشعر ببرد شديد لما لمسه ، فاحتجزه بين يديه مضطربًا إلى أن اعتدلت حرارة المعدن بتأثير حرارة يده الخشنة . ثم تابع سيره باتجاه الرفوف دون أن يتخلّى عن تمثال الفضّة ، وأخذ ثلاثة كتب كان مظهرها مطابقًا لمظهر كتاب الدوقة . وقرأ على غلاف الجلد الأبيض : مركيز ده ساد I – مركيز ده ساد III – مركيز ده ساد IV . ثم جلس وفتح الكتاب دون تعيين . ووجد رسمًا مذهلاً يمثّل رجلاً وامرأة في وضع جماع . ولم يتردّد الفنّان في هذا الرسم أوفي غيره في اقتحام أشنع الأمور ، وشعر رومولو بالخزي والاضطراب . فقد كان من عادته أن يقوّم الكتب باحترامها الأخلاق والفضائل الدينية . أما رؤيته تلك الرسوم على حين غرّة ، فقد رجّته ، لأن حميميّة الوصال كانت عنده قبل كل شيء سرًا خفيًا . وما كان يعرف فيما يفكر لما رأى ذلك (المطبوع والمنشور ، وبالتالي هو في

متناول الناس جميعًا .) وإذا كانت الصورة تظهر كاسية أحيانًا في كتاب آخر ، فلا يلبث أن تطالعه صورة رجل يرفع تنّورة عشيقته التي تنتظره كسلى لا مبالية ، وأحس بالعار يغمره . لكنه كان ينبغي له أن يخرج بفكرة ؛ فما الرأي الذي كوّنه عن ذلك؟ كان يرغب في قراءة الكتب ، لكن ، اعترضته فكرة عجزه عن التوغّل في عالم سرّ الدوقين . فتركها حيث كانت وخرج متفكرًا : «لا تجرؤ امرأة في الدنيا على تلقّي كتاب كهذا الكتاب من يد أحدٍ ما خلا زوجها أو عشيقها . وهي أقلّ جرأة على الضحك لحظة تلقّيها إيّاه . وقد ابتسمت الدوقة . ألم تكن بسمة الثقة الكبرى؟ أم أنها تصرّفت معه مرة أخرى وكأن الحياء والحذر لا ضرورة لهما؟»وراح يعيد تفسير كلّ شيء على شكل محبط . وقال لنفسه : «هذا طبيعي . وماذا عساني أنتظر بعد ذلك الصباح في قاعة السلاح؟» وأصبح لا يؤمن أنها قالت : نومبرِه (اسم) ، وإنّما أومبرِه (رجل) .

خرج إلى الحديقة وصور المركيز ده ساد تجول في مخيّلته . وأخذ عُري الدوقة في المسبح يتّخذ معنى آخر . كان يحسبه في قبضة يده مثلما كان تمثال الفضّة الصغير . لكنه ، بدلاً من أن يكون باردًا ، كان متّقدًا ويحرقه . وذهب عند العصر ليذكي نار المرجل ، ثم خرج إلى الحديقة ودنا من رجال الميليشيا . منذ ساعات الصباح الأول ، كان يُسمع هدير بعيد حسبه في البدء عاصفة (وكانت السماء مغمّة) . لكن رجال الميليشيا قالوا إنه قصف المدافع ، وكان هؤلاء أقلّ انشراحًا من المعتاد ما عدا (فشكة) الذي كان يبدو على العكس منهم ، مثاراً وفرحًا باقتراب العدو . وكان على رومولو أن يتّخذ مرة أخرى ردود فعل حذرة كان ألفها كيلا يصعد إلى البرج . لكنه ، صباحِ اليوم التالي ، لم يفكر في الأمر كثيراً وصعد . وكانت ما تزال المدافع تسمع بعيداً .

- يبدو أن كل شيء ضاع ، يا سيدتي . — قال لها من غير أن يعتذر إليها من زيارته .

- أنا أرى العكس ، يا رومولو .

- هذا يرتبط بالجانب الذي ننظر منه . —قال ذلك بلهجة حذرة مشحونة بالعداء دُهِش هو نفسه منها .

ولبثت هي هنيهة تنظر إليه وكأنها لا تدري بما تجيب . كانت تراه مهانًا . وماكانت تستطيع أن تتخيّل أنه مهان لأنها لم تدعهُ إليها . لكنها قالت أخيراً :

هذه مفاجأة لي أن سمعتك تتكلّم هذا الكلام .

كان يتحاشى النظر إلى اللوحة البحرية المعلّقة على الجدار ، وإنما إلى النوافذ التي كانت تُرى منها سماء رمادية بلون الرصاص . كان باب السطيحة يؤطّر بلاطات رمادية ، وزاوية من الدرابزين هو الآخر رمادي اللون أيضاً . وكان يبدو أن كل الأشياء فقدت بروزها في ضوء ذلك النهار الطبيعي ، نهار خلا من الشمس . ولاحظ رومولو أن المنفضة خلت من أعقاب السجائر . لكنّ شيئًا يسيراً من رمادٍ حديث كان على المنضدة خارج المنفضة . كان أسطوانة صغيرة جداً من رمادٍ رماديّ يقارب أن يكون أبيض ، وإذْ رأى قدمي الدوقة تخلّف أثراً في السجادة ، نظر حوله باحثًا أيضًا عن آثار قدمي رجل . لكنها جلست ودعته للجلوس قبالتها . وكانت تلك أول مرة توليه هذه الرعاية . لكنه رفض الدعوة . وظلّت الدوقة على شكّها إن كان رفضه يمثّل عداء أم احتراماً . ولزما كلاهما الصمت ، حتى قالت أخيراً .

- إذا كنت تفكّر تفكير أعدائي ، فعليك أن تتذكّر أنّي قلت لك أولّ يوم إن لك ملء الحريّة ...

وكان يبدو التردّد عليه قبل أن يجيبها . وقال أخيراً :

يومئذ كان الأمر مختلفًا .

واتخذت الدوقة موقفًا دفاعياً .

- لا يومئذ ولا اليوم وقفت يا رومولو بجدّ إلى هذا الجانب أو ذاك .

وظل ينظر خفية إلى السجادة. وخُيل إلى الدوقة أن هذا الموقف ينبع من حياء كبير. لكنه كان يبحث عن آثار خطا رجل. وحسب أنه وجد أحدها عند باب المخدع حيث رسوم السجادة أكثر وضوحًا لوصول الضوء المائل من النافذة إليها.

وتابعت الدوقة:

- أنا أفهم حالتك، لأنها بشكل ما حالتي. لكني أقول لك الحقيقة. أنت انتظرت هذه اللحظات لتنحاز إلى طرف، وقرّرت الميل إلى صالح الخاسرين. هذا يعني أنك يائس. وإني آسفة لك.

وظل صامتًا. وأردفت هي:

كل شيء خلاف ذلك لا قيمة له، يمكنك أن تكون أحمر، أو أخضر أوأزرق. لكني أطلب منك شيئًا واحدًا: ألا تبرز نفسك لأن أنصارنا سيكونون قساة ذات يوم طالبين تحديد المسؤوليات. لا تنسَ أن هؤلاء الرجال الذين يطلبون إليك اليوم أن تكون أحمر، قد يكونون أوّل من يدينك غداً صباحًا، لاتثق بأحد، يا رومولو.

وغيّرت لهجتها مسبغة عليها طابعًا أليفًا.

- أدفعت لك «لجنة التصفيات» مرتّبك الشهر الماضي؟

- لا، يا سيدتي.

فبحثت بين أوراق محفظة صغيرة، ووقّعت شيكًا وسلّمته إليه، ونبّهته إلى أن يضع تاريخًا سابقًا على الحرب الأهليّة: «ينبغي لك أن تقول إن الشيك كان بحوزتك منذ شهرين».

وكانت تلك الوريقة في يده تزعجه وتشعره بالإهانة. وكان يرى أثر قدم رجل على السجادة قرب المخدع. وكان يتذكّر الرسوم الخليعة. وقال:

سيدتي: أنا لا أقبض أجري منك بل من اللجنة. فإذا دفعت هذه اللجنة لي أم لم تدفع فهذا شأني وليس شأنك.

كانت المدافع تُسمع بعيداً. وابتسمت الدوقة من غير أن تحمِل هذه الكلمات محمل الجدّ. وقالت بلهجة فيها بعض من فكاهة شيطانية:

رومولو، لم أبغِ الإساءة إليك.

كان الصمت عميقًا عمقًا مراً. وقد كانت تلك الوريقة في يده سخرية أيضًا.

ولم يكن يدري لِمَ كان التفكير في أنه مأجور يملؤه بالعار. مأجور لمّا كانت حياتهما كليهما في مهبّ الريح. فمزّق الشيك وجعله قطعًا صغيرة ألقى بها أرضًا وشرع يسير دون أن يبدي عذراً ما. لكن الدوقة نادته ورجته بأكثر الطرق ودّاً، أن يجمع تلك الوريقات، وألا يرغمها على أن تقوم هي بذلك. فأطاعها، لكن ليس بصفته خادمًا -كان يقول لنفسه- وإنما تهذيبًا ومروءة.

وتنبّه إلى أنّ ذلك الموقف (جمع الوريقات وهو منحنٍ) أيسر شيء يمكن لكائن بشري أن يقوم به. كانت تلوح في الهواء قوة لم يكن يريد أن يستسلم لها، ماكان يريد أن ينثني أمامها. ولم يبق في يده وسيلة أخرى لمواجهة تلك القوّة المعادية إلا أن يكون «أحمر». وكان في البرج مجال محظور عليه، محظور عليه كما كان قبل الحرب، يضاف إليه بقاؤه سراً، وانطواء شيء من التهديد داخل هذا السر. كان يُسمع في الإذاعة صوت خفيض جداً، صوت كان يقرّ بأن الجيوش الجمهورية تفقد مواقع. وكان ينبّه إلى أن سقوط مدريد وفقدانها -لاسمح الله- ماكان ليشكّل غير حادث عارض في الصراع، ولن يكون في أيّ حالٍ، نهاية الحرب.

وخرج مستاء جداً من نفسه. لم يكن يدرك، وإن صار بعيداً عن حضرة الدوقة، ما كان صنع، وما كان قال.

من يوميّات الدوقة:

«رومولو خائف. وخوفه يتّخذ طابع التحدّي، وهو جدّ قوي حتّى يدفعه صوب الجانب المعاكس لما يمليه عليه الحذر».

يأتي الدوق كلّ ليلة، ويحسب أن النصر مسألة ساعات.

إني أقرأ بعض رسائله من أيام الملكية، وتبدو لي وسط كلّ ما يحدث الآن، مضحكة تقريباً بمشاكلها السطحية وسخافاتها».

وكانت الدوقة مثارة الأعصاب لأوّل مرة. كانت ضوضاء المعركة تقترب أحياناً حتى يُخيّل إليها أن أصدقاءها قد احتلّوا المدينة. وكان رومولو يروح ويجيء في الحديقة كالشبح، مثار الأعصاب أيضاً باقتراب المعركة، وبصور المركيز ده ساد الداعرة تطفو في ذاكرته، وبحقد متصاعد دون هدف.

شرع ذات يوم يرقب مداخل القصر السرّية التي يجهلها أعضاء الميليشيا. لكنه لم ير شيئاً. وكمن في أماكن مختلفة من الحيّ حتى رأى بعد ليلتين فرداً ينزل من سيارة إسعاف صحية على بعد عدة نواصٍ من القصر، وتوجّه صوب باب خدمة قديم يؤدي إلى البرج. كان العشيق العارض يأتي كل ليلة في الساعة نفسها ويغادر قبيل الصباح. وصار رومولو مكتئباً وجافياً. وما كان يكلم رجال الميليشيا سوى كلمات مشتّتة، وأحياناً مزعجة. وكمن ذات ليلة في إحدى زوايا السلم الذي كان يصعد منه الرجل المجهول. ولبث هناك ساعات عدّة. فسمع حوالي منتصف الليل امرأته تناديه من باب الحديقة. ولكنه لم يتحرك. «ماذا تصنع هذه المرأة هنا؟». «ولِمَ تصيح هذا الصياح؟». ولِمَ لا تضطجع؟» ورأى الباب يُفتح بعد قليل، ويدخل منه سراً سواد ما. فوضع رومولو المسدس في ظهره، وأمره أن يرفع ذراعيه. وساوره شعور ذلك الوقت أنّ في صورة هذا الفرد شيئاً مألوفاً لديه.

- مالك، يا رومولو!— قال الدوق وهو يتنفّس بشيء من الصعوبة- هذا أنا! لشد ما أفزعتني!

وكان رومولو في حالة شديدة من الاضطراب حتى وجد الدوق نفسه في وضع يقول له:

لست شبحًا من الأشباح. لكنّ الاعتقاد بأني ميت هو خير ما يمكن أن يحدث لي. وإيّاك أن تقول لأحدٍ إنك رأيتني.

فخبّأ رومولو المسدس وتعتع:

- من كان يفكر في هذا، يا سيادة الدوق! أنا هنا لحماية السيدة الدوقة.

وأخذ يشرح له ما جرى في البيت خلال شهر ونصف الشهر، لكن الدوق لم يكن يستمع إليه.

- أنا على علم بذلك كله.

- ذلك أن وضع السيدة ...

وضاع الدوق في ثنايا الدرج صاعداً دون أن يسمع رومولو الذي خرج إلى الحديقة محبطًا جداً. ثم ذهب إلى مسكنه واضطجع من غير أن يخلع ثيابه، وما لبث أن نهض وخرج مرة أخرى. الدوق حيّ إذًا. والمدينة تُهاجم من الجانب الشرقي كلّه بدءاً من المدينة الجامعية حتى تلّ لوس أنخليس، وكانت تبدو هذه الأحداث ترتبط ببعضها برابطة سرية، وكان قصف المدافع يتجلّى في الليل أقرب منه كثيراً.

ودنا من البرج: «أنا على يقين من أن الدوق سينكشف أمره عاجلاً أم آجلاً، ولعلّ الشرطة تلاحقه. فإذا كان كذلك: فلِمَ يجيء هنا؟ ولِمَ يورّط الدوقة معه؟

أيريد أن يجعلها تشاطره الخراب والخسران؟» ودنا من جدران القصر ومن الباب الرئيس محنّي الظهر، ثقيل الحركة، ثم ابتعد مرة أخرى ونظر إلى نوافذ البرج العالية. وقضى الليل متجولاً، متذكراً الدوقة ويحسب أنه يراها عريانة وسط الظلال التي تعكسها الأشجار على زجاج النوافذ الدنيا: «أنا على ثقة بأنّ الدوقة حدّثت زوجها عني، وحكت له ما جرى في الأيام الأخيرة. وقالت له خاصة إني مزّقت الشيك؛ وإني لم أقل لها بوضوح لما فعلت ذلك، لكن الدوق قد يفكر أني مزّقته بدافع العدواة والعصيان، لأني لا أريد أن أحيا على حساب أعدائي». وكان يُسرّ أن يظنّ به الدوق هذا الظن وأشياء أخر. وكان يتسمّع إلى هدير المعركة الذي كان يجعل النوافذ السفلى في مسكنه ترتجّ من حين لآخر بشكل غير مفهوم، لأن الارتجاج كان يحدث أحياناً بفعل الانفجارات الأبعد مكاناً وليس بالانفجارات الأدنى.

سار إلى مخدع عناصر الميليشيا، واستيقظوا جميعاً مذعورين. وحسب إنه تحقّق مرة أخرى بذلك الذعر من خطورة الموقف، فجلس على سرير رويث وقال إنه يبغي معرفة الجرائم التي تُعزى إلى الكونت ألكنادره. واحتجّ رويث مستاء من إيقاظه لمجرد سؤاله شيئاً كهذا السؤال. لكنه لمح على وجه رومولو أمراً غير طبيعي، فغيّر موقفه فوراً، وراح يعدّد جرائمه السياسية والعسكرية.

– ماذا قد يجري له –سأل رومولو– إن تبيّن أنه ما زال حيّاً، وقبض عليه؟ واستوى رويث جالساً:

– سيُعدم بإطلاق الرصاص عليه بعد ثماني ساعات.

وقال لوبِث خافضاً صوته ومساراً:

– أين هو؟

وأوقفهما رومولو عن متابعة السؤال

- لا تسألوني شيئًا. لأني أنا نفسي لا أعلم أين هو هذه اللحظة، لكن، إن حالفني الحظّ فقد أسلّمكموه قبل طلوع النهار.

وخرج إلى الشارع وتجوّل في الأنحاء القريبة دون أن يعتزم دخول سلم البرج خشية أن يراه أحدهم. ولما اقتنع بأن الشارع والنوافذ تخلو من الناس، دخل وكمن عند مطلع السلّم في ذات المكان الذي ربض فيه من قبل. وبينا كان ينتظر حدثت غارة جويّة. وعوت صافرات الإنذار. وكانت الأنوار الكاشفة في جهة أخرى من نافذة عالية يعلوها الغبار، تخطّ السماء التي كانت تشبه نسيجًا خشنًا من الحزم المتحرّكة، وشرعت الرشاشات والمدافع تطلق قذائفها في ذات الوقت. وكان الرصاص الخطّاط يُرى صاعدًا كأنه سُبَح من الأسهم المضيئة. وسُمع صوت مدفع جد قريب حتى خُيل إليه أنه ينطلق من الحديقة ذاتها. لكنه لم يغفل عن مراقبة السلّم، وكان يقول لنفسه: «الآن سيخرج الدوق مغتنمًا فرصة الاضطراب الذي يحدثه القصف». ولما ظهر ورأى رومولو، قال:

- مرحبًا، رومولو، أما تزال هنا؟

وسأل رومولو أيضًا بصوت هادئ:

- ألا ترى أن هذه الزيارات قد تشكل خطرًا على السيدة؟

واقترب الدوق من النافذة ونظر إلى السماء دون أن يجيب. وطلب إلى رومولو أن يخرج إلى الشارع وينظر إن كان يوجد أحد فيما حول المكان. وخرج رومولو. ولما شعر بنفسه وحيدًا مرة أخرى وصوت الدوق يتردّد في مسمعيه، صوت عشيق راضٍ، أسرّ في نفسه: «أنا جبان. الدوق يعرّض نفسه للخطر. وأنا؟ ما الخطر الذي أواجهه؟ أنا جبان. وبجبني سوف أفقد نفسي. لأن أعضاء الميليشيا صاروا متيقّظين لما قلته لهم. وإذا سقطت، ماذا عساه يكون مصير السيدة من دوني؟» وقال أيضًا: «في هذه الأوقات يسقط عشرات

الأشخاص قتلى ليسوا خيراً من الدوق أو أسوأ منه». وقفل راجعاً.

- أمعك، سيدي، سلاح؟

وظنّ الدوق أن شيئًا ما طرأ في الشارع وأخرج مسدسه. فضربه رومولو ضربة على يده، جعلت السلاح يطير في الهواء ويسقط في مكان ما وسط الظلمات. وزأر بصوت مختلف، صوت يرتعد فيه غضب وحشي:

- اخرج أمامي!

وانقضّ الدوق على رومولو الذي تعثّر عند تراجعه بدرجة السلم الأولى وسقط، واقتنص الدوق الفرصة، واستطاع حصر خصمه بين ركبتيه القويتين.

- أخائن في بيتي؟-كان يقول. - كنت أنتظر أن تشنقك شرطتنا، لكني سأمنح نفسي لذة القيام بذلك بذاتي.

وإذْ أحس رومولو بيدي الدوق تضغطان على حلقه، أيقن بالهلاك. وفكر في هدوء غريب: «يجب عليّ أن أقتله». وأطلق النار دون أن يدري إلى أي هدفٍ يسدّد. واخترقت الرصاصة ركبة الدوق. وانتهز رومولو الفرصة التي أتاحتها دهشة الجريح، كيما يتحرّر. وحاول الدوق أن ينهض من غير أن يوفّق إلى ذلك. وزمجر:

- ماذا صنعت، يا مغفّل؟

ودنا منه رومولو وساعده على النهوض. ولما وقف على قدميه دفعه الآخر والمسدس مصوّب إلى ظهره. وقال بلهجة مختلفة، لهجة اختفت منها رائحة العنف «ينبغي للسيد أن يسكت، ويصنع ما أقوله له». وتقدّم الدوق يظلع. وتكلّم رومولو متمتماً:

- اخرج! سوف أسلّمك. وإذا ما حُقّق معك فلا تذكر السيدة أو البرج لأحد.

كان الدوق يجرّ ساقًا. ولما صارا في الشارع قاده إلى باب الحديقة الذي يبعد بضع مئات من الأمتار ثم تجاوزا ناصية شارع. ووقف الدوق والتفت إلى غريمه الذي تراجع خطوة ورفع المسدس إلى مستوى صدر الدوق الذي بذل جهداً كبيراً كيما يُبدي رغبته في سلوك سبيل الصلح.

- رومولو! ...

ولم يستطع أن ينطق بكلمة أخرى، وقد خنق الغضب نيّته. وقبض على ذراعي رومولو مبعداً السلاح عن صدره محاولاً انتزاعه منه. ولكان حصل عليه لو لم يطلق الآخر طلقتين جلبتا انتباه الحارس، ومن ثم أعضاء الميليشيا الآخرين. ولما رآهم الدوق أراد الفرار، لكن جرحه كان يعيقه، فأحاط به عناصر الحراسة.

- أتعلم ما ينتظرك؟

- نعم. ينتظرني ما ينتظرك. أنا أسقط اليوم، وأنتم تسقطون غداً. وقاده أعضاء الميليشيا إلى مديرية الأمن العام. وظل إسترادير وحده في الحديقة. ولمّارآهم رومولو يغيبون جميعًا في أعلى شارع سيغوبيا، عاد إلى دَرَج البرج وبحث حتى عثر على سلاح الدوق. ثم ذهب إلى مسكنه، وكان الليل ما يزال مخيماً. كل ذلك، حدث خلال دقائق معدودات. ووجد زوجه نائمة بهدوء. وخرج مرة أخرى باتجاه البرج. «لقد أدّيت واجبي». كان يفكر بهدوء. كانت الغارة الجويّة انتهت. وصعد الدرج بخطا واثقة. ثم توقّف وجلس على درجة. وأراد تلخيص موقفه قبل أن يقابل الدوقة.

«ما إن تراني الدوقة حتى تخمّن الوضع. فلعلّها سمعت الطلقة في السلّم».

«وسمعت أيضًا طلقتي الشارع، ولا محيد من أن تربطهما بالدوق».

«أحس بثقل عشرين عامًا ينزاح عن كاهلي».

«يزعم أعضاء الميليشيا أن الحرب ستدوم طويلاً».

«قد تدوم أربع سنين أو ستًا».

«أربع سنين في هذه الأوضاع تشكل حياة كاملة».

«سمعت الدوقة الطلقات، وهي بانتظاري. تنتظرني لأنها تحتاج إليّ».

وأحس بسعادة غامرة وتابع صعوده، حتى وصل أخيراً مصطبة تؤدي إلى باب الدهليز. وقرع الباب ودخل من غير أن ينتظر جوابًا. فوجد الدوقة لصق إحدى النوافذ محاولة أن تعرف شيئًا من خلال الحوشكة الخارجية. ولما وقع بصرها عليه سألته بالنظر من غير أن تخفي خوفها من الجواب. وأبطأ حتى أجاب. وقالت هي بشك وخوف.

آمل أن يكون الدوق قد نجا.

وجلس قبل أن يجيبها على مقعد من غير أن يدعوه أحد. ولما استقرّ في جلسته قال وهو ينظر إلى بحر اللوحة الجدارية الأزرق:

- ليس سهلاً على امرئ مصاب بطلقة في ركبته أن يذهب بعيداً جداً.

وكانت الدوقة تنظر إلى ما حولها طائشة اللبّ.

- أو كشفه الحرس؟

- نعم يا سيدتي.

- وهل اقتيد؟

وأكدّ بهزّة من رأسه. وكانت الدوقة في توتّر شديد حتى كانت تبدو حياتها كلها تُلقى خارج جسمها عبر العينين.

- إلى أين اقتيد؟

وشرع رومولو يقول ببطء وبصفاء تام:

اقتيد إلى رئاسة الشرطة. لم يشاؤوا نقله إلى لجنة الحيّ، لأنهم رأوا فيه صيداً ثمينًا. وهذا طبيعي. وبسلامة فهمك.

وأخذت تتكلّم كالمنوّم:

إلى لجنة الحي...

كانت تقول ذلك ممعنة في النظر إلى قاعدة مصباح. وأوضح رومولو:

لا، يا سيدتي. بل إلى رئاسة الشرطة. يقال إن الحكم يصدر عليه خلال ثماني ساعات.

وكانت تنظر إليه دون أن تتكلم. وهو ما كان يقول شيئًا أيضًا. كانت إحدى قدميها تظهر فوق السجادة. كانت قدماً مجتمعة صغيرة كأنها قدم طفل. وكان رومولو يسترجع مشهد عري الدوقة كله انطلاقًا من تلك القدم. وكان لا مندوحة له من أن يشيح ببصره عنها. فقالت بصوت مرتعش:

- لا تلبث هنا، يا رومولو. اعمل على مساعدته. سأعطيك مليونًا. سأعطيك ما تشاء. اتفق ورجال الميليشيا واصنع شيئًا من أجله.

كانت تردّد تلك الكلمات ونظرتها شاردة في الهواء، ومن غير إيمان بأن رومولو يسمعها. ومن غير إيمان أيضًا بما كانت تقول. وتنبّه رومولو إليها وأجابها بلهجة لا مبالية:

لعل السيدة تعلم أني لا أستطيع، ولا أحد آخر غيري يستطيع صنع شيء في ظلّ الظروف الراهنة.

وكانت تنظر مفكّرة: أنّى له مساعدة الدوق؟ ولِمَ هو تحديدًا؟ لِمَ طلبتُ إليه أن يساعد الدوق؟ وما كانت تطيق صبرًا على الصمت. فذلك التوتر الذي تجلّى من قبل في عينيها -توتر من غير إيمان- أخذ ينطفئ الآن. وأصبحت نظرتها غير مضيئة. وكل ضعفها كان يتجلّى في صوتها الذي كان يريد أن يكون متّهمًا وقويًّا لكنه لم يُفلح في شيء سوى أن يكون باهتًا.

- أليس لديك سلاح؟- سألت. — لكنني أعلم أن لك الحق في أن تكون جبانًا سواء بسلاح أم بغير سلاح.

وكان رومولو يبتسم. فإذا كانت الدوقة تعدّه جبانًا، فهو كان له الحق في أن يبتسم في قرارة انتصاره الصعب الخفيّ. لكنه قال:

لربما كنت قُتلت. حياتي لا تهمّني كثيرًا، والسيدة تعلم ذلك. لكنّي أفكر. ولعلّي ذهبت بعيدًا جدًّا في التفكير...

ثم سكت عن الكلام ناظرًا إلى السجادة وإلى السقف.

- ربّما ليس لي حقّ في أن أفكّر في...

ونظر إليها مواجهة. وقال بحزم وتصميم:

فلْتدرك سيدتي: ماذا تصنعين في هذه الظروف من دوني؟

وكانت تنظر إليه باهتمام.

- من دونك؟ لكنّي لا أطيق وجودك. ألا ترى أنّي لا أطيق وجودك؟

ونظر إليها ساخرًا.

- حسن! سأذهب إن رغبت السيدة في ذلك.

لكنه لم يذهب. ودنت هي من النافذة التي كانت مفتوحة مواربة. كانت

السماء أخذت تصحو. وظلّت مكانها صامتة مؤدّية أحيانًا حركات ميكانيكة، فتبعد خصلة شعر عن صدغها. أو تأخذ غرضًا ما وتضعه مرة أخرى. وكانت تـريد بتلك الحركات، أن تخفّف من قلقها الداخلي. وقالت رافعة صوتها على شكل رهيب:

الذنب في ذلك كلّه لا يقع على عاتقك.

وكان رومولو دَهِشًا.

- اهدئي، يا سيدتي. فكري في أن الحرس قد يسمعك.

- ذلك خير لي. فليسمعني. وماذا بوسعي أن أصنع غير أن أصرخ بالحقيقة في كلّ الجهات؟

كانت قرب النافذة، وكانت على أهبّة أن تطلق مزيداً من الأصوات، لمّا دنا منها وكمّ فمها. فاستدارت بحركة احتجاج، فأمسك بها من كتفها. وشدّ بلطف رأسها وجسمها كله إلى جسمه، كابحًا صياحها. ومع ذلك، كان يرغب في أن يسمع تلك الحقيقة التي كانت تريد البوح بها إلى عالم أعدائها من النافذة. وانفصلت عنه الدوقة التي لم تُبدِ استياء. بل كان كل شيء طبيعيًا. فقد أعاد إليها الاحتكاك به هدوءها. أمّا هو فقد شحب لونه. واستأنفت هي كلامها بصوت متوسّط الشدّة، بل هادئ في المظهر.

- اذهب، بحقّ الله، يا رومولو.

ولم يذهب رومولو. وشكر لها قوة طبعها، وخروجها عن مألوف عادتها ثم هدوءها.

- اذهب، ولا تعدْ مرة أخرى!

وقصد رومولو المصعد بهدوء. وطلبه إليه. ولما جاء فتح بابه بحذر ودخل

وقال للدوقة قبل أن يطبقه:

أتريد السيدة أن أجلب لها شيئًا؟

وحسبت أن في تلك الكلمات سخرية، ونظرت إليه بخوف ولم تجب. ولماصارت وحيدة، أخذت تروح وتجيء بين باب السطيحة والمصعد، دون أن تدري ما تصنع حتى وقت متأخر من الصباح. وقع بصرها في أحد الدروج، على رسائل الدوق، رسائل الخطوبة القديمة مربوطة بشرائط زرق. فلم تجرؤ على لمسها. لأنّ لجوءها إلى تلك الرسائل كان بمثابة إقرار بأنها صارت في مصافّ «الأرامل». وشعرت بخوف عميق لمدّة لحظات معدودات. وقالت لنفسها: «أخذت الحياة تتجلّى لعينيّ كما هي. ولم أستطع تخيّلها على هذا الشكل قطّ، أنا خائفة!» ثم شرعت تروح وتجيء متفكّرة: «كلّ ذلك مخيف بإفراط، حتّى أستطيع القبول به على أنه درس. حتى لو لم يكن كذلك، فإن هذه الدروس قد لاتكون ذات فائدة لي. لأنّي ربّما جئت إلى الدنيا لألعب لعبتي. وإنّه قدري أنّ أظلّ ألعبها حتى النهاية. لكنّ في ألعابي دمًا. والآن اصطبغتُ بالدم». وتهاوت على السرير وغطّت في نوم عميق حتى الساعة العاشرة، لما انفجرت قذيفة فوق السطيحة وأحدثت حفرة فيها، وحطّمت أيضًا الجانب الداخلي من الباب الذي يصل المخدع بالسطيحة. فاستيقظت وخرجت فزعة إلى الدهليز. ودنت بعد قليل من السطيحة وقد صارت أكثر طمأنينة. وراحت تنظر إلى كميّة الحطام. وتحقّقت من أن كثيراً من شظايا الحديد نفذت داخل حجرتها ذاتها، وانغرست إحداها في السقف. ولاذت بالدهليز مرة أخرى. فجمعت بعض الأوراق وبعض الثياب، ونزلت السلّم إلى الطابق الأدنى. وتثبّتت من أنّ نوافذ هذه الغرفة مغلقة، وأشعلت الأضواء ناظرة إلى ما حولها خائفة، وحدّثت نفسها: «يبدو أنّ قنبلة السطيحة أُلقيت وانفجرت بإيعاز من رومولو. يبدو أنه هو الذي طردني من تلك الغرف ومع ذلك جئت هذه هاربة ومنتظرة. هاربة منه، وبانتظاره هو».

III

ذهب رومولوإلى الشارع ليرى إن عاد رجال الميليشيا. فلبث مدة يكلّم الحارس ويتبادل معه جملاً غامضة لا معنى لها. ولما أدرك أنّ لا مفرّ له من الانجرار إلى الحديث عن الأحداث الطارئة -(كشف الدوق وتسليمه)- رجع ببطء إلى الحديقة. كان يحسّ بالجوع، فذهب إلى بيته. لكنه ظلّ في عتبة الباب متردّدًا.

اجتاز الحديقة، وتوجّه إلى القصر قاصداً الأقبية دون أن يدري ماذا يصنع هناك. كان كلّما اقترب من قاعة السلاح، حَسِب أنه يقترب من الدوق نفسه. فقد كان يحمله في مخيّلته، بل كان يراه كما رآه من قبل في ظلمات السلّم: «أنا كنت أكلّمه، ولم يكن يجيبني». ثم رأى نفسه أمام الدوقة وسمعها تقول له: «الذنب في ذلك لا يقع على عاتقك، لا». ماذا كانت تعني بذلك؟ أكانت تعلم ما حدث؟ أتدرك إدراكًا تامًا كيف جرى ذلك كله؟

كانت الظلمة هناك أرقّ وأشفّ. وكانت قاعة السلاح راقدة أيضًا في عتمة غامضة متجانسة. وكان المسبح ملآن، والماء هو ماء «ذلك اليوم». وشرع يخلع ثيابه. لكنه لم يخلع سوى السترة والقميص. ورأى جذعه في المرآة حيث كانت الدوقة تتراءى، كان ذلك كأنه (رومولو آخر) يطلّ من قعر نافذة عمياء. ولم تبدُله نيّته في السباحة جادّة. وكان للماء فوق ذلك، هدوء مضيء. وكان خائفًا، وكأنّ

تلك البركة الصغيرة جد عميقة حتى لا يستطيع أي سبّاح بلوغ قعرها بقدميه. ابتعد عن المسبح، وأصاخ السمع لمّا تعالت ضوضاء في الحديقة. فقد كانت كل ضوضاء تباغته بالخطر وتجعله محترساً منذ أن سلّم الدوق. وكان لديه شعور بأنّ أحداثًا غير متوقّعة وربما مخيفة قد تقع بسببٍ مما قام به. وكانت المدافع تدوّي بعيداً. وكان يُسرّ بهذا الشؤم من الدم والنار الذي ينغمسون فيه جميعاً. أشعل مصباحاً كان عند قدم خزانة سلاح. ورأى التمثال والسيف مغروز في صدره. كان للتمثال قامة الدوق المنتصبة المشوقة. أراد أن ينزع السيف، لكنه لمّا جذبه هوى عليه التمثال الذي كان طويلاً جداً. فأفلت السيف، وتراجع خطوة إلى الوراء. فرأى سيفين آخرين على الأرض، فالتقطهما ووضعهما في الخزانة. فوجد على الرف السفلي منها كتابًا صغيراً مجلّداً بالبرشمان، ومطبقًا بدبّوسين من الحديد على شكل الكِمّيْر[1]، وقد نقشت على ظهره أحرف أنيقة جداً تقول: «على خطا الممالك». وكان على صفحة الفصل الأول رسمًا يمثّل رجلاً وامرأة عاريين. وكان غصن صغير يمتدّ فوق بطن الرجل، وشعر المرأة ينسدل على كتفيها ويصل حتى فخذيها بنيّة ستر العورة. كانت الصورة تمثل آدم وحوّاء وعلى وجهيهما الاسترخاء والسذاجة التي تميّز وجوه الصور المحفورة على الخشب.

شاهد رومولو بين صفحتين غصنًا صغيراً من السرخس ما يزال أخضر. ورأى بعض الفقرات المشار إليها بقلم رصاص مع الملاحظة التالية مكتوبة بيد الدوقة: (انظر الصفحة ١٠٣). أطبق الكتاب وأبقاه بين يديه ناظراً إلى الضوء الذي يتسرّب من النوافذ العالية. وقال لنفسه مرّة أخرى:

«والآن، لن يرتاب فيّ أعضاء الميليشيا. وستكون السيدة الدوقة أكثر أمنًا».

---

(١) - كائن خرافي له رأس أسد وجسم شاة وذنب حية.

كان ما يزال عاري الجذع ناظراً إلى ماء المسبح. فدنا وجثا، ثم وقف على أربع بنيّة أن يبلّل وجهه وشعره. لكنه لمّا غرف من الماء غرفة شربها بدلاً من أن يغسل وجهه وعبّ من الماء ثلاث مرات بل أربعًا، بل خمسًا، وارتدى ثيابه وتناول كتاب «على خطا الممالك». ليحمله إلى الدوقة التي كانت ولا ريب تقرؤه (غصن السرخس كان ما يزال غضًّا). وسعى إلى القبو ليرى إيلينا. كان القزم مضطربًا بسبب القصف المدفعي، والطلقات التي سمعها الليلة الفائتة: طلقة مسدس داخل البيت، وطلقتان أخريان في الشارع. وقال إيلينا الذي احمرّت عيناه كأنهما عينا نمس:

- القتال يجري في كل الجهات: في الحديقة وفي الشارع وفي الريف وفي الهواء، وفي القبو. في القبو أيضًا.

- أهنا في القبو؟-سأل رومولو.

- نعم، هنا أيضًا.

- كيف؟- قال رومولو ناظراً فيما حوله.

- يوجد جرذ يتحدّاني.

- أو تقاتله؟!

- نعم.

- وكيف؟

- بالأظافر والأسنان وبالرفس والعضّ.

فقطّب رومولو حاجبيه:

- وهل الجرذ كبير جدًا؟

- أكبر من قطّين مخصيّين. وهو جريء. تعال يا سيد.

وقاده إلى قرب باب المستودع المبطن بالزنك. كانت توجد على الجدار آثار حكّ وحتّ، وكومة صغيرة من الكلس على الأرض. وقال القزم:

- هذا من صنع بَسكوالا.

وأضاف بتنازل كبير عن غروره.

- حسن! هكذا سمّيتها.

وقال رومولو ناظراً إلى الآثار التي خلّفتها.

- نعم. ربما كانت كبيرة.

ثم قاده إلى جانب آخر من الباب وأراه حفرة صغيرة.

- ألا ترى فُتات الإسمنت؟ لقد استطاعت الحفر تحته حتى بلغت التراب. أرادت أن تصنع سرداباً لتصل المستودع. هي عمليات جميلة. ما رأيك؟

- هكذا تبدو.

- أخصّ منهما بسكوالا. الجرذ الآخر العامل هنا أضعف منها؛ وفوق ذلك كُسر مخلبان من مخالبه. لكنه جريء جداً. هو ذكرها وأسميّه بارّينو.

ما كان رومولو يدري ماذا يقول. وكان ينظر إلى إيلينا، وإلى الصلبان المعقوفة المنقوشة على الجدران هنا وهناك.

- وهذا ماذا يعني؟

- موجّهة لليهود.

وما كانت كلمة «يهودي» تشير في ذهن رومولو إلى عِرق، أو حتى إلى دين. بل كانت تبدو مرادفه لكلمة (مرابٍ).

- لكن، لا يوجد يهود حقيقيون.

- أحقًا؟

- على الأقلّ في إسبانية.

- أليس لدينا منهم؟ حسن! إذاً أفعل ذلك لئلا يأتوا. أنا من أنصار عدم مجيئهم.

ظل رومولو على جهله. لكنه أدرك أن من حقّ كائن مثل إيلينا أن يقول أموراً ناشزة. وردّد القزم.

- انقل ذلك إلى سيادتيهما.

وسار رومولو باتجاه الحديقة. وقصد مغارس أزهار الخريف، فوجدها ملأى ببراعم خضر ما تزال مطبقة، فدنا منها ونظر إليها باهتمام. وقال في نفسه: «ستتفتّح هذه الورود بين عشيّة وضحاها. وستكون كلّها إمّا بيضاً أوصفراً». وكان يُسر بهذه الأفكار بعد ذلك المشهد مع القزم. «أمّا وأنها لمّا تتفتّح، فإنّ أحداً لم يرها. فإذا قصصتها الآن وأخرجتها من هنا، فلن يلتفت إلى ذلك أحد حتّى لو تجاوزت ثماني دستات». وأخرج سكينه وراح يقصّها تاركاً لها سوقاً طويلة جداً. وصرّها بعد أن فرغ من قصّها، بقطعة قماش بالية كان بلّلها من قبل حتى تشرّبت بالماء جيّداً. ثم وضعها تحت صنبور يقطر منه ماء بارد. وكان الماء وسيقان الورد المقطوعة هشّة هشاشية تبعث على الشجى. وربما كان (للبتلات) التي ما تزال ملفوفة بالكأس الأخضر نقاء بطن الدوقة. وفكر: «أنا على يقين من أن الدوقة صحت من جنون اللحظة الأولى. وسوف تتآلف وفكرة موت الدوق». ثم تبسّم. وقال في سرّه: غداً ستبلغ الزهور تمام نضجها. بعضها سيتفتّح جزئياً، وبعضها الآخر كلياً؛ وسوف يحملها إلى الدوقة التي ربما استطاع أن يكلّمها بغياب الزائر الليلي. أمر لم ينوِ القيام به حتى ذلك الحين. وسوف يحمل البراعم ليلاً إلى المصعد، ويضعها هناك في إناء من الماء تحاشياً لعيون عناصر الميليشيا. وماعليه في اليوم التالي غير أن يصعد بها. ولسوف يملأ حجرات الدوقة بالزهور. وله الحق في أن يقوم بذلك -كان يقول. - كما كان له الحقّ في أن يمنع الدوقة من الصراخ. كان

يريد أن يطلب إليها أن تقول له الحقيقة على انفراد لا أن تصيح بها صياحًا من النافذة. فهي بعدما حدث، بعد أن سلّمت الدوق، ستشكّل في يوم ربّما كان قريبًا خطرًا فادحًا عليّ».

وكان يُسر بذلك الخطر وراح يتذكّر زيارته الأخيرة للدوقة. «لمّا دخلت كانت تنظر من النافذة». ماذا كان بوسعها أن ترى من النافذة غير ظلمات الليل؟لكن الطلقات كانت أضاءت ظلمة الحديقة: «أنا كنت أروح وأجيء خلال تلك الظلمات. وهي كانت على علم بذلك؛ كانت تفكّر فيّ ناظرة إلى تلك الظلمات. وأنا سأضع غداً أزاهير وسط تلك الظلمات». كان يستمع إلى الماء الذي يسقط بضوضاء لطيفة فوق الأزهار، كضوضاء الينابيع أيّام طفولته. «هي كانت تريد أن يخرج الدوق سالمًا. سالم؟ ومن هو سالم في هذا العالم؟ كانت تعلم أن يديّ دفعتا به إلى ساحة الإعدام حيث كان هدفًا لرصاص الجنود. وهي ذات اليد التي ضمّت بعدئذ جسمها إلى جسمي. وأن هذه اليد مستعدّة لكل شيء حتى تبلغ أن تقبّلها الدوقة ذات يوم هي تعلم ذلك كله». وتحقّق من أنّ مدخنة المراجل لا تطلق نفثة من دخان. «قالت إنها ستعطينني مليونًا ستعطينني ما أشاء، ما أشاء». ورأى ضبًّا كان يصعد حجارة الجدار، كان الضبّ يسير شيئًا يسيرًا، ثم يقف، ثم يستأنف سيره. وكان يبدو عليه أنه يتنصّت أيضًا إلى قصف المدافع. فيشك قليلاً قبل أن يمضي قُدُمًا مرة أخرى. أماالعصافير فقد اختفت، انصرفت جميعًا منذ أيام معركة مدريد الأولى. «قالت لي الدوقة إن لديّ سلاحًا، وسألت: لِمَ لم أستعمله. لعلّها بسبب ذلك، لا تحتمل وجودي. لكني أعلم أنها أصبحت لا تسمع لي فحسب، وإنّما تكلّمني وتسلّم أمرها لي، وتريد أن تهتف بالحقيقة، حقيقة أعرفها، لأنّ حقيقتها ليست مما يُهتف به هتافًا، أو يُقال قولاً، وإنّما يُرى رؤية. فما إن تقع عيناي عليها حتى أرى حقيقتها كلّها».

وكان يشعر بالوحدة في ذلك المكان الهادئ، وأردف والنسيم البارد يداعب وجهه: «ستفتّتح الأزاهير عمّا قريب في البرج تحت نظر السيدة وبصرها». كان رومولو درس على طريقته عادات الزهر . وكان يحسب أنه توصّل إلى معرفتها وإقامة علاقة حوارية معها. وأولى المفاجآت التي لاحظها على الأزهار تنبّهه إلى أنها تتحرك أحيانًا، وهي ليست حركة النموّ والتفتّح التي تتعلّق بالشمس والماء والربيع أو الخريف. لكنّ لها حركات أخر تبدو أنها تستجيب لإرادة داخلية. وقضى ساعات وساعات يتأمّل مغرسًا حافلاً بأزهار (الكَلاَ) التي كانت تدخل في أقماعها نحلة أو نُعرة. بعض هذه الحشرات كان كبيرًا أحيانًا، وله مظهر مخمليّ ومزدان بترف آسيوي، ويتحرك بشيء من وقار ديني. ولقد رأى إحدى هذه النُعر تدخل ببطء جوف إحدى الأزهار كما يدخل الملك حجرته. ولما صارت داخلها لاحظ كيف أن إحدى أسدية الزهرة تحرّكت إلى تحت ولامست ظهر النعرة مخلّفة بقعة صفراء فيه. وقد جعلت تلك الحركة من الزهرة رومولو في حيرة.

لا يمكن تخيّل شيء في حياة البشر يفوق جمال دخول إحدى تلك الحشرات جوف زهرة مانغوليا أو «رأس التنّين» شبه متفتّحتين. لأنّ ذلك الدخول المُصاحب بلذّة اللمس والرؤية والشمّ والذوق ممتزجة في إحساس واحد، شيء لا يمكن للمرء أن يعرفه. وإنّما حسبّه أن يحسّ به إحساسًا. ولطالما لقّح بيده زهرة أنثى آخذًا الطلع من أسدية مذكّرة. « لأن كل شيء -حسب قوله- يريد بل يجب أن يصل غايته». وكان يبدو له أن ترك التلقيح للريح وللحشرات فقط أمر غير مضمون كثيرًا وخاضع للمصادفة.

لما خرج مرة أخرى إلى الحديقة انتابه شعور بأنها ملكه، فهو يعرف منذ أعوام بعيدة أولى نجمة تطلع في الخريف مساء من فوق أعلى شجرة باتجاه ركن المغاسل، ثم تغيب كل صباح من خلف بيته (والآن من خلف الراية الجمهورية). وهذا دأبها حتى أواسط تشرين الثاني. أما الشمس فعلى العكس من ذلك، تطلع كل يوم من

فوق الجدار بين صفوف الأبنية البعيدة التي تضيع باتجاه ساحة بروغريسو. فإذا لم يرجع أعضاء الميليشيا، وظلّ هو مع تلك النعم، ومع الدوقة، فلربما أحس بنفسه أنه مثل تلك النعر التي تدخل جوف المانغوليا ببطء.

لكن رجال الميليشيا عادوا مصطحبين خمسة أشخاص آخرين: ضابطين وثلاثة رقباء. وتقدّمهم رويث شارحًا:

سيُقيمون هنا مكتبًا للتجنيد، ومركزَ تدريب للوحدات المضادّة للدروع.

وسأل رومولو خائفًا:

كم رجلاً؟

لكنّ رويث لم يجبه. وإذْ رأى هؤلاء الناس يروحون ويجيئون ساوره شعور مفاجئ بأن الدوقة هالكة. أحد الضابطين يُدعى أوردونييث، والآخر أوريارته. وكان الامتعاض باديًا على وجه هذا الأخير دائمًا. لكنه إذا تكلم، تكلم بودّ وتهذيب. ولمّح رومولو إلى أن الفحم نضب، وأن البيت من غير تدفئة بارد جداً في الشتاء. «إذا لم نجد فحماً، فلن نعدم على الأقلّ حطبًا». قال أوردونييث ضاحكًا:

لم يشاؤوا زيارة القصر فوراً، بل آثروا التريّث. وقال أوردونييث:

سنجلب فرشًا وأغطية لمئة رجل.. وسنبدأ العمل غداً.

وأردف موجّهًا الكلام إلى رومولو.

وأنت، لا تكن كريه الوجه عابسًا!

كان الأمر يتعلّق بتنظيمين مختلفين: فتح مكتب يقصده المتطوّعون الذين يُسيّرون في اليوم ذاته إلى إحدى الثكنات حيث يتلقّون تعليمهم. وبكتيبة مضادّة للدروع ستقطن القاعات السفلى من القصر. وعرض رومولو بيته ذاته ليكون

مكتبًا للتطوّع محاولاً إبعاد الناس عن البرج ما استطاع. وقد وجد أوردونييث ذلك العرض ملائمًا لوجود البيت قرب باب الحديقة. ثم طلب أن يزور القصر. وطافا بأرجاء البناء. ولما وصل الملازم أوردونييث الطابق الثالث دخل سلالم البرج. وكبح رومولو أعصابه بعنف. ومرّ الضابط من أمام الشقة في الطابق الرابع حيث تقطن الدوقة، وتابع طريقه صاعداً حتى وصل الطابق الأخير ودخله. وتبعه رومولو ويده على المسدس قائلاً لنفسه: «ما إن يقع بصره على الدوقة حتى أقتله». وما كان يعلم أن الدوقة انتقلت إلى الطابق الأدنى. لذلك لم يجدها في الممشى ولا على السطيحة. فخبأ المسدس بيد مرتعدة دون أن يفلته: «أتكون في الحمّام؟» والتقط الضابط من فوق السطيحة قمع قذيفة. وقال: «هي قذيفة من عيار عشرة». ونظر بعدئذ إلى الأمكنة التي تشرف عليها السطيحة. ورجع دون أن ينبس بكلمة أخرى. وتبعه رومولو الذي كان ما يزال يمسك بالمسدس في جيب سترته، ومرّا مرة أخرى قبالة باب الطابق الرابع. وكان رومولو يفكر: «عجيب ألا تكون الدوقة فوق! إذا كانت في الحمّام فهي لا تعلم أنها باختبائها قد أنقذت حياة هذا الضابط». وما كان يستطيع أن يستوعب كيف انفجرت قنبلة فوق السطيحة من غير أن يدري بها. كلّ ذلك كان محالاً ولا يقبل التصديق. وكان أوريارته ينتظرهما تحت لإتمام تجهيز مكاتب التطوّع، حتى إذا جاء الليل كان كل شيء منجزاً. وفي اليوم التالي أذاعت الإذاعة أن ذلك المكتب هو المركز ١٧ لتعبئة متطوّعي الحيّ.

واستطاع رومولو، على الرغم من ذلك كله، أن يجد فرصة سانحة للذهاب إلى المغاسل وقطف الزهور ونقلها إلى المصعد حيث تركها من غير أن يراه أحد. كانت إقامة الضابطين الآن قريبًا، وإيواء الجنود الذين قد يصلون غداً، يجعل جناح البناء الأيمن حرّاً إلى حدّ ما. ولاحظ رومولو أن هؤلاء ينوون استعمال الأبواب الجانبية الصغرى في الجانب الأيسر (جانب المطابخ، وغرفة معيشة الخدم والمستودعات) مبقين على الباب الرئيس مغلقًا، لأنهم إذا تعوّدوا استعمال

الباب الرئيس فسوف يتحوّل البيت إلى ثلاّجة في الشتاء، على حدّ قول أوردينييث.

أحبّ رومولو أن يصعد البرج لينقل إلى الدوقة خبر مصرع الدوق. فصعد وانتظر ونادى من عند السلّم. ثم نزل الطابق الأدنى راكضاً. فوجدها في الممشى مرتدية معطفاً جلدياً قصيراً فوق المنامة.

كانت الحجرات هنا طبق الحجرات في الطابق الأعلى، خلاف الديكور، ووجود غرفة أخرى تشغل مكان السطيحة فوق. وكان سقفها تصدّع بفعل الانفجار. كان رومولو يلهث لأنه صعد الطوابق ونزلها راكضاً. وردّد:

- آها! إذاً، أنتِ هنا!

وقالت في سرّها: «ولمّا لم يجدني فوق، حسب أني هربت». ولحظ الكتابين اللذين كان أخرجهما من المكتبة، فوق الطاولة. وكان يرى الصور الخليعة عبر غلاف أحدهما. فوضع إلى جانبهما كتاب «على خطا الممالك» الذي كان يحمله في جيبه. وكانت لوحة قماشية لغويا ذات ألوان صفر حيّة جداً تشغل ذات المكان الذي كانت تشغله اللوحة البحرية في الطابق الأعلى. ولم يُعجب بها رومولو قطّ. ومع ذلك، لم تفقد الدوقة هدوءها أمامه على شعورها بأنّ كارثة تحيق بها. وقال مبدياً دهشته على شكل فظّ:

- آه، ولديك هاتف أيضاً!

وسألته الدوقة بصوت أجشّ مشيحة بنظرها إلى جهة أخرى.

- هل هناك من خبر؟

ونظر إليها بإمعان. كل ما كان يعلمه أن الدوق أُعدم بإطلاق الرصاص عليه. وأجاب:

نعم. لقد فارق الحياة.

وفطِن إلى أنه يجب عليه أن يقول شيئًا آخر، فأعقب

- لسوء الحظّ!

ولم يكن ذلك كافيًا فحسب نفسه مضطراً إلى متابعة الكلام. وقال: سقف غرفة القاع متصدّع، وسوف ينسكب منه الماء إذا أمطرت السماء. ولئن كانت الدوقة لا تشغل هذه الغرفة، بل اتخذت الغرفة الأمامية مخدعًا، فربما لم يكن من السلامة أن يَكِف السقف جدّ قريب منها. فإذا شاءت السيدة -ختم بالقول- يمكنها أن تنزل الطابقَ الثالث.

لم تجبه، بل كانت تنظر إلى الهواء الرمادي الذي يطفو قرب النافذة. وكان النهار حزينًا، والمدينة توحي بأنها مهجورة. وكانت الانفجارات تدوّي في الشوارع الخالية، والمدافع تقصف حتّى أمسى الخروج إلى الشارع مغامرة خطرة، والبقاء في البيت أيضًا غير مأمون. وكانت تمرّ من حين لآخر عربة محمّلة بالجنود بسرعة جنونية. وكانت الضوضاء تختلط ببعضها. فما كان يُميّز صوت درّاجة من أزيز رشّاش. وما كان يُعلم إن كان انفجار قريب قنبلة معادية، أو طلقة أطلقتها إحدى البطاريات المقامة في الساحات والعرصات.

لقيت الدوقة اللوحة الفرنسية ذات الهيكل الجميل مرة أخرى. فقالت لرومولو: «خذها بحقّ الله إلى حيث لا أراها». فطلب هذا المصعد ودخله واللوحة التي وضعها على الأرضية مستندة إلى أسفل الجدار. ورأى الأزهار شبه متفتّحة. وكانت البراعم تطلق رائحة تبعث على الشهوة. فأخذها وعاد بها إلى حيث الدوقة. وكان حزن رومولو الزائف يذكّر من فوق باقة الزهور، بجديّة البهلوانيين السمجة.

- هناك أخبار أخر، يا سيدتي. لسوء الحظّ، اقتحمت الميليشيا البيت.

وكانت الدوقة تنظر من غير أن «تنظر إلى أيّ مكان». وفكر وهو ينظر إليها من جانب أنّ في نظرتها لا مبالاة مفرطة حتى لا تبدو نظرة حقيقية. وسرد عليها ما جرى في الحديقة. وطلب منها إذنًا في أن ينتقل وزوجه للإقامة في إحدى غرف القبو، ووافقت من غير أن تسمع. وأضاف: «استطعت حصر العسكريين في الطابق الأرضي بصعوبة». ولئن عرض الموقف بألوان قاتمة فلم يخبرها بأنّ الملازم صعد حتى السطيحة، وبيّن أنه في حالة استفحال الخطر، إن استفحل فعلاً، فسوف ينذرها قبل وقت ملائم، كيما تتخذ قراراً. وكان ما يزال واقفًا والأزهار بين ذراعيه؛ وما كان يبدو على الدوقة أنها تراه. فوضعها في الحمّام وعاد إلى القاعة، وقالت متلعثمة:

- رومولو، أريد الخروج من هنا.

- سيدتي: صارت الحياة في المدينة مختلفة. كل شيء فيها تبدّل. ولا يمكنك أن تخطي خطوة واحدة من غير أوراق رسمية.

وكانت تلمح فيما وراء كلماته، أيًّا كانت، لذّة خفيّة، وفطنت إلى أنه لن يصنع شيئًا ليعينها على الخروج. وحانت منها نظرة إلى قاع المصعد المفتوح فوجدت الهيكل العظمي اللطيف خارجًا من الحفلة الراقصة.

- بحق الله، أغلق هذا الباب.

فأطاعها، وعاد بعد قليل. فأصدرت له أمرًا آخر.

- انظر إلى هذه النافذة. أحسبها لا تنطبق جيّدًا.

فرأى في النافذة مصباحًا كاشفًا قويًّا، من تلك المصابيح التي كانت تُشعل ليالي الحفلات المترفة لإضاءة الحديقة. ولم تكن تُشعل بهدف تزييني فقط وإنما كانت تتطلّبه أنظمة حماية الملك. ولاحظ رومولو أنّ ما لا ينطبق في النافذة، كانت

ألواح الخشب الخارجية. أمّا الألواح الزجاجيّة فكانت تنطبق بسهولة، وبإسدال الستائر يتحقّق الأمان تمامًا. وكان يتتبّع بنظرته عيني الدوقة اللتين استقرّتا على منضدة جدارية، على رخام المنضدة الأبيض الذي كان يتوسّطُه غرض من الصدف والذهب والفولاذ: إنّه مسدس الدوقة. وفكر: «إنها تفكّر في الانتحار». ولم يدرك أن امرأة من أضرابها لا تفكر في الانتحار حزنًا على رجل كالدوق. وتقدّم بوقار وأخذ السلاح واحتفظ به في جيبه.

- ولِمَ تأخذه مني؟- سألت.

أخرجه رومولو مرة أخرى ووضعه حيث كان. وألحّت الدوقة.

- إذا نزعت هذا السلاح منّي فسوف أشعر بأنّي محتجزة. وأنا لست محتجزة، وإنما مختبئة.

وسألت إن كان يعلم شيئًا عن الدقائق الأخيرة في حياة الدوق متظاهرة بأنها تردّدت كثيراً في طرح السؤال. وفكر رومولو: «كان سليماً في هذه اللحظات الأخيرة».

- لا، يا سيدتي. لا أعلم شيئًا. لا أعلم شيئًا آخر سوى أنه أعدم.

ولزما الصمت كلاهما. وكانت فراشة صغيرة، وربما عثّة تطفو في محيط المصباح المضاء، وكان يُسمع دويّ المدافع خارج البناء. وكانت الدوقة تحس بعطف يهدّد بأن ينقلب إلى نحيب كبتته، وتحاشته طويلاً حتى شرعت تضحك، وفتح رومولو عينيه فزعًا. واستمرّت الدوقة في ضحكها، وكانت تردّد لنفسها بين لحظة وأخرى: «لا! لا!» وألحّت على ضرورة خروجها من البيت ومن مدريد ومن إسبانية كلها. وقال رومولو:

-ربما استطاعت السيدة بوساطتي أن تصل إلى حدود بلد ما: إلى البرتغال إلى فرنسا.

- ربما! - أجابت حالمة.

- بإمكان السيدة الاعتماد عليّ.

- عليك؟

وبدا على السيدة مع ذلك، أنها تحسب أوجه الربح والخسارة.

وقالت أخيراً:

لا يثقون بك.

- أحسب أنهم صاروا يثقون بي الآن.

وراحت الدوقة تحلّل كلمة (الآن)، ووفّقت إلى أن تعطيها المعنى ذاته.

وأخبرها أنه قطع الهاتف وسوف يرفع الأسلاك المرئية من الأمكنة البعيدة عن البناء، وأردف: وإذْ صارت السيدة الآن، من غير هاتف، وبالتالي لا تستطيع أن تطلبني، أستطيع إذًا، أن آتيها كل ساعة من نهار أو ليل دون أن تدعوني». فلم تجبه على ذلك، وكان هو أشعل ضوء مصباح الجيب ولبث لحظة ينظر إلى لوحة غويا، مفكّراً: «تحت ضوء مصباحي الأصفر، هذا الحقل ليس حقلاً، ومع ذلك هو حقل يبدو مغموراً بالشمس». وظلّ يسلّط الضوءعلى اللوحة. كانت الدوقة صامتة، وحسب رومولو أن من واجبه أن يُعذر نفسه مسبقًا:

- وإذْ لا تستطيع السيدة أن تدعوني الآن...

وبدا عليها أنها استيقظت من حلم.

- حسن جدًا! لكن لا تأتني ليلاً بعد الحادية عشرة.

ما انفكّ رومولو ينظر إلى لوحة الجدار قائلاً في نفسه: «بضوء مصباحي غُمر الحقل بالشمس، لكنها شمس ذات لونٍ أصفر حلو، مثل لون العاصفة». وكان سعيداً بالمفاجأة -كانت الدوقة تنظر إليه وتكلّمه كما تكلّم صديقًا. لكنه

فكر: «صارت الدوقة أكثر طمأنينة وثقة، لأنّ المعركة حمي وطيسها. ويبدو أن كلّ شيء سيبلغ غايته هذه الليلة أو غداً». وحسب نفسه مرغماً على قول شيء يعاكس هذه الآمال:

- ستطول المعركة، يا سيدتي.

- أهذا قول الجنود؟-سألت ثم أردفت بهدوء لم يفهم مغزاه. -أنا أحسب أنها ستحسم خلال أيام.

- أتنتهي الحرب خلال أيام؟

فقالت ناظرة إليه نظرة مألوفة على شكل مشؤوم:

على الأقل ستسقط مدريد.

لم يشأ القبول بثقة الدوقة الودّية تقريباً، والقاتمة المرّة أيضاً، وفكر: «لعلّها تعلم أنّ لي يداً في موت الدوق وتتسامح بكل شيء تحسّباً لقتلي ذات يوم». وقال:

بعد سقوطها سأسلّمك رأسي.

ونظرت إليه محاولة التحقّق مما في ذلك الرأس الذي كان يعدّه رومولو قد قُطع وانتهى أمره. وقال محاولاً جسّ النبض:

إذا دخل أصدقاؤك مدريد، أحسب أنهم سيعتقلونني ويزجّون بي في السجن.

وحاولت هي أيضاً أن تختبره.

- ولِمَ؟

- لأني حزتُ على ثقة الحمر.

ظل ينظر إلى عينيها فلم يجد فيهما سوى نوع من الثقة الباردة. وسأل:

ألن تتولّى السيدة أمر الدفاع عني؟

فلم تجب بشيء. ومدّ رومولو الذي كان جالساً ساقيه فوق السجّادة. وأضاف:

- أو تسلمينني إلى يد الجلاد؟

وأبطأت في الإجابة إلا أنها قالت أخيراً:

إذا حدث ذلك، إن حدث حقًا، ننظر في الأمر.

وقالت بعيد ذلك كما تقول في مرات كثيرة، وقبل أن يستأنف رومولو كلامه:

تأخر الوقت، يا رومولو.

وطوى رومولو ساقيه ولم ينهض، بل على العكس من ذلك، قال:

لن أذهب. أنا بحاجة إلى الكلام، ولأن أعرف أنك تستمعين إليّ.

وامتقع لونها:

- تكلّم إن شئت. فإذا كنت لا أملك الجرأة على أن أرميَ بنفسي من النافذة، فلا مفرّ لي من أن أتحمّلك وأستمع إليك.

وبدأ:

- جئت هذه الليلة فقط لأرى إن كنت هادئة. وها أنا أرى العكس. أرى أنك لستِ هادئة وإني آسف لذلك. ليتني أستطيع أن أمنحك راحة بالي في مقابل...

وبسط ساقيه مرة أخرى. تلك حركة كانت توحي بالتملّك والسيادة.

- وجئت أيضًا، كما قلت لك، لأني أحسّ بالحاجة إلى رؤيتك والاستماع إليك. الخطر ينمو كل يوم وإن لم نرغبْ في الكلام عنه. قد تكون هذه الليلة نهاية

المطاف. ليس لأن العدو سيدخل البلد، ليس ذاك. كلّ يوم تحصّن المدينة نفسها على شكل أفضل.

قال ذلك دون أدنى إيمان بأنها ستصدقه. لكن المدفعية ما تزال تقصف والطائرات تغير من حينٍ لآخر.

وقالت:

- أعلم ذلك. أعلمه كما تعلمه أنت. كما يعلمه كل الناس. وهذا لاأهميّة له.

لم يُعجب رومولو بهذا الردّ.

- أوقد تسقط المدينة. فإذا كانت بطاريات المدفعية تزيد عدداً في هذا الجانب، فهي تزيد أيضاً في الجانب الآخر. هؤلاء (وأشار إلى الجهة التي يأتي منها دوي المدافع) -هؤلاء قد يدخلون المدينة، في ظنّ السيدة أنهم سيقتلونني إذا ماسقطت مدريد. وأنا لا أرى أهميّة لذلك. ولِمَ تكون لحياتي أهمية تفوق أهميّة حياة الدوق والدوقة؟ إن أرادت السيدة دماري، فإني سأسعى إليه حقّاً، لأن السيدة أرادت ذلك، وإني سأظل امرأً سعيداً. وقد تقول سيدتي: ولِمَ ذاك؟ وماذا عساني أقول إن كانت هي تعلم عنّي كما أعلم عن نفسي؟

وما كانت تستطيع صبراً عليه. لكنها تكلّمت بهدوء.

- هذا حق، وإني أعلم كما تعلم. أعلم أنك مجرم. وأنك قاتل. فانصرف.

ورفض بحركة من رأسه: «لا، لن أنصرف». بكلمات الدوقة صار كل شيء أشفّ وأسهل. هي أفصحت عن نفسها، لكنه هو لم يعترف بشيء وإن كان يشعر بفرح يسير. مع ذلك، كان ينظر إلى باب المخدع بحذر، ثم يرجع النظر إلى اللوحة القماشية. وكانت اللوحة تشبه نافذة أيضاً. وكان يُخيل إليه عند تسليط الضوء عليها أنه يطلّ على وادٍ أظلم عند انطفاء آخر ضوء من أضواء المساء. وكانت

الانفجارات القريبة والبعيدة تبدو منطلقة من آفاق غير حقيقية، هي آفاق ذلك الوادي الذي يُرى في اللوحة.

كان الهواء في البرج باردًا جدًا، حتى كان يبدو أنه انعقد على شكل قطن أصفر حول المصابيح. - وفكر رومولو بالمراجل - وقال:

- الأشياء ليست كما تبدو.

تلك الجملة لم تكن تورّطه في شيء بعد اتهامات الدوقة له. وأضاف:

- الحرب والنار والدم: ماذا يعنينا منها، أنت وأنا؟

وسُمعت انفجارات قريبة. وكان ينظر إلى اللوحة ويرى الأفق الواطئ الذي يشبه آفاق قشتالة. ولربّما وُفّق الدوق في الجانب الآخر من ذلك الأفق. وقال مشيرًا إلى النوافذ:

- هناك في الخارج، تجري أمور لا يرغب أحد فيها ولا يستطيع أن يفهمها. وماذا يعنيني أنا مما يحدث؟ الحياة! وما الحياة؟ الحرب، والدم! وما هما أيضًا؟ لن أقول إني غير آسف. لكني، على الرغم من كل ذلك، شققت طريقي، شققت طريقًا جديدة، يا سيدتي.

واشتطّ في حديثه:

- لن أقول ما هي طريقي وتستطيع السيدة أن تقول لنفسها إن شاءت، لأن امرأة من طرازها تستطيع أن تبلغ بخيالها كل شيء. وأنا أرى ذلك كل يوم بوضوح أشدّ. لبثت أربعين عامًا منهمكًا في فهم كل الأمور التي تجري خارج ذاتي، وأن أبني سلوكي بتعقّل. كل يوم، كنت أقول عشر مرات: نعم، في حين كنت أفكر في قول: لا. هذي هي حماقتي الكبرى، أو جريمتي الكبرى.

وكان يُسمع دوي المدافع. فأضاف:

- وحماقة أو جريمة كل هؤلاء الذين يطلقون المدافع الآن، أو يتلقّون قصف الجهة المعادية. أليس كذلك؟

وكانت الدوقة تلوذ بالصمت.

- لا أدري ماذا كانت حياة هؤلاء الناس جميعًا. لكن، يمكن تخمينها من خلال ما يصنعونه الآن، يلاحظ أنهم يعوّضون عن امتثاليّتهم الزائفة خلال سنين طوال، وإنّ مقدار ما ينبغي لهم تعويضه كبير جداً حتى اضطرّوا إلى القيام به على هذا الشكل: بقوة المدافع، وقوّة الحراب، وبالدم وبالنار.

وكانت تقول الدوقة في سرّها وهي تسمعه: «هو مجرم. لكنّ فيه شيئًا من البراءة. وإني مسؤولة عن موت الدوق كما هو مسؤول. ومع ذلك، أنا بريئة في آن واحد كما هو بريء أيضًا. لكن، إذا كنّا جميعًا أبرياء فمن أين تأتي الجريمة؟ من يقترفها، وأين ولأي شيء؟» وكانت تنظر بحنق إلى رومولو الذي تابع كلامه:

- كان لديّ كثير من الأفكار كنت أعدّها في شبابي مجنونة وبعيدة عنّي لكنها كانت تعود إليّ ليلاً. ثم كفّت عن المجيء ذات يوم لفرط ما أرغمتها على السكوت، وهكذا مضت الأعوام. كم عامًا؟ خمسة عشر؟ عشرون؟

ما كانت الدوقة تنظر إليه، لكنها كانت تسمعه وتفكر: «أخذ رومولو الحياة بجدّ، بينا أنا ألعب بها لعبًا. لكن الحياة ليست ما يأخذه رومولو بجدّ، ولاهي أيضًا ما ألعب به ساخرة».

وأردف:

- الآن، صرت أعلم أن تلك الأفكار المجنونة هي الوحيدة التي تتمتّع بقيمة حقيقية، لأنها لا تولد في الرأس وإنما في الدم.

- أية أفكار، يا رومولو؟

آه! إذًا هي تصغي إليه، وتسأله إن لم يكن بدافع الصداقة، فبدافع الحذر. كانت تصغي إليه ولم تقل له أن ينصرف.

- ليس من السهل شرحها، لكني أراها بوضوح. إذا زاد البشر تعاسة، فإنّهم يتطلّعون إلى السماء وهم يعضّون على النواجذ غضباً، أو تفيض عيونهم دمعاً. وماذا يرى الناس؟ القبة الزرقاء في النهار، والنجوم في الليل. النجوم! أتسمعين ياسيدتي؟ وإذا نظر الناس إلى النجوم، يفكرون في الخروج مما هم فيه للذهاب إلى عالم حيث الأشياء خير ومختلفة. لكن، أتدري السيدة ما أقول؟ أقول إن هذه النجوم التي نراها مأهولة أيضاً، وإن الناس فيها يرفعون رؤوسهم أيضاً، وينظرون أحياناً إلى السماء كما ننظر نحن. ويتطلّعون إلى هنا، إلى هذا الكوكب الذي نعيش فوقه، ويحلمون بأن كل شيء كامل هنا. أو على الأقلّ أجمل مما عندهم كثيراً جداً.

وقالت الدوقة: «يا إلهي!» حتى اشتبه على رومولو، لأنه ما كان يدري إن كانت الصيحة ناجمة عن نفاد الصبر والقلق، أم انفعالاً بما كانت تسمعه.

- هؤلاء الناس الذين يحلمون بنا على صواب، ما يجري هنا، وما يتم الآن لأننا نحمله في دمنا، وما نحاول تعويضه هو عين ما يحلمون به. وما يحيط بنا جد جميل كما يحسبونه.

وسُمع قصف المدافع قريباً مرة أخرى. فقالت الدوقة ساخرة:

- وهذا جميل أيضاً؟ والحرب كذلك؟ والموت مثلها؟

تردّد قبل أن يتابع، لكنه قال وقد أسدل جفنيه فوق عينيه حتى بدا أنه أطبقهما فوقهما:

-الناس في هذه العوالم لم تحلم كما نحلم هنا. ولن أعدم من يحلم بي. يحلم بي وبك وبنا كلينا وأنا أكلمك وأنت تصغين إليّ.

واستعاد رومولو عبارته المضيئة، وكانت الدوقة تسمعه ببرود. ثم نهضت متفكرة في البراءة والجريمة المشؤومة.

- نعم، يا رومــولـو . كل ذلك عظيم ورهيب . هناك ألم عــالـمي تـريد أن تواجـهه بحماقة ربما كـانت عـالمية أيضـاً، ها أنت ترى أني أصـغيت إليك، وأني فهمت ماتريد . فانصرف .

فتـردّد . لكنه مـا لبث أن نهض وسـار إلى الحـمّام الذي أخـرج منه الزهور ووزّعها على مزهريات مختلفة، ثم قصد المصعد . ولما فتح الباب رأت الدوقة في قاعه اللوحة الفرنسية، فأطبقت عينيها، وفطِن إلى ذلك فقلب اللوحة وجهاً لقفا، ونزل الحديقة . واستنتج من تلك الزيارة نتيجة واضحة طريفة وهي أن الدوقة كانت تعلم ما حدث للدوق، ومع ذلك، لم توجّه إليه إصبع الاتّهام .

وسار إلى الحجرة التي انتقل إليها وبلبينا قريباً من قاعة السلاح .

أمّا الدوقة فقد سجلت في اليوم التالي في دفتر يوميّاتها :

«بُعيد انصراف رومولو الليلة الفائتة حدث حدث لا يُصدق . فقد جاء إستبان إلى البرج، أعني إسْتبان الشيطان . مكث أكثر من ساعتين يحدثني عن الدوق . كان يقول كل ما كان يخطر في رأسه، وفطنتُ الآن إلى أنه كان يتحدث ربما ناسياً من كان يستمع إليه تحديداً، يا إلهي! باستماعي إلى إستبان وقبولي ما كان يقوله من غير احتجاج، ما كنت أصنع شيئاً سوى أن أخضع أيضاً إلى البؤس العالمي والحماقة الكونية .

إستبان يسخر من كل شيء . كيف يمكنه السخرية من كل شيء في هذه الأيام؟ ما أغربكم معشر الرجال! هو يسخر من كل شيء ورومولو يعجب بكل شيء ويبدي احترامه لكل شيء . ويحسن بي أن أتعلّم من أحدهما . وأحسبني أتعلّم من إسْتبان هذي الأوقات . ولايمكن للأمر أن يكون بطريقة أخرى . من يرغمنا على أن نحمل محمل الجدّ شيئًا مما نسمعه، شيئًا مما نراه؟ أهو الله؟ الله الذي خلق العالم كما هو، الله الذي لا يعبأ بهذا الرعب» .

لّما كلّمت إستبان بذلك، قال لي: «دعيك من الكلام عن الله الذي أرسل إلينا المسيح، ولما رأى ما صنعنا به رفعه إليه، فقد مكر الناس مكراً غير لائق، وهم غير شرفاء».

«وكنت أضحك. وأنا أسمعه يتكلّم هذا الكلام».

(أعترف أني صرت أقوى لمّا انصرف. أحسب كما يحسب هو، أن كل الأفكار الخُلُقية التي نشكلها في أوقات كهذي الأوقات، ما هي غير أقنعة نحاول أن نحجب بها عن أنفسنا الخوف الفيزيائي الذي ينتاب أجسامنا. قال لي: «حاولي أن تنظري إلى الموت مواجهة ودون خوف، تري أن الشعور الخلقي والديني غير لازمين». وأحسبه على صواب.

«لكنني لا أستطيع إلا أن أسأل نفسي، إلى أين يقود ذلك؟ فأجاب: لا يقود إلى أيّ مكان. لا شيء يقود إلى أية جهة. وهذي حقيقة. وتبدو لي الآن مضحكة تلك الفكرة التي آمنت بها ذات يوم بأني أستطيع الذهاب إلى مكان ما حيث التقدير والطيبة والخير والشرف والنبل إلخ.. إلخ..».

وصل تلك الليلة ستة وتسعون رجلاً من الكتيبة المضادة للدروع تتبعهم شاحنتان تحملان الفرش والأغطية. كان الجنود جميعًا يبدون شبانًا (في العشرينيات من أعمارهم)، وكان على وجوههم مرح الطلاب وخفّتهم. وفار المكان بالنشاط وتحوّل القسم السفلي من القصر والحديقة إلى معسكر. أراد بعض الشبان أن يسخروا من رومولو، لكنهم لما رأوه جامداً وفطنوا إلى أنه لا يأبه بالقدح أم بالمدح، تخلّوا عنه. ذهب رومولو إلى المرآب حيث كان الضابطان وأحد الرقباء. وتنبّه عند دخوله إلى أنه كان مدار حديثهم. ولم يكن كلامهم عنه مسيئًا. وفكر: «يقصّ عليهم أعضاء الميليشيا قصة تسليمي الدوق». وصمتوا في حضوره. والحقيقة أن الملازم أوريارته الضابط العابس دائمًا، كان يندر أن يتكلّم. لكنه كان يحسن الإصغاء فلا يفقد كلمة واحدة مما يقال. وسأل الضابط أوردونييث رومولو ما اسم الدوقين. وردّد هذا قصّة لقبي الفرعين والخطأ الحاصل في تسمية الدوق «دوق آرلانثا»، في حين أن هذا لقب حميّه وليس لقبه.

تبسّم الضابط وهو يستمع إليه . وناوله قدحًا من الخمر تردّد في قبوله . لأنه تعلّم بالغريزة أن قليلاً من الخجل يساعده على تعزيز الثقة .

كان أوردونييث سأل كلّ فرد من ميليشيا الحراسة عن مهنته ، ولما علم أن رويث ساعاتي ، قال :

- ليس عليك ملامح الساعاتي .

وما كان رومولو يفهم كيف يتخاطبون بإلفة ودون كلفة ، ولما يمضِ على تعارفهم غير وقت يسير . وبدا له أوردونييث أمراً صريحًا ودون خلفية ما . أماالضابط الآخر فكان يثير خوفه ، وابتهج لما علم أنه سيخرج وكتيبته إلى الجبهة خلال أيام قلائل . كان الملازم أوردونييث رئيس تلك المدرسة . وهو لم يكن ملازمًا ، بل نقيب لكنه لمّا يبدلْ شاراته بشارات الرتبة الجديدة . كان جريحًا خرج من المشفى لتوّه ، فعيِّن في ذلك المكان الهادئ ريثما يستعيد قواه .

أقبل أحد العرفاء قائلاً إن الجنود يفضلون الإقامة جميعًا في قاعة واحدة . ووجد إشكالاً في امتثالهم للنظام . كان العريف ذا ملامح حلوة وشعر غزير . ولماانصرف قال النقيب :

- هذا شيوعي وله هوس بالإعلان . وإذا لم نفطن له فسوف يملأ البيت خلال أسبوع باللافتات واللوحات .

وانفجر أحد الرقباء في الضحك من غير أن يقول شيئًا . فنظر إليه النقيب شزراً :

- ماذا؟ أأقام شيئًا منها في المخادع؟

- لافتتين اثنتين . - قال الرقيب . - جلبهما جاهزيتن على قماش كبير . تقول إحداها :

«الموت واقفًا خير من الموت راكعًا» .

ونكت الضابط لسانه باستياء .

- ذلك جميل. لكنني لا أحتمل هذا الأدب الرومانتيكي، وعلينا أن نتجنّبه. لأن الموت والحياة أمران خطيران في نظر الرجال الحقيقيين. وإني أحظر الكلام عن ذلك في كتيبتي. وفوق ذلك، هو يجلب سوء الحظ.

وسأل رومولو:

- وأنت؟ أأنت اشتراكي؟

أُخذ رومولو على حين غرّة. وأنقذه رويث:

- هو من ذات النقابة التي أنتسب إليها.

- لا تقل لي إنه ساعاتي أيضًا!

كانت المدافع تسمع في الخارج مطلقة نيرانًا أغزر مما في المرّات السابقات. سكتوا جميعًا متنصّتين. وقال أوردونييث:

أخيراً صار لدينا مدفعيّة محترمة.

وراح النقيب يتكلّم جاداً: «عمل هؤلاء الشبان الذين ندرّبهم سيكون تجربة حربية جديدة جدة كاملة». مضيفًا: إن الجندي أو العنصر البشري هو اليوم كما كان أيام هانيبال، عنصر حاسم بآلات أم من غير آلات، وسأل رومولو:

- وأين سيُعد طعام الجنود؟

- للشؤون الإدارية مطبخ ذو خدمات متجولّة. ولسوف يوافينا بالطعام كل يوم. وتنفّس باطمئنان.

أصبح اليوم التالي بارداً ورمادياً. وكانت المدافع تطلق النيران في تلك السماء الرمادية وكأنها مزوّدة بكاتمات صوت، فتصل انفجاراتها مخمّدة. وحلمت الدوقة للحظة أن أنصارها حطّموا خطوط الجبهة ودخلوا المدينة، حتى فكرت في أن أصوات الإيعاز التي تُسمع تحتُ صادرة عن جيش نظامي ويمكن أن تكون إيذانًا في ظهور القوات الفاشية. وأطلّت من النافذة ورأت بين شجرتين كبيرتين إعلانًا

مكتوباً بحروف حمر على قماشٍ أبيض: «ساعدوا السوفييتات الصينية». ورأت المصباح الكاشف في إفريز النافذة مرة أخرى. أخذت السماء تمطر رذاً. وكان أعضاء الميليشيا الذين يسيرون في الحديقة يتجمّعون في البوابة أو في البيت. وكان يتكدّس في مسكن رومولو القديم ما يزيد على خمسين متطوّعاً ينتظرون استلام أوراقهم لينضمّوا إلى الوحدات المقرّرة لهم. وكان رومولو يروح ويجيء في الحديقة والتجأ إلى ظلّة مدخل القصر. كان رمل الحديقة الناعم في ذلك المكان أشدّ صفرة من أي وقت آخر. بل كان يبدو تحت السماء الرمادية والهواء الرطب أشدّ لمعاناً. ولجأ بعض الجنود إلى ذلك الجانب أيضاً. ومرّ آخرون راكضين تحت المطر. وكان رومولو يسمع جملاً متناثرة، وقطعاً من حوارٍ، غير متماسكة.

- ما أقوله أنا، ألا أندسّ داخل شاحنة مصفّحة.

وكان آخر يغني بصوت خفيض: «شتّي يا دنيا، شتّي». وكان عريف يجدّف ضاحكاً وأضاف:

- أو تظنّ المصفحات مصنوعة من الحلوى؟

وصاح أحد منهم له مظهر فلاّح:

- عريف غارثيا!

وكان للصوت قليل من الصدى عند طرف الحديقة الأقصى حيث المغاسل. «... غارثيا!» كان التفكير في الدوق يلحّ على رومولو منذ ثلاثة أيام. وكان يمثّل في مخيّلته عملية الإعدام بالرصاص، ويقف عند تفاصيل صغيرة: «أتُربط حقاً أقدام من يُعدمون بالرصاص؟» وساوره شعور بأنه ربط قدمي الدوق بيديه. وكان المطر ما يزال يهطل بلطف. وكان زجاج الظُلّة المثلّثة العالية الذي يشكل واقية بيضاء فوق المدخل وعلى مستوى الطابق الأول، يسلّط على رومولو وعلى الرمل الأصغر هالة

من ضوء زاهٍ. وكان رومولو يضع يديه في جيبي بناطيله، وهو موقف كان محظوراً عليه أيام الدوقين، ويقول في نفسه إنه يستطيع الذهاب لرؤية الدوقة في أية ساعة يشاء «قبل الساعة الحادية عشرة ليلاً».

أقبل الليل حالكًا دون قمر، وكان رومولو يجتاز الحديقة قبيل التاسعة لماأحس بنفسه ملقى على الأرض بفعل سلسلة من الانفجارات، وكأن السماء قد انهارت فوقه. ظلّ ممّدداً على الأرض بضع ثوانٍ وسمع الطائرات تبتعد. ولما نهض رأى نصف الحديقة غارقًا في سحابة كثيفة من الغبار والدخان. وكان المصباح الكاشف في نافذة البرج أُشعل قبيل الانفجار، فأضاء بيت رومولو والحديقة والراية فوق سقف البوّابة. ثم أطفئ لحظة الانفجار ذاتها، ربما مُحطّمًا. وفكّر رومولو: «ولربما شاهد هذا المصباحَ أحد أعضاء الميليشيا كما شاهدته أنا نفسي». وكانت تتصاعد من ركنٍ كان من قبلُ مسكن رومولو، صيحات ألم. وذهب إلى القصر باحثًا عن الضابطين اللذين انسحبا والجنود إلى الأقبية لما سُمعت صافرات الإنذار، وشاهد عند مروره أن كل زجاج الطابق الأرضي محطّم. ورأى بقايا رشاش عند الباب الرئيس الذي تصدّع قوساه الحجريان صدعين عميقين. وأخذ نسيم خفيف يدفع سحابة من الغبار والدخان كانت تلفّ الحديقة، ويقودها باتجاه مركز المدينة.

دنا الضابطان والجنود من باب الحديقة الذي انتزع من محوريه. ورأوا بيت رومولو قربه وقد تحوّل إلى كومة من ركام. وكان يتصاعد من بين الحطام دخان كثيف مؤذٍ. وكان إسْترادِيرا يقوم بنوبة الحراسة ساعة الانفجار، فدنا والدم يغطّي وجهه، وأشار إلى البرج قائلاً:

- من هناك انبعثت «دفقة» من النور.

وما إن نطق بتلك الجملة حتى سقط فاقد الوعي. لكن النقيب أوردونييث كان التقط الجملة. فحُمل الجريح إلى أقرب مشفى. وقال النقيب لما رأى الجنود يتغلغلون وسط الركام:

انتبهوا! قد توجد قنبلة موقوتة.

لكن أحد الجرحى الذي أُخرج من بين الحطام قال إن الطائرات ألقت قنابل مضيئة قبل إلقاء القنابل المتفجّرة. فتشبّث رومولو بتلك الرواية الجديدة. فقال إنه هو الآخر شاهد القنابل المضيئة. ويبدو أنهم قبلوا جميعًا بفكرة القنابل المضيئة كحادث أقرب إلى الواقع والإمكان. وأردف الجريح إنهم قد يجدون تحت الركام حوالي خمسين رجلاً. وما كان بمستطاع رومولو أن يتخيّل ظهور جسد زوجه ميتة بينهم. فقد كانت مهشّمة، وكان وجهها وشعرها محروقين. ولمّا حاول رفعها انثنت من كل جانب، وكأن جسمها خلا من كلّ عظم. كان يسمع الكلام حوله. لكنه ظلّ وحيداً إزاء ذلك الجسد حاملاً مصباح الجيب مشعلاً، وقد حاول أحد الجنود إبعاده عن المكان لكنّه رفض. وظلّت النظرة بينه وبين جسد بلبينا مجمّدة في هواء الليل الكثيف تقطعها أحيانًا رشقات باردة من مصابيح كهربائية أخر. وراح ينطق بكلمات لا معنى لها، وصورة الدوقة في مخيّلته وصوت إستراديرا في مسمعيه: «من البرج انبعثت «دفقة» من النور». وهو نفسه قد شاهد تلك «الدفقة» كما شاهدها الحارس. وقال له النقيب أن يتّصل بمركز إسعاف القسم طالبًا سيارة إسعاف. فسعى رومولو إلى الهاتف. ولمّا عاد إلى الحديقة لم يجد النقيب. وبحث عنه عبثًا في كل الأنحاء. وانتابه خوف من أن يجد نفسه مرة أخرى أمام جسم زوجته. وإذْ رأى الفوضى ترخي بثقلها، رجع القهقرى ودخل القصر وبحث متلمّسًا عن مقعد تهاوى فوقه. وكانت تصيبه بالذعر إمكانيةُ أن يرى مرة أخرى وجه زوجه بلبينا وشعرها محروقين. وراحت تتراكم المشاعر عليه في جمود المقعد، وبدا أنها تضغط عليه، فهبط عليه حلم أقوى من الرعب، ربما كان وسيلة

دفاع طبيعية عن راحة أعصابه. بيد أن البرد أيقظه بعد نصف ساعة من ذلك، فنهض مخدّرًا، ووجد في المطبخ جماعة من الجنود تطبخ قهوة. وكان يصل من الحديقة زميم محركات سيارات الإسعاف. فقال في نفسه متمنّيًا: «لعلهم نقلوا هذا الجسد المسكين قبل أن أفيق». كانت تخترق الزجاج المهشّم أحيانًا رشقات من الأضواء الكاشفة، فكانت تضيئها ثم تنطفئ سريعًا وتتجه جهات أخر في الظلام حتى تبدو انفجارات صامتة. سُمع نداء بالنقيب أوردونييث. وأطلّ الجنود على الممشى وهتفوا باسمه عبثًا. وقال رومولو في نفسه: «كل شيء عدم وعبث في الحياة». لكن الحياة كومة من المتناقضات، وبالتالي يمكننا أن نقول العكس. أن نقول: إن أيّ شيء، بل أتفه شيء هو ملء الحياة. كان يحاول أن يسوّغ لا مبالاته إزاء الكارثة متفكرًا في أن الطائرات قد تعود في كل حين، وفي أن الخطر الذي مايزال يحدق به يضفي على موت بلبينا وموت الآخرين سمة نوعية تخفّف من وطأة المأساة.

كان بحاجة إلى أن يجيء البرج بأسرع ما يستطيع. لكن الحركة في الحديقة في ازدياد، وما كان يجرؤ على الابتعاد. وفوق ذلك، كانت حظرت عليه الدوقة أن يجيئها بعد الحادية عشرة. وكان ذلك الحظر يلقي بثقله وأهميته وسط المذبحة. وقال لنفسه: «سأذهب ما إن ينقضي الاضطراب قليلاً». كان يحاول عبثًا أن يفهم ماجرى في البرج حتى أُشعل المصباح الكاشف بالطريقة التي أشعل فيها، وخُيل إليه أنه حلّ المسألة كلها بالاستنتاج التالي: «كان مُقدّرًا أن يحدث ماحدث سواء بنور أم بعدمه». وكانت صورة بلبينا لا تبرح خياله حتى لو لم يفكر فيها. وقال لنفسه محاولاً مرة أخرى أن يفهم الأحداث: «هذه الليلة، لم يُقطع التيار الكهربائي عند انطلاق صافرات الإنذار». ولو قُطع لما أشعل المصباح الكاشف، ولَمَا رأى العدوّ في هذه الحالة الراية الجمهورية تخفق فوق البوّابة، وإن كانت الطائرات لاتحتاج إلى معرفة إن كان المكان مؤسسة عسكرية أم لا، حتى تقصفه. لكن،

بافتراضِ أن الذنب كلّه يقع على عاتق المصباح الكاشف، فإن أحداً ما أشعله. وسأل نفسه: «أتكون الدوقة قامت بذلك؟ ولِمَ؟» وما كان بمستطاعه أن يتابع التفكير، لأن جثّة بلبينا كانت تعترض سبيله، فأبرز صدره قليلاً ليستطيع التنفس على شكل أفضل قائلاً لنفسه: «لعلّ المسكينة بلبينا لم تتنبّه إلى القصف. ولم تعانِ».

ثم أمّ الحديقة فوجد ثماني وعشرين جثة أخرجت من تحت الأنقاض، ومايزال العمل مستمراً. وكان الجنود يردّدون ذلك الرقم دَهِشين متألّمين. وكانوا يعملون في الظلام ناظرين إلى السماء من حين لآخر بهدوء ممزوج بالخوف. سأل رومولو عن إسترادبرا فقيل له إنه ما يزال في المشفى، لكن جراحه سطحية ولاخطر فيها. وعلّق أحد الجنود ساخراً: «يبدو أن لهذا الرفيق رأساً (يابساً)».

وعاد إسترادبرا بعد قليل معصوب الرأس. وسأله رومولو من أية جهة رأى النور يسلّط على الحديقة. لكن الحارس فطن إلى وجود اختلاف في رؤيتيهما، وأنه هو نفسه قد لايكون على يقين تام من أن النور انبعث من المصباح أم من القنابل المضيئة. وهزّ كتفيه. وصعد رومولو البرج لما رأى أن القسم الأعظم من الموتى وبينهم زوجه، والجرحى قد أخرج. كان كلما تقدّم ازداد إحساساً بالذعر من غير أن يدري لذلك سبباً، وما كان يستطيع تصوّر خطر محدّد، ومع ذلك تفقّد مسدسه حين تحقّق من أن ستارة مدخل السلّم أزيحت عن إحدى الزوايا، لكنه لما وصل الباب سمع كلاماً في الداخل بصوت خفيض، فاندفع داخلاً، فوجد الدوقة واقفة وسط الحجرة ونظر إلى حيث كانت تنظر، فوجد النقيب أوردونييث خلف الباب تقريباً، وقد سقط أرضاً، ويتنفّس بصعوبة محاولاً الجلوس بحركات مضطربة. ورأى جانباً من وجهه مضرّجاً بالدماء. وقالت الدوقة:

– حذارِ، يا رومولو!

ونظر هذا إليها ثم إلى الجريح، وتابعت هي كلامها بصوت مفرط في هدوئه لتضمن رباطة جأشها.

- ربما صرخ، أو ربما نهض، وهو مسلّح.

وانثنى رومولو فوق الجريح الذي كان يبدو أنه لا يعي شيئًا مما حوله. نعم، كان النقيب يحمل سلاحًا على جنبه، ولم يصنع به شيئًا للدفاع عن نفسه. وجثا رومولو محاولاً أن يرفعه.

- نقيب أوردونييث...

وسمع الدوقة تتكلم في ذات الوقت.

- أنا لم أطلق عليه النار، يا رومولو...

كانت تتكلم ببرود بلهجة تخلومن كرب الاعتذار، وأسرّ في نفسه: «إذا لم تطلق هي فمن أطلق؟» نظر إلى باب المخدع ولديه شعور بأن أحدًا ما يختبئ داخله. لكن المفاجأة لم تسمح له بالتوفيق بين الإرادة والعمل وما كان يعرف إلى أين يسعى. وكان النقيب يرفع رأسه وينظر إليه دون أن يتعرّف عليه. ورفع يده إلى صدغه ومسح الجرح فتدفّق الدم بغزارة. وهوى الجريح إلى الخلف، فسنده رومولو بذراعيه بعطف، وردّدت الدوقة بصوت خفيض:

- لا تثق به، يا رومولو. انزع سلاحه!

ترك رومولو الجريح فوق السجادة، ووضع وسادة صغيرة تحت رأسه ونظر إلى ما حوله. ورأى على الأرض فشكة مسدس فارغة، فأخذها وتثبّت من النظرة الأولى أنها من عيار أكبر من عيار مسدس الدوقة. «لو دخلتُ الآن المخدع لحدث لي يقينًا عين ما حدث للنقيب». وأحس بميل لا يقاوم. لكنه ذهب إلى الحمّام بحثًا عن منشفة. وكان ضعف مؤلم يعرقل خطاه وحركات يديه. «إذًا، هناك رجل آخر، رجل آخر يأتي ليلاً كما كان يأتي الدوق». وما كان يعلم أين يختبئ الرجل

المجهول، ولا من أين قد يأتي الهجوم، ولم يجد أحداً في الحمّام. بلّل المنشفة وعاد إلى عند الجريح فرأى أنه بدّل موضعه وانكفأ على بطنه، وما كان يبدي علائم على أنه يتنفّس. وقلبه رومولو بلطف على ظهره، وقال للدوقة:

أحسب أنه فارق الحياة.

- أأنت واثق؟

وضع يده على قلب النقيب، ثم وضع أذنه:

- لقد مات.

وقالت الدوقة بلهجة متوسّلة:

إذاً، أخرجه من هنا، إن سمحت، يا سيد رومولو، ما يزال ينزف منذ ثلاث ساعات.

فأبدى مظاهر الطاعة دون أن يجيب. واستطاع أن يرى الأزاهير في المزهريات جد برّاقة كما تخيّلها. وما كان يعرف بالضبط كيف يُخرج ذلك الجسم من هناك. وكانت صافرات الإنذار تعوي مرة أخرى. وفكر في طلب المصعد ثم في اجتياز الحديقة وصولاً بعد ذلك إلى المراجل. كانت صافرات الإنذار ما تزال تدوّي. «إذا خرجت حاملاً هذه الجثة على كتفي فسوف يرونني. يقيناً سيرونني». فهناك دائماً رجل ينظر إلى من يحاول إخفاء جثة. لعل غارة الطيران تسعفه. «هذا الرجل الذي قد يراني، سيكون إبّان القصف مختبئاً في مكان ما ليتحاشى القنابل». أما وأن الغارات لا تدوم في العادة طويلاً، فقد تأهّب للإفادة من هذا الوقت. وماهو غير قليل حتى سمع أولى الرشاشات المضادة للطائرات تطلق نيرانها. ولما وجد نفسه محاطاً بهذه القعقعة التي صارت مألوفة، أخذ الجثّة وحملها على كتفيه ودنا من باب المصعد. ورأى الدوقة تروح وتجيء باحثة عن شيء ما ثم وقفت، وقالت على عجل:

ينبغي لي تنظيف المكان من بقع الدم.

وكان الدم ظاهراً على السجّادة، فأخذت ذات المنشفة التي جلبها رومولو من الحمّام، ثم تخلّت عنها مرة أخرى. وأخرجت دون وعي باقة زهر من المزهرية وحاولت أن تزيل تلك الحقيقة المخيفة أولاً بالهليون الذي لُفّت به الباقة، ثم بالباقة كلّها. فقال لها رومولو وهو يدخل المصعد:

دعيك من ذلك. أنا سأقوم بالتنظيف.

لكنها تابعت عملها متوترة الأعصاب دون أن تسمعه. سمع رومولو شهقة صغيرة وأجال النظر. لم تصدر الشهقة عن الدوقة. ولكان سرّلو قامت بذلك، لكنها لم تفعل. بل كانت صادرة عن جسم النقيب الذي أطلق قفصه الصدري الهواء المحتبس في الرئتين لما انضغط على كتف الجنائني.

أخذ المصعد بالنزول، لكنه ما لبث أن توقّف بغتة بين الطابقين الثاني والثالث بسبب قطع التيار الكهربائي. ظل رومولو واقفاً منتظراً في الظلمة أن تنتهي الغارة ويعود التيار، لكنه لم يعد. فجلس بعد أن وضع جثة النقيب على الأرضيّة بعناية.

ظلّ في المصعد على ذلك الوضع نفسه آناء الليل وكل النهار التالي تقريباً؛ لأن التيّار لم يتدفّق بمصادفة غير مفهومة. مكث في ذلك المحبس الجنائزي قرابة عشرين ساعة مفكراً: «من صنع ذلك كله، كان موجوداً فوق، وما يزال مقيماً مع الدوقة. فمن هو؟ ولِمَ تسمح هي له بالمجيء وسفك الدم على السجاد، ونثر الموت من النافذة؟» أراد أن يتذكّر من يمتّ بصلة قربى إلى عائلة الدوقة، فوجد بينهم شباناً بدوا له غير قادرين مطلقاً على صنع شيء شنيع كهذا الشيء، «بل على العكس، كانوا يبدون ناعمين كالنساء». وكان يعلم أنّه لن يوفّق أبداً إلى أن يتخيّل شكل من ظلّ فوقُ، وتذكر المسدس الصغير المحفوظ في قراب من الصدف والذهب، تذكر

ضوء اللوحة القماشية الأصفر، وتذكر جثة النقيب وكأنها ليست حاضرة أمامه. وتذكّر أيضًا الصور الخليعة في تلك الكتب الماجنة المجلّدة. تذكّر كل شيء إلا جثّة بلبينا المهشّمة.

لم يستطع أن يتصوّر ضيف الدوقة الزائر. وكان يردّد في نفسه مرة بعد أخرى: «هو والدوقة فوق معًا. وأنا هنا محتبس مع هذه الضحية، محتبس مع ميت». لأن النقيب كفّ عن أن يكون النقيب أوردونييث، وإنما «هو ميت». ومع ذلك، كانت تتردّد في مسمعيه كلمات النقيب الأخيرة عند باب الحديقة بعد القصف: «انتبهوا! ربما وُجدت قنابل موقوتة». كان عطشان وجائعًا. كان عطشان على وجه خاص.

عاد التيار الكهربائي عند طلوع النهار. وتابع المصعد هبوطه حتى توقّف تحت بضربة ناعمة. فسمع رومولو في الخارج أصواتًا، ولم يجرؤ على الخروج. وقال: «إذا حالفني الحظ بحدوث غارة جوية أخرى حوالي القصر فسيمسي كل شيء أسهل». وتنبّه إلى أنه لا ينبغي له الخروج حتى الليل.

لكن الغارة الجويّة جاءت قبل الحادية عشرة. فجرت الأمور وسط الاضطراب كما توقّعها: وبلغ القصف ذروته لما مرّ بالحديقة والجثة على كتفيه. وفكر: «إذا احتدم القصف حولي فسوف تكون جثّة هذا الإنسان البائس وقاية لي». لكن، ما إن وصل المراجل وتأهب لإلقاء الجثّة في النار حتى انتابه شك، فلربما كان الزائر السري النقيب نفسه الذي انتهى إلى الموت على يدي الدوقة بفعل سلسلة من الظروف ما كان يفقهها. لكنه نسي بعض التفاصيل التي كان يمكنه بفضلها أن يعرف بسهولة أن الأمر محال كما تصوّره. وتأهّب لإلقاء الجثة في المراجل التي لم تكن نيرانها قوية بما يكفي. فوضع الجثمان على الأرض وألقى إلى النار مزيدًا من الفحم، وفتح فتحات التهوية على مصاريعها. وتشكّل على الفور تيّار هوائي حتى

تأجّجت النار . فأخذ الجثمان عن الأرض مرة أخرى ورفعه بصعوبة كبرى حتى أدخله المرجل . ولما سقط فيه انبسط على جنبه وغطّى طبقة الفحم الملتهب كلها . ورمى رومولو فوقه رفشات أخر ، ثم أطبق على خير ما يستطيع فتحة البوّابة المعدنية العليا التي سحبها بقوة واضعاً قدمه مخمّداً الصدمة منعاً للضوضاء .

ولما استعدّ للمسير رأى أن الجثمان فقد إحدى نعليه . وتذكر في ذات الوقت ، أن آثار نعال رجالية كانت تظهر أحياناً على السجاد في حجرة الدوقة وخطرت له فكرة الاحتفاظ بهذي النعل ليقارن-إن أتيح له ، أبعادها بأبعاد تلك الآثار . لئن بدا له القرار أحمق ما إن صاغه في ذهنه ، فقد احتفظ بالنعل دون أن يدري لذلك سبباً .

رجع وهو يسرّ في نفسه : «احتبست في المصعد لمدة أربع وعشرين ساعة . لاشك في أن الجنود افتقدوني خلالها» . كانت مهلة مفرطة القصر ، ومفرطة الطول حتى تسوّغ غياباً . «يمكنني أن أقول إني ذهبت لأقوم بمسعى من أجل جثمان المسكينة بلبينا» ، التي لم يفكر فيها قط ، وإن كانت حاضرة تحت غطاء مايصنعه وما يقوله . وما كان يريد التفكير فيها ، لأن تلك الهيئة المهشّمة والشعر المحروق كانت تؤلمه ألماً بليغاً . وعاد إلى المطبخ ليشرب ماء . وأحس بعرق غزير لما شرب الكأس الثانية ، ثم شرع يصعد البرج . وترك حذاء النقيب على السلّم قبل دخول حجرات الدوقة . فقد بدا له أن شكّه في غير محلّه ، وأنّ مقارنته مضحكة .

فلم يعثر عليها . وفكر لما رأى الزهور مهروسة متناثرة على السجاد : «كانت آثار الدم دامغة حتى أرغمتها على الخروج من هنا ، ولربما كانت في الطابق الثالث» . فأخذ يهبط الدرج وتعثّر بالحذاء في الظلمات ، فالتقطه مرة أخرى ، لكنه رمى به أيضاً قبل دخوله حجرات الطابق الثالث ، وسمعه يتدحرج على الدرج الذي ينحدر حتى الطابق الثاني . كان توزيع الحجرات مطابقاً لتوزيعها في الطابق

الأعلى . لكن الديكور مختلف، كانت الهيمنة هنا للألوان الحمر والصفر، وعُلّقت لوحة لثوربرَان على الجدار مكان لوحة غويا في الطابق الأعلى . كانت لوحة قاتمة تمثّل قدّيسًا له وجه مشنوق، وخلفيتها ذات بساطة آسرة . وكانت عند قدم القدّيس جمجمة تبدو متلألئة في الظلام . ورُسم على ستائر الحجرة تاج الدوقين، ونُجّدت «الديفونات» والكراسي على شكل تفصيلي ودقيق .

لم تكن الدوقة في الممشى . لكنها سمعت رومولو من المخدع . فخرجت .

- ماذا تصنع؟ وأين كنت؟ ولِمَ لمْ تأتِ أمس؟

ثم لزما كلاهما الصمت . هي كانت تنظر إلى ما حولها وكأنها تضيق ذرعًا بكل شيء؛ بالأثاث وبلوحة ثوربران وبالهواء . وقالت :

- لا تعجبني هذه الحجرات . وجودي قريبًا جدًا من غرف أمي يسبّب لي الضيق .

وفكر رومولو : «تكلّمني وكأن شيئًا لم يكن» . واقترح عليها :

- انزلي القبو إلى جانب قاعة السلاح .

- أتقطن هناك وبلبينا؟

ونظر إلى وجهها من غير أن يجيب . وما كانت هي تدرك مغزى النظرة . وإنما رأت في نظرته ما يشبه اتّهامًا .

- بلبينا! - . قال رومولو متجهّمًا . ثم ابتسم بمرارة .

وبدا على الدوقة أنها فطنت للأمر .

- لا ذنب لي في ذلك، يا رومولو . لكني، مع ذلك، أطلب إليك أن تصفح عن المذنبين . اصفح عنهم كرمى لي .

ورأى في نغمتها قوة فيها اضطراب، تختلف قليلاً عن مألوف طريقتها في الكلام. إذْ كان من عادة الدوقة أن تتكلّم عن أشياء غامضة خفيفة بلهجة لا نبرة فيها، وكأنها تتكلّم بدماثة باردة. وقال في نفسه: «تتكلّم بطريقة أخرى، وهي نفسها تبدو لي شخصاً آخر». وأردف بصوتٍ عالٍ ووجه متجهّم.

- الموتى وحدهم لهم الحق في أن يصفحوا عنهم.

وكانت تتصاعد من الحديقة رائحة غبار وحجر محروق ودخان. وأضاف بعد مدة توقّف شُحن بالقتامة.

- موت بلبينا أكثر شيء أثار شجن الناس جميعًا. لعلّك لا تعلمين أن المسكينة قضت حياتها باكية عليك، داعية لك.

وسألت الدوقة بفكاهة غريبة:

- أمازلت أنت في خير العوالم؟

وفطن إلى أن الجواب صعب لكنه قال:

- بلى، يا سيدتي.

ومُلئت هي بفضول بارد وعدائي:

- إذا كان الأمر كذلك، فأنت لم تحزن لموت زوجك، يا رومولو.

وحسب أنه لم يفهم:

- وكيف لم أحزن؟

- تجرّأ وقلِ الحقيقة! - ألحّت عليه.

- أنا؟

وإذْ رأت حيرته أردفت:

في داخلك شيء ظلّ بارداً وغير مكترث بموت زوجك.

كانت عيناها تتقدان في ظلمة الحجرة. ولم يلمح رومولو هذا البريق في عينيها من قبل.

- في أعمق الأعماق، في أعمق أغوار ذاتك شيء ما يفرح بموتها.

ولم يُوفّق إلى قول شيء لأن كلماتها كانت غير مُنتظرَة قط. وأضافت مغمغمة موجهة الكلام لذاتها:

هناك الألم العالمي، والحماقة الشاملة. لكن هناك أيضًا البؤس الكوني.

وقال رومولو أخيراً:

أظنّ الدوقة مخطئة!

وتابعت هي:

مضى على زواجكما عشر سنوات.

- سبعة عشر عامًا. - صحّح لها.

وكانت الدوقة مهذارة جداً ذلك اليوم:

- تربطك ببلبينا العادة اليومية، ولاشيء آخر غير العادة، ويظهر أن حياتكما معًا دون حبّ أمر باهظ. أليس كذلك؟

ما كانت ترفع بصرها عنه. وكانت تُسمع أصوات بعيدة، هي أصوات الجنود الذين يعملون في الحديقة. وتابعت الحديث:

سبعة عشر عامًا معها. يعني أنك لم تعش أثناءها أية حياة. بل هي سبعة عشر عامًا ضائعة من حياتك.

- ضائعة؟- سأل من غير أن يصل إلى فهم شيء.

وتابعت بلهجة فيها إدانة:

نعم، هي خير سنيّ حياتك، سنيّ شبابك. لكن الأشياء صارت الآن مختلفة. أنت لا تفرح لموتها لمجرّد موتها ذاته.

وسادت مدة من الصمت. ولم يشأ رومولو أن يقول شيئًا كيلا يقطع خيط ذلك الحديث الهاذر الذي يراه تكريمًا له؛ ومع ذلك، كان يثير قلقه وكأنه ينطوي على خطر. وتابعت:

- أنا أعلم أنك غير قادر على أن تتمنّى لها أدنى شرّ. ولو كان في يدك تجنّب ما جرى، لقمت به مخاطراً بحياتك.

- هذا صحيح.

وأردفت الدوقة التي عادت إلى النبرة القاسية في كلماتها الأول.

- هي ماتت. والآن كل شيء مختلف، أمسى غير ما كان. فلما رأيت المسكينة زوجك ميتة، دُهشت أنْ وجدت في نفسك القدرة ليس على احترامها فقط، وإنما النظر إليها على أنها كائن أسمى.

وتحوّل قلق رومولو إلى خوف وذعر. فماذا دهى الدوقة؟ وتابعت أيضًا:

- لم تضع في الحقيقة، تلك الأعوامُ السبعة عشر من حياتك. ولم تخسر حقًا بضياع خير سنيّ حياتك. فذلك الزمن يتسامى، وكل شيء فيه يكتسب قيمة جديدة. وتدرك الآن أن لك الحقّ في أن تمتلك إلى جانب الألم لموت بلبينا، إحساسًا ما بالسعادة.

وبدا على رومولو الاضطراب. وكان يرى في ظلمات الحجرة زوايا قاسية، وتابعت الدوقة خارجة من سلطان ذاتها، قائلة:

- أعلم أن ذلك حق، ولا ينبغي لك الخجل منه.

وكان هو يحدّث نفسه: «تكلّمني هذا الكلام لأنها تحس بالجُرم. هي بحاجة إلى فيض من الكلام والنطق بغرائب الأقوال، لأن لها عشيقًا». وجعل هذا التفكير الدم يصعد حتى حنجرته. وكان يفكر أيضاً، إن كانت الدوقة تقول ذلك، فلأنها أسفت لموت بلبينا. لكنها ما كانت تسمح لهذا الإحساس بأن يغوص في أعماق روحها.

- إن كان كما تقولين، فلا شيء من السوء فيه.

- بلى، يا رومولو.

وقال لنفسه بصوت عال:

- ومع ذلك، أدركت هذه الأوقات أن وراء أشنع الفظائع، يكمن دائماً شيء من الحب أقوى وأسمى ينقذنا. أعني: لئن وُجد شيء من الشر في هذا الذي يجري، فهذا الشر قد لا يكون الكلمة الأخيرة.

وابتسمت الدوقة متابعة:

- لا! هناك دائماً شيء أكبر. ولن تجد وراء أفظع الشرور التي يمكننا تخيلها علّة غرامية، وإنما قهقهة ما شديدة الضخامة.

- ومن يضحك؟

- القَدَر.

واستنكر رومولو ذلك. وألحّ على «دافع الحبّ الذي ينقذ كلّ شيء». وتظاهرت أنها لم تعِ شيئًا. وعقّب:

- لمّا جئتُ هنا مثلاً بُعيد القصف، لم أجدْ شيئًا مما قلتِ. كنت أفكر فيما رأيته للتوّ تحت. ولما دخلتُ كان النقيب ما يزال صريعًا على السجّادة. لكن،

لاضرورة لترديد كيف حدثت الأمور. فأنت تعلمين كيف حدثت، وحسبي أنا أن تعلمي. دخلتُ ورأيتك. ورأيت هذا الوادي المغمور بالشمس في اللوحة الجدارية. اللوحة الموجودة في الطابق الأعلى. وكل شيء تغيّر وكل شيء صار مختلفًا. وزال الدم والخوف والبؤس من الحديقة.

- آه! إني أعلم ذلك. - أضافت هي منحرفة بالحوار إلى جهة أخرى. - إذًا، أصرت تدرك أن بمستطاعك الابتهاج بموت بلبينا؟

كان متردّدًا. لأن تلك الكلمات كانت مفرطة في قوّتها وبوغت بها. فلم يكن يألفها قط. لكنه قال:

لئن فهمتك، يا سيدتي، فهناك أشياء لن أستطيع فهمها طيلة حياتي.

- ماذا تعني؟

- لن أفهم لما تحيطين نفسك بأشخاص يعملون جاهدين على هلاكك.

وظلت صامتة، وتابع:

- إذا كان الأمر يقتصر على إنقاذك من أخطار «الحمر» فقط، لكان ذلك كله سهلاً عليّ. لكني، كلما جئت البرج، أحسست في الهواء بوجود أخطار أفدح كثيراً. فكيف أنقذك منها؟ كيف أنقذك من أصدقائك؟

ولاذت بلامبالاتها مرة أخرى.

- إذا أردتُ المخاطرة بحياتي، فما عليك سوى أن تخفض رأسك وتسكت. وإذا كان هذا لا يعجبك، فبإمكانك أن تشي بي إلى رفاقك.

وكان يفكر: «هي لا تولي حمايتي لها أدنى قيمة. كما لا توليها أحدًا آخر يحميها أيضًا». وكان يضع يده من حين لآخر على المشع وقد شُغل ذهنه باحتراق الجثّة البشرية التي أُلقي بها في المرجل. وإذْ كان يقوم بذلك، كان يرتسم على وجهه

تعبير من الشك خفيّ. وكانت الدوقة تنظر إليه مثارة الأعصاب. ولوى رومولو وجهه بعد أن لمس المشعّ رابع مرة. وقال:

يدافع الأموات المساكين للحفاظ على برودتهم، كما يحمي الأحياء حرارة أجسامهم.

ووضع يده مرة أخرى على المشع. وكانت الدوقة تتحاشى النظر إليه. وقال:

فلتترك السيدة هذه الحجرات في البرج. ولتنزل الأقبية حيث النوافذ سليمة لم تتحطم. أو فلتصعد إلى السقائف تحت الجمالون. وهناك لن يعثر عليها أحد، وهي مكان مريح يمرّ منه أنبوب التدفئة الرئيس.

ولما رآها لا تنبس بكلمة، حسب أنه يشجعها قائلاً:

- لتكن السيدة متعقّلة!

لا حجرات القبو ولا السقائف كان لها منفذ مباشر إلى الشارع. وكانت الدوقة تعلم ذلك تمام العلم. فعقّبت:

- هناك فرق في طريقتنا في رؤية ما التعقل.

- كلمات! - قال رومولو باحتقار. وأضاف وقد حُلّت عقدة من لسانه.

- لا فرق بيننا سوى أنك امرأة وأنا رجل.

ولما رأته ينهض ويدنو، نظرت إلى المسدس فوق المنضدة الجدارية. وكان يبدو أنها تقيس المسافة التي تفصلها عنه. واقترب من المنضدة وأخذ السلاح بهدوء ودسّه في جيبه. وكانت ترقد خلف هذا الهدوء ثورة كبح جماحها. وكان يصعد حتى عينيه عنف ذلك الخطر، وعنف ذلك السلاح، «لها عشيق!» كان يقول لنفسه مغاظًا:

- اختلافنا فقط في كونك امرأة. امرأة! - كان يردّد بصوت خفيض. - أنا أعرف هذه المرأة. لقد رأيتها. رآها الرجل وحملها في عينيه إلى الأبد، ودخلته هذه المرأة عبر العينين وتسلّلت حتى لبّ العظام. وصار يحملها يقظانة أو نائمة، وبكلّ ما تشكّله وما تفكر فيه، وبكل ما تقوله وما تسكت عنه. يحملها كما هي. أنا رأيتها، وإني أراها الآن. أنا، أنا رجل. نعم، أنا رجل. ولو تعرّيت فأنا رجل، كما السيدة امرأة. أذهب إلى المسبح وأتعرّى. ولوشئت السباحة لسبحتُ. وقرأت كتاب الملك والملكة. في صميمي أنا رجل، وأنا رجل بتفكيري وبإرادتي وبدمي. ألا ترينني يا سيدتي؟ انظري إليّ جيداً، إن لم تكوني رأيتني. انظري إليّ نظرتك إلى رجل، وليس إلى شبح. وانظري إليّ كما تنظرين إلى نفسك كامرأة.

وتقدّم نحوها، فتراجعت.

- أنا لست امرأة، يا رومولو!

وكان يردّد في نفسه: «لها عشيق!» وبسط يده حتى بلغت كتف الدوقة، ونزع المعطف عنه بجذبة واحدة من ذراعه، وبدا جذعها تحت المعطف عارياً. كانت تلبس بناطيل منامة زرقًا، لكنّ الثديين والمتن كانا عاريين. أمسك المعطف بيده وظل يتقدّم وهو يجرّه. وعقدت الدوقة يديها فوق صدرها. ولمح في حيائها هذا نوعًا من التكريم له وقال:

إذا لم تكوني امرأة، فكيف تسترّتِ؟ لا تتسترّي. فأنا على معرفة بك. لِمَ تستترين الآن وليس ذلك اليوم؟

كان ما يزال يتقدّم وهي تتراجع. ثم أسبلت ذراعيها. فبدت وثنًا من عاج. فرفّ رومولو بجفنيه خائبًا ناظرًا إلى الثديين العاريين وقد جرحته القحّة.

- نعم. أنت هكذا أفضل. لقد رأيت جسدك من قبل. رأيت هذا الجسد الذي ينبعث منه ومن هاتين العينين اللتين يتجلّى فيهما الذعر الآن، وكانتا من قبل

تهزأان بي، ينبعث النور الذي يجعل كل ما في هذا العالم أجمل من كل ما في العوالم الأخر؛ مما في هذي العوالم التي تحلم بنا، تحلم بك وبي، تحلم بي أيضًا. تحلم بي إذْ أراك عريانة الآن.

كان ينظر إليها بعينين ينطلق منهما بريق، وكان صوته يرتعش. فتلعثمت:

- أنا بردانة!

- ألا تحرقك عيناي كأنهما جمرتان على الجلد؟ أم أن عيني ليستا عيني رجل؟ ألذلك، لا تسترين ثدييك بيديك كما فعلت من قبل؟

كانت الدوقة ترتعد كما يبدو. وحاولت مرتين أو ثلاث مرات أن تستتر، لكنها ظلت عارية الثديين ناظرة إلى عينيه نظرة باردة خالية من التعبير. وكان هو يرى فيها مجرد تمثال. كان يراها على شكل ضبابي غائم. وقصد نحوها، أو تنحّى عنها-إذا لا يمكننا القول إن كان يدنو أو يبتعد حقًا، وتعثّر بمصباح وبقطعة أثاث في الزاوية. وردّد:

- ألا تحرقك عيناي؟ ألا تصل حرارة دمي إليك؟

وما كانت تنبس بكلمة واحدة. بل كانت تنظر إليه وتسمعه ولا تجيب. فرمى بالمعطف إليها. فتدثّرت به، وغاص رأسها في طيّات الجلد. وتهاوت على «الديفونة» وأغمضت عينيها. وقال بصوت أجش:

- لكن، إن كانت هذه العوالم تحلم بنا وتعجب، فيجب علينا أن نكون جديرين بهذا الإعجاب، أن نكون ما نحن عليه حقًا. أن تكوني أنت امرأة، وأن أكون أنا رجلاً، أن نكون كذلك على شكل تام وحتى النهاية.

هي ما كانت تنظر إليه وما كانت تستمع إليه على ما يبدو وبعد مدة صمت طويلة، جالت في ذهنه فكرة أنها قد تكون غافية. فقد كان رأسها منكّسًا. وعيناها مطبقتين. فقال مغمغمًا وقد صار أهدأ بالاً.

- انظري إليّ. أو على الأقل اسمعيني. كل الخطر وعدم الأمان يأتي من شيء واحد: هو أن السيدة لا تسمع لي. فإذا تمحورت الشكوك على كلمات الحارس الذي تحدّث عن «دفقة نور» فسوف تكون القاضية عليك. ولسوف تُقتلين. وإذا قُتلت، فإن العالم كله-أتسمعينني؟- العالم كله سينهار هو أيضاً.

عاد إلى هيجانه مرة أخرى. أما هي، فكانت البسمة ترتسم على عينيها. بسمة لم يكن يدرك مغزاها. لأن الدوقة و إن كانت في الحجرة قربه، فإن بسمة عينيها تلك كانت تحملها بعيداً. فكانت ترى في خيالها أشياء أخر، وتضحك من أشياء، ما كان هو يبلغها. لكنها تكلّمت أخيراً:

كلنا هالكون، ثم ماذا بعد؟

وراح ينظر إلى المصباح المركزي في الحجرة الذي كان يرتسم على زواياه الثلاث صور حوريات ذات أثداء صلبة منتصبة يشع من انحناءاتها ضوء كالضوء الذي يشع من ثديي الدوقة. وكان يفكر وهو يتنفس بمشقة: «هي على صواب. وكانت على صواب دائماً. سبعة عشر عاماً من حياتي ضيّعتها. هي خير سنيّ شبابي. ولعل الناس جميعاً يضيعون شبابهم، أعني حياتهم. لكن البعض منهم يعوّض عنها. وهذا لا يعني أني ارتكبت جريمة، أكبر جريمة لمّا سمعت ذلك الصوت منذ عشرين عاماً، وما كنت أرغب في سماعه». أمّا ما قال لها فكان التالي:

- أريد أن أسألك سؤالاً.

فلم تجبه. وخجل من عنفه إذْ رآها خرساء محزونة. لكنه ألحّ.

- أريد أن أعرف من قتل النقيب.

وما كانت لتجيب، لكنها قالت بعد صمت طويل:

- ما أفظع استمرارك في هذا الحديث!

في الواقع، كان كل شيء يبدو أنه تعرّض منذ ثمانٍ وأربعين ساعة إلى غزو برقات الجنون. وقال:

- إذا عزمتِ على الرحيل عن مدريد وعن إسبانيا، ففكّري في ما يمكن عمله. واعتمدي عليّ. ولسوف نرحل معًا.

- كلا! هذا لن يكون.

- إذًا، ارحلي وحيدة.

ونفت الدوقة بهزّة من رأسها.

- لا أظنك تصنع شيئًا لمساعدتي على الخروج من هذا المكان.

وسمع مرة أخرى أصوات شبابه. وبسماعها لمس المشعّ أيضًا، مخمّنًا من درجة السخونة إن كانت المراجل مشتعلة أم لا. قال:

- لا أهتمّ لشيء في الحياة اهتمامي بأمن سيادتك. لذلك أعدّ لنفسي حقًا بسؤالك شيئًا كما يسأل رجل امرأة.

- كما يسأل رجل امرأة؟

- نعم!

- لكن هذا محال.

وشحب وجه رومولو. فقد كان ينوي أن يسألها شيئًا بلهجة مرّة. لكنه عدل عن كلماته لما همّ بالنطق بها.

- إذا لم تكوني امرأة، فماذا تكونين؟

فردّت:

- أنا؟ أنت قلت من قبل: أنا حلم.

فدنا منها أيضًا. ونهضت مرة أخرى وعلى وجهها علائم ذعر. وأمسك بها من خصرها وضمّها إليه بعنف. وشعر بها تضطرب بين صدره وذراعيه بقوّة أدنى من قوة كبحها له. وما كانت تستطيع الفرار، وما كان هو يريد أن يرخي قبضته عنها. كانت ثاني مرة يضمها إلى جسمه منذ ذلك اليوم الذي أرادت فيه أن تصرخ «بحقيقتها» من النافذة.

- حلم؟- قال رومولو.

ورأت في عينيه أضواء صفراً كالأضواء المنبعثة من عيون القطط.

- أفلتني، يا رومولو.

- أأنت حلم؟

- رومولو!- قالت يائسة وهي تنظر إلى باب المخدع. - لسنا في خلوة.

فخلّى عنها ناظرًا إلى حيث كانت تنظر. فلم يرَ أحدًا. وابتعدت هي عنه. وتقدّم صوبها ملوّحًا بيديه في الهواء كالأعمى.

- إذا لم نكن وحدنا وفي خلوة، فمن الشخص الآخر؟

ووقف قرب باب المخدع. كان يريد أن يقتحمه ليرى من فيه، إن كان فيه أحدٌ ما حقًا. لكن إحساسًا غامضًا باحترام حياة الدوقة الخاصة كان ما يزال يقيّد خطاه. وجلس على «الديفونة» وتكلّم ناظرًا إلى باب المخدع.

- إذا لم نكن وحيدين، معنى ذلك وجود أحد ما. فمن هو؟

وكان يفكر: «ليكن من كان، فسأعدّه غير موجود. لأنه يسمعني ويصمت. لأنه يعلم أني جرّدت الدوقة من ثيابها وعانقتها. ومع ذلك يسكت». وكان يتنصّت وكأنه ينتظر جوابًا عن أفكاره. وما كان يُسمع همس أحد. وجلست الدوقة مرة أخرى وأطبقت عينيها وأخفت رأسها بين طيّات جلد المعطف متفكرة: «هذا رهيب!

لكن الذنب لا يقع على عاتقه». وأراد أن يلج مخدعها، لكنه فطن إلى أن ذلك المكان: «مخدعها»، فأحجم. وداهمته فكرة: هذا الاحترام ما هو غير طريقة بالتسليم بأن يقتصر على ما هو معقول. وينبغي له أن يكون وفيًّا لرومولو أيام شبابه. فنهض وقصد المخدع الذي كان غارقًا في الظلام. كان يروح ويجيء فاتحًا خزنًا. ثم سُمع وهو يفتح باب الحجرة الأخرى، ودخلها. وكانت تتجلّى في عجلته نيّة عدوانية. وكانت تنظر إليه بهدوء من عند الباب، ثم عاد.

- أين هو؟ أين من أشعل الضوء الكاشف؟ من قتل النقيب؟

وظلّت هي على صمتها. وازداد قربًا منها:

- أين هذا الرجل؟ هذا الذي يجيء ويضاجعك ليلاً؟

وامتقع لونها وومضت عيناها وشدّت على نواجذها غضبًا. وكانت توحي بانطباع أنها أقوى من كل ما يحيط بها. وبدا أنها تنبذ نقمتها الذاتية، وصاحت:

- لا تستطيع أن تكون غير من أنت.

- أنا؟ من أنا؟

- أنت تعلم من أنت.

- نعم. أعلم من أنا. أنا رجل.

ولاذت بالصمت. وكان ينظر إليها بقلق أخرس، لكنها لم تكن تتكلّم. وجلست متعبة جداً وأخفت وجهها بين يديها. وكان يحسبها تبكي. وإذا بكت صار محالاً أن يكون قاسيًا أو عدائيًا.

- معذرة، يا سيدتي.

كان يخاطبها أحيانًا بالصيغة التي يستعملها الخدم -أي بصيغة الشخص الثالث وأحيانًا أخر بلغة المجاملة المألوفة. ولم يلتفت إلى هذه النقطة. ولما كشفت عن وجهها رأى أنها لم تكن تبكي.

- أنت مجنون، يا رومولو.

وأكّد قائلاً:

- لكنني لست مجنونًا كما ترغبين. ألا تحاولين إقناعي بأني مبتهج لموت بلبينا؟ ألا تريدين مني أن أضحك لكارثة الأمس؟ ألا تريدين أن أتسلّى مفكرًا في نفسي محتبسًا في هذا المصعد لمدّة أربع وعشرين ساعة مع جثّة؟ أوليس ذلك كله الجنون؟

خشيت أن يُثار مرة أخرى فتحدثت إليه بلهجة إقناعية:

- أنا لم أطلب إليك ذلك، يا رومولو.

- إذًا، ماذا طلبت مني؟

- أن تكون أقوى من كل أشكال الجنون المحيقة بنا.

وكان ينظر إليها من غير أن يتكلّم.

- ولأي شيء؟- سأل بعد مدة صمت طويلة.

- أنت تعلم أني بحاجة إليك.

- أولست على مستوى حاجتك إليّ؟

- لا!

- ماذا بوسعي أن أصنع بعد.

كانت تتكلّم بحلاوة فيها ودّ تقريبًا.

- أنت ترى ما يحدث. فقد صار العنف والجريمة يلفّاننا إلى الأبد. وأنا بحاجة إلى أن تكون هادئًا، مطمئنًا قادراً على إنقاذ نفسك وإنقاذي.

كان يبتسم دون أن يتكلّم. وكان ينظر إلى لوحة ثورْبَرَان، ورأى ذلك القدّيس في حالة وجد، وتأمل بعد ذلك الجمجمة عند قدمه-جمجمة فمها مفتوح

حتى تبدو أنها تغنّي. وما كان يعلم ماذا يقول. ولمّا رأته متردّدًا، أضافت رافعة صوتها وناظرة إليه وجهًا لوجه:

- اذهب واسهر على التدفئة. وانظر إن كان كلّ شيء في محلّه. فلو بقيت قرينة واحدة فسوف يُكتشف أمرك. وسوف يُعلم فوراً أنك القاتل.

كانت تتكلّم وكأن رومولو متهم بقتل النقيب. وأضافت إزالة لكل شبهة.

- قد تكلّفك هذه الجريمة غاليًا جداً.

- تكلّفني أنا؟

- نعم. تكلّفك.

وأحبّ أن يبتسم.

- لكنّي لم أقتل.

- بذلك لا تحلّ شيئًا. مسرح الجريمة هنا. وإن أحداً ما اقترفها.

- إن اقترفها أحد ما، فمن هو؟

وكانت تنظر إليه دهشة:

- آمل ألا توجّه التهمة إليّ.

ولم يستطع رومولو فهمها.

- أنا أبذل رأسي عن رضا فداء رأسك، يا سيدتي، إن حان وقت قطافه. لكنّي لن أبذله فداء أحدٍ سواك.

وقالت الدوقة متألّمة:

- كل الأخطاء على عاتقي.

وأنكر ذلك:

- هذا ليس حقًا. ولا يمكن أن يكون حقًا.

- هو حق، يا رومولو. لكن، ما أهميّة ذلك على كل حال؟ سِرْ وظلَّ وفيًّا لحلمك. ألا توجد علّة فوق كل هذا الدم، فوق كل هذا الخراب؟

- هذا ما أؤمن به.

- إذًا، انصرف وأدِّ واجبك.

وكان يقول لنفسه: «قد لا يعود العشيق مرة أخرى بعد ما جرى». وكانت الدوقة ما تزال تأمره بنظرتها أن ينصرف. ودهشت من أنه لم يطعها بعد، لكنّه أخذ يفكر: «حجراتها خالية من الأزهار. لأن الزهور في الحجرات العليا. وهي متناثرة مهشّمة على السجّادة، وبعضها ملطّخ بالدم. هي كزهور النقيب الجنائزية». وسلّط ضوء مصباحه على لوحة ثوربران التي ما تزال الجمجمة تغنّي في الجانب السفلي منها. وتنبّه إلى أن الصباح أوشك أن يطلع، وأن واجبه يقضي أن يخرج قبل شروق أول شعاع ليهتف بالهاتف من مكانٍ ما ليسوّغ غيابه. وشرع ينزل الدرج ببطء، وتعثّر بحذاء النقيب حتى كاد يسقط أرضًا.

من مذكرات الدوقة:-

«لما أطفأ إستْبان الليلة ما قبل الفائتة أضواء الحجرة، وفتح النافذة وأشعل المصباح الكاشف ثأرًا لموت الدوق -حسب زعمه- قلت له: أأنت مجنون؟» فقبّلني دون أن يجيب: «لسوف تطلق النار علينا. سوف نُقتل». هو كان يضحك مني ويقول: «في كل ما نقوم به مخاطرة وتهديد. ولا يستطيع ابن أنثى أن يتجنّبهما».

إذًا، نحن «والحمر» في الخطر سواء. وهذه الواقعة كانت تجعلني أقبل الأمور قبولاً حسنًا. فقد راودتني الفكرة ذات لحظة في الانتحار، وأنهار واقفة بين حطام بيتي ذاته.

«ثم جاء هذا النقيب البائس. وزاد مجيئه في الأمر سوءًا. ولبث إزائي ساعات وساعات إلى أن...

«نام (الشيطان) فوقُ أي في الطابق الرابع. ولقد انصرف، لكنّه سيعود».

«أنا في عين الإعصار ذاته، ومنحنيات الخطّ البياني تزداد ضيقًا. فما العمل؟»

«هو يقول لي عين ما كنت أقول لزوجي: عليكِ أن تعرفي كيف تخسرين».

«لكنه يقول لي أشياء أخر كثيرة حول القسوة، والطبيعة الإلهية للقسوة، لاأجرؤ على كتابتها».

«الحقيقة أنّ في كلامه شيئًا من الصدق. لكن، ينبغي لي أن أكون حقًا على حذر من رجل مثله. وكلّما راكم فظائع، أحسُّ بنموّ شعور في داخلي يشبه الإعجاب، وأزداد ثقة بنفسي».

تركت الدوقة الكتابة وراحت تتعرّف على تلك الحجرات الجديدة، التي لم تكن ألفتها بعد. وشاهدت على المنضدة كتاب على خطا الممالك إضافة إلى الكتابين الآخرين. وتابعت تحرّيها المكان. فعثرت في إحدى الخزن على رزمة كبيرة من قماش فيها ثوب قديم ذو لون ناري مطويّ على بعضه، وتبرز منه بطانة من نسيج أخضر مهلهل. كانت صرّة ضخمة، ألقت عليها الدوقة في البدء نظرة شاردة. «رومولو يبذل رأسه في سبيلي. لكن ليس في سبيل إسْتبان، حسب

زعمه. لكن، أليست النتيجة واحدة على كل حال؟» ونشرت ذلك القماش. «إنه الرداء الأخضر». كان يُسمّى الرداء الأخضر لسبب غير معروف، وكان يمثل زيّ أحد أنظمة الفروسية المنقرضة.

ولمّا نشرته سقط على الأرض منه نوع من الطُرح المطرّزة كانت تُستعمل إبّان طقس المناولة في السرير في حالة المرض. وسقط من داخل الرداء أيضًا قطيع مرح من الدمى، وكأنها وُلدت منه ولادة، وتدحرجت على الأرض واتّخذت أغرب الأوضاع وأطرفها. دمى متحركة كان يلعب بها قهرمان عجوز ليروّح عن الدوقة في طفولتها. «إذا فقد رومولو رأسه، فماذا يعنيه إن فقده في سبيل هذا أو ذاك؟».

كانت الدمى ذات أشكال شتّى. بعضها بالزيّ العسكري، وبعضها الآخر بزيّ الفلاحين؛ أو يرتدي سترات. بعضها يمثل أميرات وملكات. وبعضها فلاحات شابات، وكان بينها قاضٍ أيضًا. وقد سقط بعضها بأوضاع مضحكة معقود الذراعين أو باسطهما. راحت الدوقة ترتّبها في وضع الجلوس مستندة إلى مسند «الديفونة». ولما صفّتها كلها نظرت إليها ساخرة وقالت:

- لِمَ ظهرتن الآن، وفي هذا المكان؟

وكأن ظهورها تمّ بفعل سحر. ذلك السحر الذي يحيق بها. يقينًا، كان رومولو يرفض القبول بتحمل المسؤولية كلها، ويحاول أن يفرّ من الحلقة السحرية التي كانت تحصره فيها. وتذكّرت وهي تنظر إلى القاضي: «كان القهرمان الذي يحرك الدمى في طفولتي، درس في شبابه ليصبح خوريًا، وكان يهرف أحيانًا ببعض الكلمات اللاتينية. وكان من عادته أن يقول للقاضي بعد أن تنتهي مهمته Act est fabula (تمت اللعبة). وأخذت الدوقة دمية أخرى تدعى الملكة:

إيبوتِنوسا. وتذكّرت أن القهرمان كان يحدث صوتًا غليظًا بأنبوب معدني صغير يضعه في فمه كما يفعل المهرّجون عادة في حدائق الأطفال. حفظت الدوقة الرداء الأخضر في الخزانة، وتركت الدمى خارجها، وكانت تنظر إليها وتفكر بقليل من الكآبة: «لها مظهر هيئة محلّفين». وكانت كلما نظرت إلى الدمية الملكة إيبوتِنوسا، تذكرت كتاب على خطا الممالك الموجود فوق المنضدة، والذي طالما قرأته. وتردّد في نفسها: «الرجل هو الملك. والملكة هي حلم الرجل، والاثنان معًا يشكلان المملكة التي تدير العالم،». وإذا فكرت في هذا الملك ـ الرمز، فإنها تجسّده في رومولو وليس في إستْبان. رومولو، إذًا، هو الملك. وربما كانت هي الملكة، كانت الطموح المثالي. وكانت على وشك أن تضحك. لكنها رأت الملكة إيبوتِوسا تبتسم. ثم ما لبثت أن تجهّم وجهها فورًا لما مالت برأسها جهة مسند «الديفونة».

IV

غادر رومولو البيت من ذات المكان الذي كمن فيه ذات يوم للدوق في الظلام . وأوحى له الصمت ووحشة الشوارع بالشؤم . ولاحظ أول ما لاحظ أنه كلما ابتعد عن القصر ازداد شعوره بالانطواء على نفسه والانغماس في مشاكله . وراح يطوف الشوارع المقفرة حتى الصباح . حينئذ وجد صيدلية مفتوحة ، فدخل ليهتف إلى القصر فردّ عليه أحد الرقباء ، فسأله إن وجدوا حاجة إليه لما كان غائباً . وبيّن أسباب غيابه كما كان أعدّها . وقال بلهجة من يأسف على شيء : «إذا اضطررت في مرة قادمة إلى أن أغادر ، فسوف أترك لكم المفاتيح» . وطمأنه الرقيب ، وسأله عن النقيب أوردونييث ، فأبدى رومولو دهشته :

- ألم يُسيّر إلى الجبهة؟

وما كان الرقيب يعلم من الأمر شيئاً . فبيّن له رومولو أنه سمعه يتكلّم عن انتقال وشيك إلى خطّ النار الأول .

ثم سار باتجاه الجسر الذي يفكر أن يهبط منه إلى شارع سيغوبيا . فرأى وراء باب حديدي حديقة صغيرة في وسطها تمثال من الرخام يمثّل فينوس وقد غطّت ثدييها بذراعيها أيضاً . وتبسّم عند رؤيتها .

وصل منزله الساعة الثامنة . وكان جنود الكتيبة المضادّة للدروع قد بدؤوا تدريبهم . وقصد القبو فوراً . واضطجع في حجرته على السرير مفكراً في أنه نسي

كل ما هو مُحبط في موقفه، وكان يسمع ضوضاء المعركة بعيداً. «في هذه اللحظة يسقط جندي». «يسقط» عند رومولو أن يكون المرء كما كانت بلبينا التي انثنت ساقاها في كل الاتجاهات، واحترق شعرها. «في هذه اللحظة ذاتها عشرات من الرجال يُحتضرون. وما أهمّية ذلك؟ كلهم يقاتلون تعويضًا عن حياة ماضية ضائعة، وفي هذا التعويض المجيد لا مفرّ من إراقة الدماء». ذهب إلى الحديقة ودنا من المراجل ليرى إن كان جثمان النقيب قد احترق احتراقًا كاملاً. فلقي رجل الميليشيا الصموت الذي قال له:

وما أخبارك أنت؟

ولم ينتظر جوابًا بل أضاف إن النقيب أوردونييث اختفى.

- بعضهم يزعم أنه انتقل لا محالة إلى معسكر العدوّ. وأنت ما رأيك؟

- لا أصدق ذلك. - قال رومولو متهرّبًا. - لكنّ صلتي به كانت ضئيلة، ولا تعرف نوايا الآخرين على حقيقتها قط.

ونظر إليه عضو الميليشيا نظرة لا مبالية غامضة.

- ما أقوله أنا، لا يمكننا الثقة بالعسكريين المحترفين.

ولم يشأ رومولو أن يقول شيئًا محدّدًا. وسأل:

- وما رأي الآخرين؟

- أبدوا آراء مختلفة، حتى قال البعض إنه ربّما اغتيل.

- من يقول ذلك؟

- أنا؟

وضع عضو الميليشيا يده في جيب بنطاله وأخرج منه دبوس ربطة عنق وشعاراً بلونين وهما الشارتان اللتان كان يستعملهما النقيب في العادة. ثم عرضهما في راحة يده. وكان على الشعار نقطة غامقة في الجانب الخلفي.

- إنها بقعة دم.

فقال رومولو:

- ممكن!

وأراه رجل الميليشيا أغراضًا أخر. أحدها زرّ بزة عسكرية.

- أتراه يا سيد؟ نُقشت عليه صورة قلعة. فقد كان النقيب من سلاح المهندسين. وهذا الزرّ يُستعمل في زيّهم الرسمي.

- أين وجدته؟

- التقطته منذ نصف ساعة من الممشى قرب الدرج. - وأضاف- مارأيك؟

فأبدى رومولو عدم اكتراثه، لأنه كان على عجلة ونافد الصبر. وكان يريد أن يتحقّق بأسرع ما يستطيع من أن الاحتراق كان كاملاً. لكن التحقّق كان محالاً في رابعة النهار وبحضور هذا العنصر. فقال إنه يمكنه الاعتماد عليه من أجل إجراء تحرّيات، ثم انصرف. فسار إلى البرج وحكى للدوقة حواره مع عنصر الميليشيا، فقالت:

- هذا الرجل يشك فيك. ولسوف يعلم أنك الفاعل آجلاً أم عاجلاً

وشعر بالدهشة على شكل رهيب.

- أنا؟

لكنها سألته ماذا يقال أيضًا حول النقيب أوردونييث. فهزّ كتفيه: «لم أسمع منهم شيئًا آخر. لقد وصلت لتوّي». فقالت له بغتة متوترة الأعصاب:

- ينبغي لك أن تعيد إليّ المسدّس.

فأخرجه وسلّمه لها، ودنا من المشع ووضع يده فوقه بحركة تثير القلق. وبدا على الدوقة أنها لا تراه. لكنها حانت منها التفاتة كأنها حُيَيْيْن على وشك أن يعض.

- لا تضع يدك عليه مرة أخرى.

فجلس على «ديفونة» وأخذ إحدى الدمى التي كانت وراء ظهره. كان للدمية ذراعان ينتهيان براحتين صغيرتين بلون الورد. وكانت تحرك رأسها فوق قبضته وتعقد يديها أمام فمها أو على بطنها. هذه الحركة الأخيرة كانت تبدو أحيانًا إشارة فيها صفاقة. - فكر رومولو. - بيد أن الدوقة كانت تبتسم. بحث عن الدمية قاطع الطريق ركَنْديلاس، ووضعها في اليد الأخرى. وتبسّمت الدوقة مرة أخرى لما رأتهما تدنوان من بعضهما في الهواء وتنحنيان محيّيتين بعضهما بعضاً.

وتنبّه إلى أن الدوقة تلبس ثيابًا تحت المعطف. وراح يفكر: «لا ترغب في أن تعرّض نفسها لخطر مشهد مثل ذلك المشهد». ووعدها بأن يعدّ لها جلسة تمثيل بالدمى جديرة بتلك التي كان يعدّها القهرمان في طفولتها.

- أنت سعيد! - قالت وهي تنظر إليه بحنق.

- أسعد منك.

- نعم. سهل عليك أن تكون أسعد منّي. أنت تراني أضحك بيسر، لكنك تعلم أن ضحكتي تخلو من الفرح.

- ماذا فيها، إذاً؟

- يأس وغضب.

- على من؟

- على العالم كلّه!

وفكر : «ما أغرب أن تتكلّم الدوقة هذا الكلام!» ثم فكر في وضع يده على المشعّ . لكنه أحجم عن ذلك . ونظر إليها إذ رأى عجزه عن الإتيان بتلك الحركة . وكان على وشك أن يأخذ دمية أخرى لما سمع أصواتًا في الحديقة . فقالت له الدوقة على عجل :

إنهم ينادونك ، يا رومولو .

كان يخشى أن يصعد البرج أحد ما باحثًا عنه ، وكان تلك اللحظة ينظر شارد الذهن إلى السجادة محاولاً أن يجد آثار حذاء رجلٍ . فنهض متثاقلاً ونزل الحديقة واجتازها من جانب إلى آخر . وجلس إزاء حطام منزله لما لم ير أحداً . وأخذ ينظر إلى صفوف الآجرّ ورزم الأسلاك المعدنية التي جمعت بترتيب «أنا لا أفرح لموت بلبينا . - كان يقول لنفسه . - وإن كنت لم أفرح أيضًا لسعادتها لما كانت على قيد الحياة» . وانتظر أن يُنادى مرة أخرى . لكن الوقت كان يمضي ، وما كان يبدو على أحد أنه يكترث به . وكان يتأمل الدمار الذي ألحقه القصف بالعشب وبأرض الحديقة . فوجد ثلاث حفر ضخمة أحدثتها القنابل . وكان أشار على أعضاء الميليشيا بضرورة إصلاحها . وأجابوه جميعًا متهرّبين ما عدا إستراديرا الذي وعده بالمساعدة . ولما رآه حينئذ ، قال له :

متى نبدأ العمل؟

وأشار إسترادیرا إلى الضمائد حول رأسه كعلّة لتأجيل ذلك العمل . ونكت رومولو بلسانه مستاء .

عاد إلى حجرته في القبو محزونًا لأنّ أصواتًا شبحية انتزعته من حضرة الدوقة . وبحث إبّان وحدته عن أُنيبيب من المعدن . فوجده عند مقبض فرشاة رسم موضوع داخل زجاجة عطر . وحاول أن يحصل به على ذات الصوت الذي كان يسمعه في طفولته من لاعبي الدمى . واستطاع أن يحصل عليه بيسر . ولبث يجرّ به الصباح كله . فقد كان بحاجة إلى أن يقول شيئًا ما . وكان يتوجّه إلى نفسه بذلك الصوت الذي فيه شيء من مواء قطّ في الشبق .

«هي قالت بلسانها: أنت سعيد. لكنها هي ليست كذلك. والموت حطّ على الحديقة من نافذتها، وسقط على بلبينا كما سقط على كثيرين آخرين يريدون أن يعوّضوا عن شبابهم، مثلما تعوّض أنت عن شبابك. ومع ذلك، تغفر لها خطاياها. ولايقتصر الأمر على الغفران فقط. وإنما أنت مستعدّ لتعليق جثّة بلبينا بعنقك مدى الحياة لو أقررت بأنك فرح لمقتلها. فلا تفرح يا رومولو. وإمّا لا، فسوف يكون ذلك أول نصر يحرزه عليك العشيق. سيكون أول خطوة لهذا الرجل داخل ضميرك، يا رومولو. وإذا دخله فسوف ينخر فيه كما تنخر الدودة الثمرة».

وساد سكون، تردّد خلاله في أقرب ركن من قاعة السلاح، صدى. وكان يبدو أن ذلك الصدى الفظّ ينطلق من الممشى ويعود إليه. وسوّى رومولو من وضع الأنبوب المعدني في فمه، وتابع: «كل شيء تغيّر. ودارت الحياة دورتها، وأخذت تقترب منك عبر الدم والموت والجريمة والحرب. لئن لم تسعَ وراء الحياة في سنيك الأربعين الضائعة، فها هي تُقبل باحثة عنك في ركنك المعزول. فما العمل؟ الحياة هي الحياة. وتبدو الدوقة في أحسن حالاتها وأقواها. هي تسخر من الحياة، ومن الموت، لكنها لا تسخر منك. أوربّما تسخر منك أيضاً ولا تدري. تستطيع السخرية منك في حالة واحدة، إنْ طلبت منك أن تبذل رأسك ثمناً لموت النقيب وكأنك قاتله».

وانتفض لما سمع نفسه يتكلّم من خلال الأنبوب الموضوع في فمه.

- «ماذا أصنع هنا؟»

لما سأل نفسه هذا السؤال أول مرة، كان الصوت ما يزال يخرج مشوّهاً. فنزع الأنبوب الصغير وحفظه في جيبه وغادر الحجرة. اجتاز الحديقة مرة أخرى منتظراً دون جدوى أن يناديه صوت الشبح من جديد. وسأل نفسه أنْ رأى نوافذ الحجرات السفلى من البرج -الحجرات الموصدة. - «ألايكون صوت بلبينا هو الذي يناديني، كما كان ينادي ذات يوم صوت الدوقة الأم؟» عاد إلى الطابق الثالث. ولمّا مثُل أمام الدوقة قالت:

لِمْ أنمْ. وأنتَ لم تنم أيضًا. ولم ينم أحد. لم لا ينام أحد؟

شرع ينظر مرة أخرى إلى السجّادة باحثًا فيها خفية عن آثار مجهولة، وحسب أنه وجدها عند قدم «الديفونة» في أقرب مكان من باب المخدع. وقال إنه فكر مرات عدّة في الذهاب إلى الجبهة متطوّعًا. وأضاف إنه إذا كان لا يستطيع أن يصنع شيئًا لضمان أمنها، وإذا كانت هي مصرّة على الإقامة ها هنا، وعلى استقبال زوّار، فهو يعدّ الذهاب إلى الجبهة حلاًّ ملائمًا له. وكان ينظر إلى الدمى لمّا سمع الدوقة تقول:

- أتذهب في حين تشتدّ الأخطار حولي من كل جانب؟

- هو ذاك بالضبط. إذا كنتِ أنت تريدين هذه الأخطار، فماذا أنا صانع؟

وقالت بلهجة طبيعية ونزق مخيفين:

- قدّم رأسك كما تقول.

ونظر إليها مستغربًا:

- أقدّمه من أجلك. لكن، ليس من أجل أحد آخر. أفضّل الذهاب إلى الجبهة وأجرّب حظّي بشرف كما يفعل الآخرون.

نظر إلى الدمى، فرأى «القاضي» بينها يميل برأسه إلى جانب قليلاً. وكانت صفحة وجهه الملتحية توحي بأنه يضحك. وكان يمعن في النظر إلى تلك الدمى الحيّة جدًا والمعبّرة جدًا، وبدا له أنها تسخر منه. فنهض وسار إلى حيث الدوقة وأمسك بها من ذراعها، بلا مبالاة كاملة.

- هذا الذي ترغبين في أن أبذل حياتي في سبيله، من هو؟

- أفلتني، يا رومولو. لا أريدك أن تبذل حياتك في سبيل أحد.

- أجيبيني: من هو؟

- لا تطلب مني أن أكون واشية.

- أريد منك أن تقولي لي من هو . ولِمَ تريدين إرغامي على الموت كالفأر لجرم لم أقترفه؟

وكان يبدو على جوقة الدمى أنها تضحك . واستطاعت الدوقة أخيراً أن تتحرّر منه، وأخذت تضحك هي أيضاً . دخل رومولو المخدع مرة أخرى . فلم يجد فيه أحداً . ثم خرج وقصد السلم وصعد الطابقين الرابع والخامس وتثبّت من أنها لاتحوي ديّاراً أيضاً . وراح يقول لنفسه : «هي وهو في مستوى يستطيعان منه أن يُلزما امرأً، وإن يكُ بريئاً، أن يموت موتاً حقيراً . وأنا لا أريد الارتقاء إلى ذلك المستوى» . حتى لو أراد الارتقاء إليه، فقد تنبّه إلى أن بلوغه ليس أمراً ميسوراً جداً . ولما عاد إلى حجرة الدوقة وقع بصره على الدمى مرة أخرى، وشعر باضطراب وضعه . وقالت الدوقة إن الطقس بارد، وإن ثلاثة مشعّات لا تعمل . وكانت تعرف أنها بإصدار الأوامر إليه، تستطيع حرفه عن انشداهه، وأضافت إنها تنوي السكن في طابق البرج الثاني إذا كانت المشعّات تعمل فيه . ورجته أن ينزل ليتثبّت منها . ونزل الطابق الثاني .

كان أثاثه ذا لون بنفسجي باهت . وبدلاً من لوحة ثوربران في الطابق الأعلى، وُضعت نسخة من لوحة القيامة لإلغريكو، التي كانت تبدو أنها مرسومة بالدم وأبيض الرصاص وأوكسيد النحاس . وكان يُرى في الحجرة الخلفية بداية درج من رخام يقود إلى الطابق الأرضي، إلى الحجرات التي قضت فيها نحبها الدوقة الأم . ولمّا عاد بيّن كل ذلك للدوقة التي أبدت عدم اكتراثها، وإن بدت علائم التعب عليها . ونزلا معاً . وتنقّل رومولو بين الطابقين مرات عدة حاملاً الأغراض التي كانت تطلبها . وكانت الدمى آخر شيء حمله . وتعثّر أكثر من مرة بحذاء النقيب . «ولربّما تعثّرت الدوقة به أيضاً»، قال لنفسه . وكانت تبدو الدمى بين يديه كائنات حيّة تستطيع الفرار . كائنات حيّة ليست على صورة بشر وإنّما على هيئة فراخ وأرانب .

كـان يتأهّب للانصـراف أخيراً، بعـد أن وضع وسـائد في النوافـذ ليس تجنّبًا لسطوع النور ليلاً، أو منعًا لتسرّب الهـواء البارد، وإنما لتخميد الأصوات أيضًا، لما سمع الدوقة تقول:

أرجوك، يا رومولو، لا تعد على مسمعي ما تكلّمت به اليوم.

كـان في لهـجـتـهـا رنّة رجـاء أثارت مـشـاعـره. «هي تحب هـذا الرجل رغـمًا عنهـا. - فكر. - ومن يَدري إن كـانت هي أيضًا تعوّض جـانبًا من شبـابهـا الضـائع، بذهابها إلى هذا الرجل؟» لكنه ما كان يريد القبول بهذه الفكرة. وما كان بمستطاعه أن يقبلها. وكان ذلك كل شيء، وطأطأ رأسه وخرج.

من مذكّرات الدوقة:

«ليلتان أخريان من القصف واللهو مع الشيطان».

«يبـدو أنّ رومـولو جـاهز لصنع كل شيء. لهـذا السبب، ينبغي لي أن أكـون جـاهـزة للخـروج مـرة واحـدة من هذا الـوضع أيضًا، وأجـرّب مـغـامـرة خـلاصي أوهلاكي، «أحتاج إلى البحث عن ثياب ملائمة. وإلى أوراق ثبوتية».

كـان ذلك الصبـاح قـاتمًا، حـتى بدا أن الـشـمـس رحلت رحـيلاً أبديًا. وعند العاشرة كـان كلّ شيء ما يزال مظلمًا كما كان في الصباح. طلب رومولو إلى لوبِث أن يسـاعـده على إصـلاح الأضـرار التي سـبّبتـهـا القنابل في العـشب. لكنهم كـانوا يصمّون آذانهم، كلّما طلب منهم ذلك. وفكر: «هم يخشون الاقتراب من الرفوش والمعاول، وكأنها ستعضّهم».

اقترب من المراجل ورأى أنّ النار أتت على الجسد تمامًا. وكـان الرماد يحفظ شكله الآدمي. فـأراد أن يـزيله بمحـجن من حـديد، لكنه لـم يجـرؤ. ولمّا عـاد لقي عنصر الميليشيـا الصموت الذي كان يبحث عنه. فأخبره أنه ذهب إلى مخبر البلدية في الحيّ وأنه عاد منه منذ قليل؛ وأراه دبوس النقيب مرة أخرى.

- حلّلت البقعة. وكانت دماً.

- وهذا ما كنت أقوله. - قال رومولو مسيطراً على اضطرابه، وأضاف بعد مدة صمت وجهد ضخم: - وأنت ما رأيك بما يكون قد حدث؟

نظر إليه عنصر الميليشيا وجهاً لوجه:

- سيُعلم آجلاً أم عاجلاً.

وراح يقلّب الدبوس بين أصابعه. ثم فاجأه بالسؤال:

- أين تقطن أنت؟

- في غرف القبو.

ومسح الرجل بنظرته كامل الطابق الأرضي من القصر.

- ألديك مدفأة حطب؟

- لا.

- كيف تسخّن القهوة؟

- لديّ موقد كهربائي صغير.

تلك الإشارة -كما فكر رومولو- كانت تضع عضو الميليشيا على جادّة الطريق: «لسوف أُقتل كما يُقتل كلّ جبان وخائن بائس، ولسوف أقتل بدلاً من الآخر».

كان الجنود يتدرّبون في أقصى الحديقة. وكانوا سيتوجّهون إلى الجبْهة حسبما تشير الدلائل. وقال رومولو:

وهل هؤلاء الشبّان مجهّزون للمسير؟

- نعم. سيُسيّرون ليلاً.

وأضاف العضو:

- تبديل الجنود يتم دائماً في الليل.
لكنه عاد إلى موضوعه:
- ذات يوم، ستريني مسكنك.
واقترح عليه
أتحبّ أن تراه الآن؟
تأمّله العنصر بنظرة بعيدة ورفض. ولمّا تركه رومولو عند باب المرآب، رجع إلى القصر مغموماً أكثر من ذي قبل. كان يعلم أن (فشكة) قد يتابع تحريّاته، وأنه سينتهي بشكل أو بآخر إلى الكشف عن كل شيء. فهو كان يسير في تقصّياته بخطا بطيئة، لكنها واثقة مطمئنة. وليس فقط أنه يشك فيه، وإنما لديه مخطّط صار جاهزاً، يقع رومولو بشكل ما ضمنه. ودنا من الجنود الذين كانوا يتأهّبون للخروج. فقال له أحد العرفاء:
وأنت، رومولو، ألن تذهب معنا؟
- تقول ذلك ساخراً. - أجاب- لكن آخرين غيري أسوأ تدريباً مني. فأنا كنت عريفاً في مراكش.
ولمح العنصر الصموت الذي كان يبدو أنه يتنصّت من بعيد. وتنبّه إلى أنه مُراقب، فسأل:
متى تخرجون؟
- عند حلول الليل.
وتلجلج رومولو، لكنه انتهى إلى القول:
- قبل خروجكم، سآتي لأقول كلمتي الأخيرة.
كان في ذلك الكلام ما يشبه الوعد، فتلقّاه بعض الجنود بالهتاف، وإن ظنّ تلك الهتافات استمراراً للسخرية منه. وما لبث غير قليل حتى صار إلى الدوقة، وقال لها دون قناعة كبيرة:

- سأرحل هذه الليلة مع شبّان الكتيبة المضادّة للدروع .

وبدا عليها أنها فوجئت .

- هذا تهوّر لا جدوى منه .

فقال وقد شحب لونه :

إذا لم أُقتل ، أحسب أنني سأحصل على إجازة خلال أسبوعين .

كان يبدو عليه الفرح . وكانت الدوقة تتفحّص ذلك الفرح دون أن تدرك مغزاه . وقالت :

من الغباء أن تنطلق على هذا الشكل .

ووعدها بالبقاء شرط أن تسمح له بسدّ منفذ السلّم تلك الليلة نفسها . فرفضت بحركة بطيئة من رأسها . وتأهّب حينئذ للخروج ، وقال مشيراً إليها وإلى العشيق :

إذاً ، كونا على حذر !

وأشاحت بنظرها إلى جانب آخر .

كل الاحتياطات لا جدوى منها ، كما أفترض .

أراد أن يقدّم لها وصايا حول أمور عملية -كالطعام والتدفئة ، لكنها قاطعته :

- لا بأس عليك ! انصرف .

ونظر إليها طويلاً وبصمت . وبجهد كبير شرع يسير . فقصد قاعة السلاح وبحث فيها عن سترة صياد ، وخرج من أحد أبواب الخدم إلى الحديقة ، وذهب إلى حيث المراجل وأزال بمحجن طويل الشكل الآدمي الذي كان ما يزال مرتسماً على

الرماد. فأثار فيه هذا الفعل إحساساً غامضاً بالتقزز. ثم انضم إلى الجنود وطلب عدّة النسّافين. ولما وضع الحمائل وأخذ حصته المقرّرة من القنابل وتنكّب بندقيته، دنا منه عنصر الميليشيا الصموت ونظر إليه نظرة بطيئة من غير أن يقول شيئاً. وما لبثوا أن غادروا.

ولما رآه رويث الذي كان يقوم بالحراسة عند الباب:

- هكذا يصنع الرجال يا رومولو.

ورافقته تلك الكلمات حتى قريباً من جسر (توليدو) حيث تشتت هناك، لكنه أحس، كما أحس المرّة الماضية حين خرج من البيت، بأنه أقرب إلى الدوقة من أي وقت آخر، وأن مشاكله زادت تأجّجاً، وقال في نفسه بفتور: «ربما أخرجتني الشرطة ذات يوم من الجبهة، وأطلقت عليّ النار في المؤخّرَة فماذا أستطيع أن أصنع؟ وماذا سأقول؟» وسقطت بعض قنابل الهاون قريباً من مرتفعات منثارث. ولما رآها الملازم أوريارته تنفجر خرج من سأمه ليقول:

- ما أحلاها طريقة في الاستقبال!

وكان يبدو عليه الإخفاق على شكل مضحك، فأضاف:

عساهم يستقبلوننا لآخر مرة بقنابل من عيار ١٥,٥ سم.

V

كـانت الدوقـة تنتظر «الشـيطان». لكنه لم يجئ خـلال الليـالي الثـلاث التاليات. وكان شعورها بالوحشة خلال الليل، وافتقادها معونة رومولو خلال النهار يبثّان في نفسها القلق. وكانت تغمرها كتلة جديدة من المشاعر، وأحيانًا كانت تصبّ عليها العذاب. ولم يكن وجود الدمى المتحرّكة ليثير فيها ذلك الهدوء الداخلي كيوم لقيتها، وإنما كان يبعث الحنان في جوانحها. حنان وإن كان ذكرى سارّة من طفولتها ذاتها، يوهن من عزيمتها. وبافتقادها إلى ضحكة إستبان الماجنة، فإن كل إشارة عاطفية إلى حاضرها أو ماضيها كانت تدفع بها إلى مزيد من الوحدة والضعف. «إستبان لم يأت. أهو خائف؟ وإذا كان خائفًا أيكون كلّ مجونه تمثيلية بائسة؟ أم أن المجون ينشأ من الخوف؟ أو أنه مجرد دفاع محزن؟لقد قتل (الشيطان) النقيب وثمانية وأربعين آخرين. وقتل بلبينا. ولعلّه تنبّه بعد أيام عدّة إلى أن الشبهات تحوم حوله، وتمثّل خطرًا ناميًا. لكن، منذ متى كان (الشيطان) يفرّ من مواجهة الخطر؟ كيف يمكنه أن يتخلّى عنها خوفًا وخشية، ويجعلها تواجه الخطر وحدها؟» وفكرت مرات عدّة في إمكانية الانتقال لتقطن «مضمار» إستبان. وكانت مفتونة بهذه العبارة «مضمار الشيطان».

وتذكّرت أن إستبان لم يذكر شيئًا محدّدًا عن حياته السرية في مدريد، ولا عن مكان سكنه أو شغله. فما كان يقول لها غير أشياء غامضة ما كانت تستطيع

أن تستنبط منها معلومة مفيدة. ولعل إستبان استعمل معها الحيطة والمكر. ولعله رأى تلك الاحتياطات غير كافية، فكفّ عن المجيء إلى البرج كيلا يتعرّض لمزيد من الخطر. فقطع زياراته دون أن يعلمها محاولاً ألا يجعلها تعرف نواياه وخوفه بعمق. هي كانت حدثته عن مخاطر الموقف الجديد. وكان يسخر من تلك الأخطار ويبدي ثقة مصطنعة بنفسه. لكنه كان يحسب في آن واحد أن الحكمة تقضي ألا يعود إلى القصر مرة أخرى. وكان يخفي هذه الحسابات عنها. إذاً، كان يخدعها حتى لم يذكر لها أين هو هذا «المضمار» المشهور. كل ذلك كان يبدو لعينيها جدّ حقير حتى يكون حقيقة. لكن مجرد التفكير فيه كان يحطّم في داخلها مزيداً من الأشياء، فتقول لنفسه: «أنا بحاجة إلى الاحتفاظ بالثقة بأحدٍ ما».

قضت اليومين الأولّين من وحدتها دون طعام. «ذات ليلة، سأنزل مستودع القبو». قالت لنفسها. ولم يكن بحوزتها كتب جديدة أيضاً. وكانت قرأت مرات عدّة تلك الموجودة بين يديها، ما عدا كتاب المركيز ده ساد «نحن -النساء- نعرف الكثير الكثير عن الحبّ حتّى نأبه بهذه المشاكل. أما الرجال فيتبجّحون حاسبين أنفسهم أنهم يكتشفون في كل خطوة سراً من أسرار الحب. لكن كل عذراء في السادسة عشرة من عمرها تحملها كلها حيّة في دمها». وكانت تكبّ خلال ساعات السأم الطويلة على «على خطا الممالك»، الذي كانت تستطيع قراءته في الليل فقط، حين كانت تحسب قاطني القصر الآخرين نياماً. أمّا في النهار، فكانت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً يساورها القلق مما قد يحدث حولها. وكان الليل على العكس من ذلك، يتيح لها أن تغرق في أفكارها. فكانت تحس حينئذ، على الرغم من كل الصعاب والأخطار وجيشان المعركة الدائم والبعيد، أنها ما تزال سعيدة أن تستطيع طرح قضايا أخلاقية صارت على هامش الواقع. وكان البرد في البرج جافّاً وملحّاً يصل حتى لبّ العظام دون أن يجد مقاومة كافية في الدورة الدموية، كان كتاب / على خطا الممالك/ يبدأ بفكرة شاعرية يخلص بعدها إلى أن يدرس تاريخياً

أشهر ممالك الماضي. وهذه الفكرة الشاعرية تكمن في التالي: «الكون مملكة هائلة. ونحن -سكان هذا الكون- خاضعون خضوعًا محتمًا إلى هذه الملكية. ونحن بدورنا ملوك الواقع المحيط بنا. وكل ما حلم به الإنسان وضمّه إليه وخلّفه كان من أجل مملكة الرجل -(الملك)- وطموحه، طموحه الذاتي: الملكة: فالرجل وطموحه المثالي الذي يحمله في داخله هما ملك العالم وملكته». وكان الكتاب يقدم آراء طريفة. وكان يقول إن العلاقة بين الملك والملكة في هذا الزواج الخصب والمجيد ينبغي لها أن تكون مثل علاقة رجل بامرأة بالحدود التي فرضها الله تعالى على سيطرة كائن إنساني على كائن آخر. وكانت الدوقة تقرأ وتعيد قراءة هذه السطور بسرور، شاعرة بالرضا من قدرتها على أن تعالج بهدوء مشاكل كهذي المشكلة، على الرغم من الظروف التي تعيشها. «لكن إذا أراد الملك -الرجل- أن يحقّق سيطرته المثالية على الملكة حتى يبلغ سلطات الله المطلقة، فإن الانسجام يتحطّم، ونظام الزواج يُقضى عليه. ذلك أن بلوغ الحلم قتلُه، وتحقيق الطموح الذاتي فيه غير ممكن إلا بالمرور عبر هذا الموت والشقاء». وكان يبدو ذلك للدوقة صحيحاً من الجانب الشعري. وكانت تحمد ذاتها أنها ما تزال قادرة على طرح أفكار «مترفة». حتى قالت ذات ليلة لنفسها بعد قراءة هذه السطور وهي تستمع إلى دويّ المعركة المألوف: «ربّما رأيت من سطيحة الطابق الخامس جانب مدريد الغربي كلّه»، على الرغم من أنها لم تفكر قط في أن الحرب يمكن أن تكون مشهداً وفرجة. وسارت إلى السطيحة. كان الليل حالكًا جداً، فلم يكن من السهل أن يراها أحد من الجيران. وكان للبرد في الهواء الطلق خاصية تختلف عن برد الحجرات الداخلية. خاصية تجعله في ذلك الليل البهيم حيث الآفاق والظلمات والقبّة العليا تبدو وكأنّما نُفخت فيها الروح وصارت حية، حجّةً واهية لا قيمة لها. ولو فكرت فيها لأعفت نفسها منها في نوع من اللذّة. وكان الأفق البعيد يبدو على مدى خمسة عشر كيلو متراً أو عشرين تمتدّ من الشمال إلى الجنوب، سلسلةً غير منتظمة من النجوم الحمر ذات الحجوم المتباينة التي تتقد ثم تنطفئ دون انقطاع. ولو كانت

الريح موائمة لسُمع بوضوح شديد أصوات البنادق والرشاشات، الجافّة والميكانيكية مختلطة بأصوات القنابل ذات الدوي الأغلظ والأعمق، أو بصوت هاون يطلق انفجاره من الضوء أكثر مما تطلق القنابل، إبّان ذلك، كانت تمر أسراب من القذائف من فوق رأس الدوقة التي كانت تفكر: «الطقس بارد. لكني لاأحس بالبرد. أو إني أحسّ به على أنه حالة معنوية، على عكس الرعب الذي، إن أحسست به، فإني أحسّ به على أنه واقعة فيزيائية». ولم تبرح مكانها ناظرة إلى الأفق البعيد، فترى هذه السلسلة من النجوم التي تنطفئ هنا وهناك أحيانًا، وأحيانًا تصبح أوسع انتشاراً في هذا المكان عن مكان آخر. وكانت تردّد: «رومولو في خطّ النار. ولربما كان مُشعلَ إحدى هذه النجوم الحمر». كانت تفكر في رومولو بامتنان دون أن تدري. ولم يكن امتنانها له امتنان شخص تحت الحماية. وإنما امتنان شخص آخر ما كانت تستطيع تحديده الآن. «أنا طموحه المثالي، أنا وهمه». وكانت تعلم ذلك منذ مدة بعيدة. لكنه كان يبدو لها حتى بعد ليلة الغارة الجوية، أمرًا طريفًا يكاد يكون فظًا فحسب. كل شيء بعد تلك الليلة أمسى مختلفًا. وكان امتنانها لهذا الرجل الذي كان يحلم بها شعوراً فاسداً وغير واقعي إلى حدٍّ ما. لذلك كانت معجبة به. «يجعلني رومولو في خياله ملكة الكون». وكان هذا التفكير يصيبها بالذعر.

«ما أزال خارج الحياة، على هامش الواقع، هازئة بها وبنفسي. هازئة، هازئة كدأبي إذا كانت الحياة ما تزال تدعوني إلى حقيقة الرجال والأشياء، فبأية طريقة تدعوني!»

كانت تتذكر الدعوة الأولى، وكانت موت الدوق. والثانية «الشيطان» والمصباح الكشف وموتى الحديقة والنقيب الذي نزف دمه على السجادة. لكن، كان ينهض في داخلها بعد زوال لحظة الدهشة الأولى، شيء يتجاوز كلّ هذه الوقائع، ولا تستردّ هدوءها فقط، وإنما كانت تضحك أيضًا، ربما رغبة منها في

دمج تلك الضحكة «بضحكة الإله الهائلة». وكانت تطرح على نفسها في تلك اللحظة ذاتها قضايا مترفة كقضية الرجل ووهمه، قضية الملك والملكة. وكانت ترى الموت من فوق السطيحة يصول ويجول في سحب من النار، ترافقها كتل من الحديد، أو تراه يبثّ رسالته الصحيحة عبر النجيمات الحمر، وكل ذلك، لم يكن في نهاية المطاف سوى طريقة في الضحك، طريقة رفيعة في الضحك.

كانت الطائرات تحوّم فوق خطوط الجبهة ملقية القنابل عناقيد عناقيد على مساحة لم تكن واسعة. وقبل بلوغ الانفجارات مسمعي الدوقة، كانت تهبّ صامتة سحب من دخان أخضر وأصفر ومائل إلى الحمرة ممتزجة بعنفٍ كان يثير الهواء فيما حول الدوقة ويبرز أسسه المزدوجة في اهتزازات عميقة ناجمة عن الانفجار، كان شيء ما يحترق تحت السحب مبقيًا على الألوان الصفر والخضر والحمر. ورأت في ذلك كله ما يشبه إسقاطَ لوحة القيامة لإلغريكو، الموجودة في حجرتها، إسقاطًا عملاقًا على سواد الليل، كانت اللوحة تمثّل المسيح عاريًا وقد التوى فخذاه، واندفع صُعُدًا في الهواء، لسانٌ من لهب. وقد أثار حضور المسيح الضخم مشاعر الدوقة، ومع ذلك كانت استجابتها ساخرة. «يسرني أحيانًا أن أقول لله: آمنت بالقضاء خيره وشرّه، وبالحياة وبالموت، وبك نفسك، وبصمديتك. كل ذلك حسن، لكن: ماذا بعد؟»

كانت تعلم أنها تتمتّع بقوّة فائضة على السطيحة. لكن: «إذا عدت إلى مخدعي فسوف تعودني الهواجس». وأبطأت حتى عادت، متفكّرة في رومولو على أنه شخص قريب طالما ألفت وجوده. لم تكن تدينه لأنه انصرف عنها، أو لأنه تخلّى عن موقعه في البيت. كان سلوكهُ إهانة لها مبطّنة بالتكريم. «لعله انصرف ليكون أكثر انفرادًا بي». ثم فكرت بعد ذلك: «إسْتبان لا يرجع إلى مخدعي خشية الخطر. ورومولو غادر هذا المكان مع ذلك، خشيةَ شكل من أشكال الخسّة، خشية أن يفقد رأسه فداء لإستبان. فراح يسعى وراء الخطر، ويبذل حياته في مكان آخر،

وفي ظلّ من الكرامة». ولبثت على السطيحة مدة طويلة شاردة الذهن. وكان الهواء والبرد وهذا المشهد البربري والسامي يلفّانها مرة أخرى بتلك اللذّة المخيفة التي طالما عرفتها. ثم عادت إلى مخدعها لعل وعسَى تجد إستبان فيه. وعادها التفكير في رومولو وهي تنظر إلى كتاب عصر النهضة: على خطا الممالك، الذي نُقشت عليه صور ملائكة، وأعمدة وقواعدها. «رومولو الملك وأنا الملكة» وبدا لها هذا التفكير «المترف» مسليّاً.

لكنها كانت جائعة. فحسبت المخاطر التي قد تتعرّض لها إن قامت بحملة على مستودع القبو. وعزمت أخيراً على النزول مصطحبةً مصباحَ جيب صغيراً جداً ودقيقًا كأنه قلم رصاص، وفي يدها المسدس ذو القراب المرصع بالصدف وأبطأت كثيراً حتى وصلت. فدخلت القبو من غير أن تشعل الأضواء، أو تحدث ضوضاء. لكنها سمعت من إحدى الزوايا ضجيجاً مفزعًا يشبه شخير امرئٍ نائم. فاستعدّت للهرب لما اشتعل المصباح عرضاً وسقط ضوءه على وجه القزم الذي كان يرقد وقد لفّ نفسه بالخرق، فدنت منه. وكان القزم يبدو أضأل حجماً هنا، فكان أشبه بجني. وكان الانطباع الأول الذي انتاب الدوقة أنها التقت على حين غرّة إحدى الكائنات السحرية التي كانت تؤمن بها في طفولتها. لكنّ بشاعة القزم أصابتها بذعر يفوق ذعرها من كل الأخطار المعهودة. وكانت تنوي الفرار لحظة استيقظ القزم ونهض واقفًا على قدميه بقفزة واحدة. فعلم أن أمره افتُضح، وقبض بكلتا يديه على سيف كان إلى جانبه، مستعداً للدفاع عن نفسه، فرفعت حينئذ إصبعها عن زر المصباح بحركة لا إرادية، فانطفأ النور. وسُمع في الظلام صوت القزم الذي لم يكن قد صحا من نومه جيداً.

-لا تخطُ خطوة أخرى!

فأشعلت الضوء مرة أخرى. ووضع القزم ذراعيه على وجهه حماية له، وكأنّ النور صفعه صفعًا. ثم زمجر.

حذارِ! لا تتقدم خطوة أخرى، أو أضربك بالسيف.

وسألته:

من أنت؟ وماذا تصنع هنا؟

ما كان القزم ليرى الدوقة لأنه بُهر بضوء المصباح. لكنه اطمأنّ لما سمع صوتها.

- معذرة! أنا أليخاندرو الشمّاع.

- ماذا تصنع هنا؟

- أنتظر مجيء النصر. رومولو يعلمني هنا. وسمح لي بالبقاء والتستّر عليّ. هو وإن نزع منّي سلاحي منذ اليوم الأول، فقد تدبّرت أمري. أنا أحمي أغذية سيادتهما.

بصق في يديه ولوّح بالنبّوت ليبرهن على مهارته في القتال. ظلت الدوقة تنظر إليه من غير أن تعي شيئًا. ولئن كان القزم لا يستطيع رؤيتها، فقد كان ينظر باتجاهها، حتى نشأ لديها انطباع بأن نظرته تدنّسها. وقفز قفزة مفاجئة إزاء الجدار وبلغ القاطع وأشعل الأضواء. ولمّا رأى الدوقة أفلت العصا وتدثّر جيداً لأنه كان شبه عارٍ وتقدّم.

- أليست سيادتك، السيدة الدوقة؟

فلم تجبه. لكنها سألت في النهاية:

قلت من قبل إنك تحمي الأطعمة. فممّن تحميها؟

فأشار إلى الدهليز بيده متردّدًا بين أن يجيب أو لا يجيب.

- هي أشياء لا يحسن أن تقع على مسمعي سيادتك. - قال أخيراً.

لكن الدوقة ظلّت تسأله بنظرتها، فتكلم:

- من بَسكْوالا . هي أسوؤها جميعًا، أنا أعمل في معمل للشموع، وكنت أجد دائمًا جرذانًا في الشمع، تأكل شمع الفصح .

وكانت تصغي مفكرة : « هذا الرجل الجني قبيح . ماكان ينبغي له أن يعيش، لكنه، مع ذلك، يعيش» . وتابع القزم :

- سمّيت هذا الجرذ بسكوالا . هنا لا توجد شموع . لكن يوجد جرذ شمع الفصح .

وأضاف بعدمدة صمت طويلة :

- هي أسوأ الجرذان، ذكرها ضعيف الحيلة، لكنّ بسكوالا مجرّبة جداً . وهي تثب عليّ، لأن النبّوت لا يفيد شيئًا في قتال يلتحم فيه الجسم بالجسم .

وكانت الدوقة تنظر إلى ذراعي القزم اللذين غطّتهما الخموش . وكان في نيّتها أن تسأله شيئًا، لكنّه تابع حديثه .

- قوة بسكوالا في مخالبها الخلفية وفي وسط متنها . هي تقفز كالقردة . ولم أستطع أن أنال منها بالنبّوت . وما تزال مخالبها وأسنانها أقوى من أظافري وأسناني . ولعل السيدة فهمت الوضع .

تراجعت الدوقة، وسألته من عند الباب وقد جحظت عيناها من الدهشة .

- لكن، أتقاتل عضًّا؟

- نعم .

- أو تقاتل الجرذان؟

- حتى الآن لا أقاتل غير بسكوالا؟

وتقهقرت من غير أن تنبس بكلمة حتى وصلت المستودع . كان الباب مقفلاً . لكن المفتاح كان في القفل . فدخلت وأخذت بعض الأغراض وولّت هاربة وكأنما سرقتها سرقة . وتبعها القزم في الدهليز .

- ألا تريد سيادتك خمراً؟

وما كان شيء في الدنيا ليوقفها كيما تنظر إليه مرة أخرى. أما هو فقد ظلّ يتبعها قائلاً:

- أتسمحين لي بالبقاء هنا؟ أتسمحين لي حقًا أن أقوم على رعاية الأطعمة وحمايتها؟ اسمحي لي فقط حتى يدخل أنصارنا مدريد.

وصعدت حجرتها وسط الظلام مردّدة بهلع: «أنصارنا! لقد قال أنصارنا». ولما بلغت مخدعها تهاوت على السرير؛ وقد جفاها النوم تلك الليلة وهي تفكر في القزم وتراه يتعارك والجرذان عضاً. ولم تستطع في اليوم التالي أن تذوق طعاماً قط. وكانت تردّد في نفسها:

يجب عليّ أن أخرج من هنا.

ولمّا فكرت في الخروج من القصر قادها الخيال إلى «مضمار» إستبان، لكن، أين هو ذاك المكان؟ وصار منزلها يبدو لها كريهًا. وكانت توقظها في الليل نوبات من الهلع المباغت. وما كانت تدرك لِمَ لم يعلمها رومولو بخبر القزم. «هذا ما كان ينقصني! وهذا الذي ما كنت أستطيع أن أتصوّره قط». كانت تقول لنفسها وكانت تقضي ساعات كاملة ذاهلة منطوية على نفسها. وفي الليل كانت تنظر إلى ما حولها من غير أن ترى شيئًا، محاولة أن تشخّص الضوضاء المشكوك فيها. حتى إذا صرّت قطعة أثاث خُيل إليها أنها قد تكون بسكوالا أو باريّنو وقد تضمّخ شارباهما بالدم.

وإستبان لم يعد. هي كانت تلومه أحيانًا. لكن كل لومها كان يتبدّد إزاء فكرتها في أنه قد قتل. وكانت تفكر أنها ربما آثرت الاستسلام للموت جوعًا إذا نفدت الأغذية ولا ترى القزم مرة أخرى. وتذكرت بعد ذلك اللقاء كلماتها ذاتها ليلة كانت على السطيحة: «الخير والشر والحياة والموت والصمدية، كل ذلك مقبول جداً. لكن، ماذا بعد؟» كانت تتذكرها فتبدو لها تجديفًا رهيبًا، وكان صوت يردّد، لعله صوتها ذاته مُسقطًا نحو الداخل: «يجب عليك أن تخرجي من هنا».

ذات مساء، سمعت أصواتًا في الحديقة أسفل النافذة. فقد رأى رجال الميليشيا أحد مصاريع النافذة الخارجية الخشبية مخلوعًا تقريبًا جرّاء الانفجار ليلة الغارة الجوية. وكان معلّقًا بآخر مسمار غير مطمئن. فأرادوا خلعه لأنه يشكل خطراً إذا اقتلعته الريح وسقط على أحدٍ ما. فأتوا بحبل طويل وراحوا يلقونه مرّة بعد أخرى باتجاه النافذة إلى أن علَق بالخشب. وكان الحبل ارتطم في المرات الأول بالبلّور المكسور الذي سقطت شظايا منه في الحجرة. وشعرت الدوقة أن أمرها اكتُشف، وأن أعضاء الميليشيا صاروا داخل البرج، فقد قال أحدهم بضرورة الصعود لنزع المصراع من الداخل. لكن الآخرين وجدوا متعة في نزعه بتلك الطريقة، قائلين إنه سينقلع عند أول جذبة بالحبل، أمّا الدوقة فما كانت تعلم أن رجل الميليشيا الذي تحدّث أولاً قد صعد أم لم يصعد. وراحت تنتظره قرب السلم والمسدس الصغير في يدها. ولما استطاعوا نزع المصراع الخشبي وتلقّوا سقوطه في الحديقة بفرح صبياني، تنفّست الصعداء قائلة: «لطالما تعوّدت الخطر حتى إذا لم يتحقّق التهديد أشعر بالإخفاق».

كان أحد الجنود يلعب لعبة (القفز بالحبل) ويغنّي ساخراً أغنية كانت تردّدها صغار الفتيات أحيانًا في الحدائق.

مـــاتت مرثْدِيتـــاس، حـــقًا
مـــاتت وأنا رأيتـــهــــا.

وأكملت الدوقة الأغنية بخيالها:

أربعـــة أدواق حــــملوها
وطافــوا بهــا شــوارع مــدريد.

كانت الأغنية تشير إلى الملكة الشابة مرْثدث التي ماتت في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. وقالت في سرها: «كان أبي أحد الأدواق الأربعة الذين حملوا النعش على أكتافهم. وما كان يستطيع سماع تلك الأغنية من غير أن تطفر الدموع من عينيه». وقالت إذْ تذكرت موت أمّها ذاتها: «لا أحسب رجلاً عاطفياً كوالدي يمكنه أن يقدّم سبباً مسوّغاً لتلك الوشايات الخسيسة».

صعدت الليلة التالية إلى السطيحة مرة أخرى. لكنها تراجعت خائفة وعادت إلى حجراتها لما رأت القمر طالعاً. بيد أن حادثة مصراع النافذة جعلت ذلك المكان غير مريح، بل مريب. وفكرت في النزول إلى الطابق السفلي حيث ماتت أمها. ولم تجرؤ على النزول، لأن النوافذ كانت واطئة للغاية وفي متناول كلّ من يريد. وفكرت في الذهاب إلى القبو قرب المسبح. لكن، إذا جاء «الشيطان» فلن يعثر عليها. وكانت تخيفها فكرة كونها قريبة من المستودع والقزم والجرذان العمالقة.

وفكرت في عودة رومولو بقلق: «أفرطت عليه في الطلب ولن يعود أبداً». وأتعبتها تلك الأفكار وقالت لنفسها مرة أخرى: «يجب عليّ أن أخرج من هنا، يجب عليّ أن أهرب». وسعت خفية في الليل باحثة عن ثياب بلبينا بقصد أن تتقنّع بها. فوضعتها ممدّدة على السرير عند قدميها حيث ظلّت أياماً عدة. وكانت تنظر إليها بشكّ أحياناً. لكنها ارتدتها ذات ليلة. ولما رأت لوحة القيامة لإلغريكو، فكّرت في الإسقاط الكبير الذي تراءى لها من السطيحة على خلفيّة الليل السوداء، وتخيّلت رومولو غارقاً في تلك الظلمات.

بيد أنّ رومولو كان جُرح وأدخل المشفى فقد زرعت إحدى قذائف الهاون ساقه بالشظايا. لكنه لم يلبث سوى ثلاثة أيام حتى نهض وراح يسير في أروقة المشفى مستنداً إلى عكّازين. وحصل من الأطباء على إذن في المغادرة إلى بيته، لأن جراحه لم تكن خطيرة ولا تتطلّب عناية خاصة. فنُقل بعربة ونزل عند حديقة القصر وساقه معصوبة بالضماد، ومستنداً إلى عصوين. وكان ينبغي له أن يقصد كلّ صباح مركز الإسعاف القريب للعلاج. ورافقه أول يوم إليه (فشكة) الذي يبدو

أن شكوكه حوله تبدّدت كلها، وأوحى جوّ القصر إلى رومولو بثقة مطمئنة بعد أن كفّ (الصَّموت) عن الظنّ فيه فيما يخصّ اختفاء النقيب أوردونييث. وكان بعض رجال الميليشيا الجدد العائدين من جبهة كربانشيل يتحدّثون عن أحداث الأيام الأخيرة ويشيرون خاصة إلى «صخرة رومولو».

وسألهم رومولو: ولِمَ سُمّيت بهذا الاسم؟ وقص عليه الجنود أعاجيب بطولة فرد يحمل هذا الاسم. إذ كان دافع عن هذا الموقع وسط شروط غاية في الصعوبة. وكان عدد الدبابات التي حطّمها مرتفعًا حتى قيل إنه بلغ أربع عشرة دبابة. وقنص الدبابات كان الرياضة الشعبية تلك الأيام. ويبدو أن هيئة الأركان أطلقت اسم رومولو على تلك الصخرة لفرط ما جرى من أحاديث حولها. فأجابهم بمزيج من الخجل الرجولي والكبرياء.

- أنا رومولو الذي تتحدّثون عنه.

ولما عرف ذلك عنه رجال ميليشيا الحراسة غيّروا موقفهم منه. بل أخذوا ينظرون إليه على أنه كائن أسمى: وشرع لوبث وإستراديرا يصلحان الأضرار التي ألحقها القصف بالحديقة من غير أن يطلب إليهما ذلك.

وجد رومولو الدوقة في غاية الشحوب. ولما رأت ساقه المعصوبة سألته عنها بالنظر. فقد رأت فيه ذلك الخادم مرة أخرى بمثوله أمامها. وكانت تحس بغيابه أمرًا عارضًا ليس له أدبيًا أدنى معنى. فأجابها. إن جرحه ليس بليغًا، وأضاف «لقد حالفنا الحظ جميعًا، إن كان حسن الحظ في الاستمرار بالسكن ها هنا». ونسيت فورًا تأثرها بعودته، وأخذت تكيل له التوبيخ: لأن البرج أصبح غير قابل للسكنى، وأنها اضطرت إلى استهلاك كل ما بقي من الخمر كيلا تقضي نحبها بردًا ثم حدثته عن اللقاء الرهيب في القبو، فارتسمت بسمة على زاوية فمه:

- أرأيته؟

- كيف سمحت له بالدخول؟- قالت باضطراب.

فلم يجبها، بل كان ينظر إلى الدمى المتحركّة على الأريكة، ويخاطبها في ذهنه: «كيف حالكن، يا صديقاتي؟ ألم أكرمكن بوضعكن قرب الدوقة؟» هي كانت تلحّ في الكلام عن القزم، وكان هو يبتسم دون أن يجيب. لكن ظهرت عليه علائم الألم لمّا حرك ساقه. فسألته كيف جُرح. فقصّ عليها القصّة ثم أضاف بعد ذلك ساخراً مما نُسب إليه. وتمهّل في الحديث عن «صخرة رومولو» بشيء من المتعة، كان في كلامه ذاك شكل من الفخر البدائي الصادق. وكانت لوحة الغريكو ما تزال الحرب، ما تزال الحرب كلها. وها هو رومولو يوقد الحرائق والانفجارات فيها. وعقّبت باسمة:

- بطل!

- باه! - أجابها بشيء من الفكاهة الفلاحية. - يوضع المرء في موقف صعب، ثم يحاول أن يخرج منه كيفما يستطيع.

ونظرت إليه بلا مبالاة كان يعرفها فيها. ثم قالت:

- أصدقائي سيّئو التسديد.

- أهم سيّئو التسديد لأنهم لم يقتلوني؟

- لا، بل لأنهم لم يقتلونا جميعًا ليلة قصف الطائرات.

ووجد شيئًا من الزيف في ذلك الصوت، فنهض واتّجه صوبها. ولما فعل ذلك من غير اعتماد على العكّازين خرّ راكعًا على ساقه السليمة باسطًا الأخرى، ووجدت الدوقة كلّ ذلك فظًّا غليظًا. ورآها تجهد لتتحاشى الضحك. ضحك كان يعرفه جيّداً جداً منذ ذلك اليوم البعيد في المسبح. ونهض بمشقّة. وكان عثاره ما يزال يدفع الدوقة إلى الضحك. وبحث عن العصا وسأل لما استند إليها آخر الأمر:

- ممّا تضحكين؟

وكانت تتحدّاه بلا مبالاتها.

- أتريدني أن أبكي؟

فجلس على «الديفونة» وقال:

- ألا تخجلين من الضحك على جريح حرب؟ لأن الضحك من نكبة الآخرين قسوة وعبث.

- لا شيء من العبث في القسوة الحقيقية، يا رومولو.

وفكر لما سمع تلك الكلمات أنّ عشيقها السرّي ما يزال يزورها كلّ ليلة. فقد كان في إرادتها شيء من القسوة والمجون العنيف. وكان ينظر من غير أن يكّف عن التفكير: «لو كانت الدوقة كما تدّعي أن تكون، لربّما ما كنت صنعت ما أصنع من أجلها». وأراد أن يقوم باختبار لها، فمدّ يديه إلى ما وراء ظهره على «الديفونة»، وسرعان ما أمسك بدميتين في كل يد. وهما: العم (بابو)، والعمّة ميسرْياس. وكانت الدوقة أثناء ذلك، ترتعد تحت معطفها من البرد. فقال لها: إنه قد يوقد المراجل هذه الليلة بالبقيّة الباقية من الفحم، وتخلّى عن الدميتين اللتين التقطهما، وأخذ بدلاً منهما: الفلاحة والضابط، وأمعن في النظر إلى الفلاحة، وقال:

- إنها تشبه بلْبينا.

ثم أخرج الأنبوب المعدني الصغير من جيبه ووضعه في فمه. وراح يقلّد مشوّهًا صوت الدمية الغليظ، وبدأ:

بلبينا: هيّا، هيّا إلى رغيف الخبز والقرفة؛ هيّا، هيّا إلى الدم العتيق والدم الجديد. آي! آي! آي! يا للدوقة المسكينة! أنا لا أستطيع تناول طعامي إلا إذا علمت أنها تأكل حاجتها. (تأخذ الدمية بلطم وجهها بيديها الخشبيّتين متظاهرة بأنها تكفكف دموعها. يبالغ رومولو بآهات الحزن الفجّة التي تطلقها بلبينا. تغيّر الدوقة من جلستها على المقعد.) آي، آي، آي! ظلّت الغصّة في قلب الدوقة. لذلك لا تستطيع أن تبكي، أسفي على شبابها وعلى بُعد الدوق عنها!

الضابط بيناغره: ولِمَ ينبغي للدوقة أن تبكي؟ ولِمَ تريدَينها أن تبكي إن كانت لاترغب في البكاء؟

كانت الدوقة تنظر من غير أن تعي شيئًا. وتابع رومولو مقلّدًا الصوت الأنثوي.

بلبينا: إذًا، فلأمزّق قطعًا قطعًا، ولتأكلْني الكلاب إذا كان دمع الحزن قد جفّ في عيني الدوقة.

النقيب ثِنتيّاس: ولِمَ ينبغي لها أن تبكي؟ أنا لست نقيبًا. فقد رفّعت إلى رتبة مقدّم. رفّعت لما دسست أنفي في السلّم.

وكانت الدوقة ترفّ بجفنيها متوتّرة الأعصاب، وتابع رومولو ببرود.

بلبينا: ألم تُمنح وسامًا؟

النقيب ثِنتيّاس: بلى، منحت وسام الصليب، وسام الصليب مع مَرتَب، صليب الجمجمة المثقوبة الكبير!

كانت الدوقة تنظر إلى رومولو شاحبة الوجه شحوبًا شديدًا. وكان يبدو عليها أنها تريد قول شيء لكنها كانت تكبح نفسها بمشقّة. وراح رومولو يبحث عن دمى أخر، وتابع وقد ارتسمت نصف بسمة على صوار شفته اليسرى.

العمة مِيسرْياس: آي، آي، آي! يا لخوفي، ويا لرعبي الأسود لأني لا أجد قدمًا أضع فيها جوربي.

العم بابو: وماذا في ذلك؟ وأنا أيضًا لا ساق لي، ولا قبّعة. ولا أحمل لقبًا. ساقي اليمنى حطّت رحلها في بينْتاس ديل إسبيريتو سانتو، واليسرى في ريكولِتوس.

العمّة ميسرياس: ماذا يصنع النقيب الآن. فأنا لا أراه؟

العمّ بابو: ما يزال منذ أسبوع يسخّن ماء حمّام الدوقة.

ونهضت الدوقة. وبدا له أنها تريد الكلام، وحرّكت جذعها بقوّة من اليسار إلى اليمين. وفكر رومولو: «تشبه هي الأخرى دمية من الدمى أيضاً». وتابع

العمّة ميسرياس: أكان كثير من الرجال في بيت رومولو تلك الليلة؟

العمّ بابو: ثمانية وأربعون، وقد لقوا جميعاً مصير بلبينا. فبُعجت بطونهم، وتفحّمت أضلاعهم.

العمّة ميسرياس: أنا رأيت ضوءاً فضيّاً ينطلق من خطم فأرة.

العمّ بابو: أنا رأيته ينطلق ذهبيّ اللون من قرني ثور.

العمّة ميسرياس: يُقال إنها كانت قنابل مضيئة.

العمّ بابو: ظنّها النقيب شيئاً آخر، وسعى ليتحقّق من ظنه. ومات شهيد عقيدته.

بلغ شحوب الدوقة ذروته، وكانت يدها ترتعد على ذراع المقعد. وقالت: «هذه قسوة منك يا رومولو. هذا إفراط فلا تزد فيه!..» وفكر: «إنها تتكلّم كدمية». وتابع هزليّته وعيناه في عينيها.

العمّة ميسرياس: كيف جرى ذلك، يا عمّ بابو؟

العمّ بابو: كان ذلك لما دسّ رأسه في البرج، وبيم! بوم! وطلقتان. إحداهما انغرزت في الحائط والأخرى في جبهته.

العمّة ميسرياس: ومن أطلق عليه تلك الطلقة؟

العمّ بابو: بعضهم يقول هي، والبعض الآخر هو. رومولو يعرف من، ولا يريد أن يتكلّم.

العمّة ميسرياس: وأنت أيضاً لا ترغب في الكلام، أو أنك تتكلّم ألغازاً.

العمّ بابو: لا أستطيع أن أقول المزيد.

العمّة ميسرياس: أومات لفوره؟

العمّ بابو: لا. واللوم في ذلك عليه.

العمّة ميسرياس: ولِمَ؟

العمّ بابو: لأنه وضع رأسه في طريق الرصاصة، وفوق ذلك مسح الجرح. حينئذ تدفّق الدم... وسال على وجهه.

ونهضت الدوقة التي صار وجهها بلون الرماد. وأرادت أن تذهب إلى مخدعها. لكنها خرّت على وجهها فوق السجادة قبل أن تبلغ الباب. كانت عيناها جاحظتين وتعبير من الرعب ما يزال يتجلّى فيهما. وهُرع رومولو إليها. وذهب إلى الحمّام وعاد بذات المنشفة المبلّلة التي أراد ذات يوم أن يساعد النقيب أوردونييث بها. وضع المنشفة على صدغيها. وكان يروح ويجيء بحركات بطيئة مستنداً إلى أحد العكّازين متأرجحًا، ولم تستعد الدوقة وعيها. ووضع يديه على وجهها فوجده بارداً. فذهب إلى الحمّام مرة أخرى فعثر على حنجور صغير من الكونياك وصبّ منه قطرات على شفتيها. ولم تنتعش بذلك أيضًا. فوسّدها نمرقة، وتنحّى وجلس على «الديفونة» وعزم بعد قليل على نقلها إلى السرير، ولم يكن سهلاً عليه حملها بين ذراعيه. واضطر كيما يمدّدها على السرير إلى إفراغه من ثياب بلبينا، التي كانت مبسوطة فوقه، وهي تنّورة وبلوزة ومعطف وطرحة صغيرة وزوجان من الأحذية المستعملة. فرمى بها كلها أرضًا. ولمّا رأى الدوقة مستلقية وقد تغطّت حتى خصرها، أحس بالراحة. لكنها كانت ما تزال فاقدة الوعي. وطبع قبلة على فمها، فأحس بالخجل وانزوى غير بعيد وانتظر. ثم قبّلها مرة أخرى بلطف. وأعاد النظر إلى الأرض حيث ثياب بلبينا، لما سمع الدوقة تتكلّم. قالت متمتمة بشيء غامض وهي تبكي. فبدت له ظريفة، رقيقة متواضعة تقريبًا. وتركها تبكي مفكّراً: «من الخير لها أن تبكي».

- كيف تجدين نفسك؟ - سألها.

- بخير، بخير كبير.

أمسك بيدها وشعر بها متجمّدة بين يديه.

- هيّا، اطمئنّي!

ونظر إلى ثياب زوجه مرة أخرى.

- أبحثتِ عنها في حجرة القبو؟

- نعم.

- أفكّرت في الهرب؟

- نعم.

- إلى أين؟

- لا أدري.

كانت تفكر في «مضمار» إستبان، ثم في بلنسية. في الذهاب وحيدة إلى بلنسية وحاول أن يقنعها:

- لعلّ الحياة في البيت أمست غير خطرة الآن.

- ولِمَ؟

- من يرني بوضعي هذا، وبساقي المعصوبة، فلن يرتاب فيّ.

كان البرد شديداً في البرج، فقال إنه سيشعل المراجل قريباً. كانت الدوقة تنظر إلى حزامه العسكري الذي علّق على أحد جانبيه مسدساً (وصار اليوم مكشوفاً)، وخنجراً على الجانب الآخر. وخرج مسراً في نفسه: «هذا المستوى الذي يحاول كلاهما أن يدفعا بي منه إلى الموت ويضحكا، غير موجود. ربما كان موجوداً

في نظر العشيق، لكنه غير موجود في نظرها هي». وإذْ كان يتقدّم عبر جادّة الحديقة المركزية مفكراً في استحالة الاقتراب من المراجل من غير أن يُرى، فإذا بعضو الميليشيا الصموت يعترض سبيله:

- ماذا يبدو لك؟- قال له وهو يعرض في راحة يده إبزيم حزام محروق، وقد صُهر المعدن تقريباً.

أراه أيضاً مخزن مسدس التوى جرّاء النار. وراح يضيف إلى ذلك، أمام عيني رومولو الذاهلتين، أشياء أخر، بينها شيء لا تخطئه العين وهو سوار تحديد هويّة النقيب وعليه رقم وحدته العسكرية. أخذ صبر رومولو بالنفاد. لكنّ عضو الميليشيا كان بعيداً جداً عن الشك فيه، وقال على حين غرّة:

- غداً سيُعلم كل شيء. سيُعلم من قتله، ومن أشعل المراجل وحرقه. سيُعلم كل ذلك غداً باكراً جداً.

وأحسّ رومولو باحتكاك قدم ساقه المعصوبة بالأرض. وقد منحه ذلك الاحتكاك طمأنينة لم تدم سوى ثوانٍ معدودات.

- وكيف حصلت على ذلك كله؟

فأجاب عضو الميليشيا إن امرأة دنت منه منذ يومين إبّان نوبة حراسته وقالت له إنها تعرف من قتل الضابط. «ألا يبدو لك ذلك طريفاً؟» حاول رومولو أن يزيل توتّر أعصابه بالنظر إلى ما حوله، بالنظر إلى العشب وإلى الأشجار والسماء الرمادية. وتابع عضو الميليشيا: «وإني احتفظ باسمها». وأخرج ورقة وقرأ فيها: «إنها خواكينا بيريث، أرمل أنطونيو بيريث. جندي إطفاء. تريد الحصول على جواز مرور إلى بلنسية». وأضاف:

- إذا كانت النساء يستطعن الخروج من مدريد متى شئن، خاصة قريبات عناصر الميليشيا القتلى، فلم يكن صعباً الحصول على إذن مرور. لكنّ إلحاحها على الإذن جعلني في شكّ منها.

وهل الإذن لها وحدها أم لأشخاص آخرين غيرها؟

- بل لها وحدها.

- وماذا قالت لك؟

- قالت: «أنا أعرف كلّ شيء. لكني لن أقول كلمة واحدة حتى أطمئن إلى خروجي من مدريد». وطلبتُ منها برهانًا على صحة كلماتها، فقالت لي: «ابحث في رماد المراجل الموجودة في طرف الحديقة الأقصى. فربما عثرت على شيء ما».

وتابع عرض تلك الأشياء مضيفًا:

- ذلك كان أكثر كثيراً مما كنا نحتاج إليه.

كان رومولو يرفّ بجفنيه متوتر الأعصاب. فما كان ليصدّق ذلك قط. وماكان هذا التصرّف ينسجم وسلوك الدوقة التي أغمي عليها منذ قليل بسبب اتّهامات الدمى المتحرّكة لها. وأضاف عضو الميليشيا:

- كنت أحسب هذه المراجل مُطفأة دائمًا.

- وأنا أيضًا. - قال رومولو.

- كل القضيّة تكمن في معرفة منْ أوقدها.

وما كان رومولو يعي كيف أنه ما زال يستطيع الكلام. لكنه كان يتكلّم وصورة الدوقة مرتدية ثيابًا مرسومة في مخيّلته.

- وإلى أين وصلت القضية؟

- ستنطلق غداً قافلة إلى بلنسية. وعند مطلع النهار ستأتيني، وأعطيها الأوراق. وهي ستقول لي في المقابل، اسم المجرم وأين يختبىء. أراد رومولو أن يخفي اضطرابه، فراح يطلب إليه مرة بعد أخرى أن يريه تلك الأغراض. وكان ينظر إليها بإمعان غرضًا غرضًا. ثم أعادها إليه.

- حسن! على كل حال: «الصباح رباح».

وسار مستنداً إلى عصويه، وقد انهارت قواه انهياراً كاملاً. «أينبغي لي أن أدفع الثمن؟ أينبغي لي أن أدفع الثمن بدلاً من عشيقها؟ وكيف يجرؤان على أن يتوقّعا ذلك مني؟ أنا لم أعترف قط أني ابتهجت لموت بلبينا، لذلك لم أدخل مجالها، فكيف يجرؤان هما عليّ، إن كنت لم أدخل مجالهما؟» وفكر مرة أخرى أنّ ذلك المستوى الذي يتمنّيان منه هلاكه باسمَيْن راضيين، صعب بلوغه عليه وغير مفهوم، لكنه موجود. أراد أن يصعد البرج فوراً، لكنه كان يجد دائماً من يطلبه، وراح يعدّ الساعات التي تفصله عن صباح اليوم التالي. وأحسّ بالوحدة. وتنبّه إلى أن ما كان يعدّه من قبل وحدة، كان علاقة سارّة بالناس جميعاً. لكن، ها هي الوحدة الحقيقية العميقة المرّة قد بدأت الآن. وأخذ الليل يقترب. رآه يُقبل من خلال زجاج النوافذ المهشّم. لئن لم تظهر الشمس ذلك اليوم، فقد كانت تُلمح في الأفق البعيد بعض السحب الصغيرة التي أضيئت بضياء خفيف، بل تلوّن بعضها بلون جسد المرأة. ولما أدرك أنه خسر كل شيء انتظر حلول الليل، ومع أول خيوط العتمة صعد درجات سلم البرج واحدة واحدة. وفكر في أن يتصرّف كعادته، وينتظر ليرى المجرى الذي تتخذه الأمور. وإذا اضطرّ، فإنه قد يتقنّع مثلها بل خيراً منها.

وإذْ لم يجدها في القاعة، دنا من المخدع. ورأى ثياب بلبينا على كرسي قرب السرير.

- متى تذهبين؟

- من؟ أنا؟ - قالت دَهِشة.

- متى؟ - ألحّ رومولو. - أغداً؟ لِمَ لا يكون غداً حقّاً؟

- لا. لا أستطيع الذهاب غداً. بل لن أستطيع إلا بعد أسبوع على الأقل.

- أنا سأساعدك.

- لا أصدقك، يا رومولو. أنا أعلم أنك قد تبذل حياتك إنقاذاً لي. لكنك لن تصنع شيئاً لتبعدني عنك.

وكان ينظر إليها ويعيد النظر. وبدا أن موجة من الدم تصعد إلى وجهه وتقف في حلقه. لكنّ الدوقة تابعت قائلة: «نعم، يا رومولو، أنا أعلم أنك قد تبذل حياتك فداء لي، تبذلها بسرور كبير، ربما مفكراً في أصدقائك في الكواكب الأخر، أليس كذلك؟» وكان يسرّ في نفسه: «تريد أن تكون مطمئنّة إلى أنها باتهامي وإرسالي إلى الموت، لن تصنع شيئاً آخر سوى إعداد نوع من اللذة لي. هي كانت تعمل عملها من ذلك المكان العصيّ الذي بدأت أفهمه الآن. ولسوف أجيبها من ذلك المكان نفسه».

- كل شيء سيتغيّر بدءاً من الغد. - كانت تقول. - أعلم أنك صديقي الوحيد وأعلم أنك على صواب. أتسمع؟ أنك على صواب. بدءاً من الغد سيكون كل شيء مختلفاً.

وكان يقول في سرّه: «الآن تقول ذلك، سويعاتٍ قبيل رحيلها وتسليمي إلى يد الجلاّد». وسألها مبتسماً بسمة شاقّة:

- بدءاً من الغد؟

وأحس بنفسه أنه قد صار «في ذلك المستوى». ولم يكن صعب المرتقى جداً. كل الأمر يكمن في أن تُسكت صوت الدم، وتتكلّم برأس بارد وصاحٍ ومخلوق من القسوة والكذب. وصار على يقين من أنها لم تكن مريضة. بل كذبت في مسألة المرض كما كانت تكذب في كل شؤونها. وكذلك تظاهرت بالإغماء. وكان يحسب أنه أحس بتلك الإشعاعات التي يعكسها جسم حيّ حين نقبّله. وقبض على يدها بيد كالكمّاشة:

- بدءاً من الغد؟

- نعم، يا رومولو. لكن، أفلتني، فأنت تؤذيني.

- حسن! كما تشائين. غداً، سأمنحك آخر ما أستطيع منحه.

وكان يبتسم بسمة كالتي رآها ترتسم على وجهها منذ أيام خلت. لكنها سألت:

- أتمنحني أنا؟

- نعم. سأمنحك الشيء الوحيد والأخير الذي أستطيعه.

وكان ما يزال يرى عند الدوقة ضرباً جديداً من الانسجام مملوءاً خسة، يرى فيها قوة كامنة في أحد أركان ذلك المستوى العالي، قوة ما كان يستطيع بلوغها، بل كان معجباً بها. هي وإن التزمت الصمت، فقد كان يلمس السخرية وراء صمتها وسألته:

- أكلّمت عنصر الميليشيا الصموت؟

وكذب عليها:

- لا!

وأضاف بعيد ذلك.

- لا تهتمّي. فسوف ترحلين. سترحلين متى شئت.

وأحس بالرضا عن نفسه. وفكر: ربما أجابته مدركة أنه علم كل شيء وقبل به.

- نعم، يا رومولو. شكراً لك، يا رومولو.

وانتابه الشك مفكراً للحظة أنه قد يكون مخطئاً، وأراد أن يقوم بتجربة. فقال إنه سيأخذ ثياب بلبينا لأنها ليست ضرورية إذا لم تكن عازمة على الرحيل غداة

اليوم التالي. لكنها اعترضت بقوّة مفاجئة. ونسي حينئذ كل شيء، وأكبّ على مخدتّها وقبّل فمها، فدفعته: «ماذا تصنع، يا رومولو؟» فبحث عن فمها مرة أخرى وعضّها فيه إلى أن أحسّ بالدم على شفتيه، فخلّى عنها. وكانت هي تئنّ على شكل مكتوم، فقد جُرحت شفتها العليا جرحًا طفيفًا ولطّخت المخدّة بالدم.

- بهيمة!

ولما لفظت حرف الـ(ب) بقّعت بالدم وجه رومولو الذي ردّد:

- نعم. سأمنحك آخر ما لديّ. سأمنحك الشيء الوحيد والأخير. ألا ترين استعدادي؟ أنا على علم بكل شيء. وأنا سائر لملاقاة كل شيء أكثر هدوءاً واطمئنانًا مما كان عليه زوجك، ومما هو عليه عشيقك.

وكانت تئنّ كطفلة. ولما رأى رومولو ذلك الدم وسمع ذلك الأنين أحسّ بنوع من الشفقة العدائية. فمدّ يده إلى حزامه حيث الخنجر. فرأته وصاحت وعيناها جاحظتان جداً.

- لا تقتلني، يا رومولو!

فرفع يده عن الحزام ووضعها قرب المخدّة.

- سترحلين أخيراً. ستجدين إذن المرور تحت ناجزاً. سترحلين غدًا، أتسمعين؟

- أنا؟

- نعم، أنت.

كانت تئن وفمها الجريح ملتهب.

- أظنّني مريضة، لكني سأصنع ما تريد.

وما كان بمستطاع رومولو أن ينظر إليها من غير أن يحس بشفقة هائلة. فآثر الانصراف على الإقرار بتلك المشاعر، فانسحب متقهقراً قائلاً:

- لا تخدعيني. أنا أعلم كل شيء وأقبل به، فلا تخدعيني. سأبذل لك آخر ما لديّ سأبذله لك وليس له. سأبذله لك لأني أحب بذله لك من غير تفكير في الحماقات وسكان الكواكب الأخر كما تقولين. أنا، أتسمعين؟ أنا سأبذله.

وعاد من عند سلّم البرج، وأراد أن يعالج شفتها، ويسوّي وضع المخدة. فقالت إنها شاكرة له على الرغم من جرح شفتها، وإنها بحاجة إلى النوم فقط. وفكر: «الآن تقول الصدق». وهو كان يقول الصدق أيضًا. ومع ذلك، كان يفكر أنهما يكذبان كلاهما. ولربما استطاع المرء أن يكون في ذلك المستوى منعّمًا مستريحًا وحتى فاضلاً من فوق جسر الدم والنار. وهو كان أيضًا «فوقُ»، لكن مستواه كان شيئًا آخر. وأصبح لا يستطيع صنع شيء غير أن يخفض رأسه ويبذله. وتنبّه إلى أنها تخشاه، فخرج من غير أن يقول شيئًا آخر وانصرف مستنداً بتعثّرٍ إلى عكّازيه. ورغب في النزول بالمصعد ليتحاشى السلالم. لكنه كان يتجنّب النزول بالمصعد منذ أن احتبس والقتيل فيه. ولما وصل السلّم فطن إلى أن كلّ شيء قد قضي، وخشي أن يعثر بالحذاء على السلّم، وسوّغ كل ذلك في عين ذاته مفكراً في أنه قد يصعب عليه الحفاظ على التوازن بساقه المعصوبة لو تعثّر. رجع حينئذ على عقبيه، واتجه صوب المصعد. فسمع الدوقة تنتحب. «لعلها تألم لكلّ شيء، تألم لمصيري أيضًا وترضى به باستسلام يقل عن استسلامي ذاتي له».

ولقد زاد هذا التفكير في تحريك مشاعره. ولما دخل المصعد أحس بنفسه لأول مرة أنه رجل عن حقّ، أو أنه في المستوى ذاته حيث تقف الدوقة؛ رجل يواجه مصيراً يفوق طاقة البشر حقًا.

أخذ المصعد بالنزول. كانت لويحات البلور الصقيلة التي تحيط المرآة بألوان طيف مرتعشة، تحدث ألسنة صغيرة زرقًا كأنها نيران مقابر خادعة في إشارة -كما يبدو- إلى جثّة النقيب. وما إن وصل تحتُ حتى خرج دون أن يعبأ بأن يكون رآه أحد أم لا. لحسن الحظّ، لم يكن هناك أحد حتى يراه. وقصد حجرته واستلقى. لكنه أبطأ حتى أغفى مفكراً في أنها الليلة الأخيرة، والنوم الأخير.

أحس في وقت متأخر من الصباح (بعد التاسعة) بذراع يرجّه. وكانت ذراع الرجل الصموت قائلاً له:

- رحلت المرأة الجميلة المجهولة. لعلها الآن في طريقها إلى بلنسية.

وأضاف بخيبة أمل كبرى: «إنها مجنونة. قالت لي إن قاتل النقيب ما هو غير الجنرال مياخا». وضحك (فشكة) معقبًا: هي وإن كانت مجنونة فقد كانت مصيبة في مسألة المراجل. للمجانين أحيانًا هذه الرميات السديدة». وظلت نظرة رومولو معلّقة في الهواء من غير أن يرفّ له جفن. وأردف عضو الميليشيا:

- لما قلت لها لا يمكن للجنرال مياخا أن يقتل النقيب، قالت إني على صواب. ولم يصنع الجنرال مياخا غير أن يصدر أمرًا؛ وإن من قتله كان خوريًا.

- لكن، أقلت إنها رحلت؟

وكان عنصر الميليشيا يحسب رومولو ما يزال شبه نائم. فصفّق بيديه كأنه يعينه على الاستيقاظ وانصرف قائلاً إنه ذاهب إلى المراجل، وهو بانتظاره هناك لأنّ معونته لا غنى عنها. ونهض رومولو وذهب إلى الحديقة مستندًا إلى عكّازيه مردّدًا وهو يهلوس: «الجنرال مياخا. والخوري». ونظر إلى البرج محدّثًا نفسه: «الآن خلت الدار من ساكنيها». وما كان يستطيع أن يشكر للدوقة الكلمات الغريبة الناشزة التي قالتها لفشكة، وإن كانت ترمي إلى إنقاذه بها حسب كلّ المظاهر. بل كان يشكر لها نظرتها وصوتها لمّا قالت له الليلة السابقة: «لا تقتلني!» وسار ببطء إلى المراجل. وجلس على مقعد من الحجر يستند إلى الجدار. وأراه (فشكة) بحماسة أغراضًا أخر قرائن تشي بالجريمة. فقال رومولو في نفسه: «لقد أرادت إنقاذي على طريقتها». وتابع فشكة عرض البراهين عليه، فلم يرَ فيها أدنى خطر. يعني أنه كان يلمح الخطر، لكنّ هذا الخطر كان تحت رداء حزنه الصامت، نوعًا من المجازفة لا يؤبه بها مهما تكن قوّة مطارديه.

- أتقول إنها رحلت؟

- بالطبع، نعم. أما تزال نائماً؟

ولزم رومولو الصمت مفكراً وسأل أخيراً:

- أهي جميلة؟

- بجمال أول يوم اشتبهت فيها.

- وبما اشتبهت فيها؟

- لا أدري!

- يعني ألا توجد نساء جميلات إلا في المعسكر الآخر؟

لم يجبه فشكة. وتابع عرض لقاه عليه. فسأله هذا:

- أكانت توجد إصابة خفيفة على شفتها السفلى؟

فأجابه على شكل آلي أنْ نعم، وأراه لقى جديدة عثر عليها في المرجل. وسُمعت أخيراً أصوات من الحديقة تنادي فشكة الذي انصرف قائلاً إن نوبة حراسته حانت، وظل رومولو وحيداً ينظر إلى تاج صنوبرة صاعدة في سماء رمادية وكان يرى (شُغْل) الإبر الخضر في نسيج السحب. وكان النسيم الخفيف يغيّر أحياناً أشكال خطوط الشغل. وكانت الأغصان الصغيرة تتحرك أحياناً أخر جراء ارتجاج المدفعية. وكان اثنان من عناصر الميليشيا ما يزالان يعملان بدأب في العشب حتى تغطّت إحدى الحفر وسُوّيت الأرض. وخلا المكان من العصافير. وكان رومولو مايزال مشغول الذهن بالدوقة التي ربّما فكرت في أن تقول ما قالته من ترّهات لعنصر الميليشيا منذ اللحظة الأولى. لكن، لما حدّثت (فشكة) أول يوم (أي منذ يومين خليا) عن جثّة النقيب المحروقة في المرجل؟ وذهبت كل أفكاره حول هذا التناقض سدى. ولم يستطع حلّه فآثر ألاّ يعود إلى التفكير فيه.

أمّا فكرتها في الذهاب إلى بلنسية وابتعادها عن الجبهة وأخطار المدفعية، فقد بدت له جميلة. لكنه قرأ أنّ بلنسية تتعرّض لقصف الطيران يوميًّا. ولربما أصيبت بالخوف هناك، ولسوف تكون وحيدة. فبعد المشهد الذي جعل فيه الدمى تتكلّم، صار على يقين بأنها خائفة كما الآخرين، وأنها تعاني وتبكي مثل سائر الناس. وكان يقلقه قلقًا ممضًّا أن تكون الدوقة وحيدة، هاربة فريسة الخوف.

وقضى سحابة النهار هائمًا على وجهه في الحديقة. وكان يَطْلع عليه عضو الميليشيا الصَمْوت باكتشافات جديدة، حتى سأله ذات مرة وقد ساء مزاجه:

- ماذا ستصنع بكل هذه المجَموعة من القرائن؟ أسوف تعرضها في واجهة؟

وقال رجل الميليشيا إنه يفكر في الذهاب غداً إلى إدارة الشرطة. وانسحب رومولو بعد ذلك إلى حجرته. «أنا لا أستطيع الذهاب إلى بلنسية حتى تبرأ ساقي من الجرح». لكنه كان على ثقة بأنه سيذهب ذات يوم ويجد الدوقة هناك. ومع ذلك، كانت المراهنة على جراح ساقه خير وسيلة للحصول على إذن مرور. ثم قصد القبو ووجد فيه إيلينا شاحبًا متسخًا داخل أسماله. وراح ينظر إليه في صمت، وكأنه لم يره قط، وسأله:

- ماذا تصنع هنا؟

أبطأ القزم في الإجابة. وأجاب أخيرًا بذات اللهجة القوية المترفّعة المألوفة.

- سقطت لابسكوالا. لقد خنقتها بيديّ هاتين.

وأبرزهما وقد تقبّضت أصابعه، وأبلغه رومولو أنه لا يستطيع البقاء هنا، لأنه قد يموت وشيكًا. واقترح عليه أن يخرج إلى الحديقة فوراً ويتخلّى عن حذره ومخاوفه، وكان القزم يحلف إنه ليس خائفًا، ولم يخف قط، وأبدى استعداده للخروج. لكنه كان يطلب ضمانات. ولم يدرك رومولو ماذا يعني بذلك، وأخذ صبره بالنفاد.

- لا تستطيع البقاء هنا، صارت رائحة القبو كريهة. ولا أريد أن يتلوّث الهواء بها. اخرج أمامي.

وما كانت لهجته لتقبل رداً، فانصاع القزم له. ولما رأى خلال سيره ضمائد رومولو سأله ماذا به. فلم يجبه. وكان رومولو يقول في نفسه إن القزم يستطيع بخلوّ البيت من الدوقة، أن يروح ويجيء دون خطر بأن تراه... (وكان همّه أن يجنّبها ذلك المنظر الحزين). وكان قال له القزم قبل أن يخرج:

- رأتني سيادة الدوقة هنا ولم تقل لي شيئًا. بل بدا لي أنها مسرورة بخدماتي.

وجعله رومولو يقسم إنه لن يُبلغ أحداً بأمر اختبائه في قبو الطعام. وبالغ في عرض الأخطار إن قال شيئًا من هذا. ومع ذلك، كان يخشى أن يعرّض القزم حياته للخطر بدافع الغرور.

وحظي ظهوره في الحديقة بالسرور، وأَنِس به رجال الميليشيا فوراً. وكان القزم إذا أشار إلى رومولو قال: كابييرو (فارس) وإذا ذكر الدوقين قال: «سيادتهما». وهذا كان يزيد في متعة الجنود. ولما رأى رومولو أنهم قبلوه بلا تحفّظ، قال لهم أن يكونوا على حذرٍ منه:

- ولِمَ؟

- لأنه فاشي!

كون ذلك الفرد عدواً لهم غمرهم بالحبور، ولما فطن القزم إلى أن أفكاره لا تسيء إليهم، راح يتبجّح بها ربما تهريجاً وضحكاً.

صعد رومولو سلالم البرج بحثاً عن حذاء النقيب الذي قد يشكل قرينة لوجاءت الشرطة وأجرت ضبطًا. ولما عثر عليه وجد نفسه قريبًا جداً من حجرات الدوقة التي لم يستطع مقاومة الإغراء في دخولها. وكان القزم يلتصق به ويتبعه إلى

كلّ مكان كالكلب، لأنه كان يشعر أحيانًا بالخطر بعيدًا عنه. كان الممشى مقفرًا وكانت الدمى ساقطة على السجّادة. وكان المطر والريح تدخل عبر النوافذ الخالية من الزجاج، وكان يسود صمت وبرد يبعثان على اليأس. وبدت لوحات الجدران أكثر بريقًا عما ذي قبل. وكان الصمت يجرحه جرحًا يزداد عمقًا كل مرة. ورأى أوراقًا على المنضدة الصغيرة حيث كانت الدوقة تكتب عادة. ودنا بأمل أن يجد ورقة تخصه، لكنه لم يجد شيئًا، وكان القزم يروح ويجيء داسًّا أنفه في كل شيء بسهولة الفضول. وقرأ رومولو في دفتر كان ما يزال مفتوحًا وقد خُطّت صفحات منه بيد الدوقة: «الشيطان لا يأتي. فلربّما قتل». من يكون «الشيطان؟» واشتبه في أنه عشيقها. وعاد إلى المصعد حاملاً الحذاء في يده. لكنه ألقى به مرة أخرى على «الديفونة» دون اكتراث، ثم سار. كان القزم يرى هذه المناورات من غير أن يعي شيئًا أو يسأل شيئًا.

استعصى النوم على رومولو وجعله الأرق هزيلاً. وكان رجال الميليشيا يسألونه أحيانًا ماذا به. «لا شيء بي. - كان يقول. - إنها الجراح التي لا تندمل». وكان ذلك حقيقة. وسحب الطبيب دمًا منه من أجل تحليل آخر. لكن رومولو كان يقول لنفسه إنه لا يمكن أن يبرأ لأن القلق كان يُبقي جسمه محمومًا ويجعل أعصابه في حالة توتّر دائمة. فأعطاه الطبيب بعض الحبوب تساعده على النوم. ونام فعلاً ليلتين كاملتين، ورأى جراحه تلتئم أخيرًا. وتخلّى عن العصيّ. وأحس بالتآلف مع ألمه، واختفى القلق ليفسح المجال إلى نوع من انحطاط القوى أخفّ، لكنه دائم ومستمرّ. اشتدّت حدّة القصف على مدريد تلك الأيام، ودمّر القصف بين أماكن أخر مدرسة قُتل فيها مئتا تلميذ. فالتُقطت صور عديدة للأجسام الصغيرة الممزّقة كانت لها قوة تعبيرية وحشيّة، وانتشرت على سبيل الدعاية، ولمّا وصلت إلى أيدي الجنود، علّقوا عليها باستنكار. أما إيلينا فقد اكتفى بالقول:

- صعدوا إلى السماء. الملائكة الصغار يصعدون إلى السماء.

كان رومولو يذهب ويجيء في الحديقة من غير أن يكلّم أحداً. وقد كان سلّم مفتاح قبو الأغذية إلى ضابط جديد راح يخرج زجاجات الخمر بالدستات ويرسلها إلى الجبهة أو إلى المشافي. وكان يصنع ذلك دون أن يعتمد على رومولو الذي ماكان يريد أن يعلم شيئًا.

جاءت الشرطة بناء على تقارير (فشكة) واكتفت بتسجيل محضر بالاتهامات وإرساله إلى «مديرية المهام الخاصة». ولم يكن لتصريح رومولو أهمية تفوق تصاريح جنود الحراسة الآخرين.

وكانت النكات المتبادلة مع القزم مألوفة، فقال له لوبث:

- إذا دخل الفاشيست مدريد، ألن ترمي بثقلك لتخلصني من المشنقة؟

- سيكون ميزان العدالة دقيقًا، لاثأر وإنما عدل.

لكن فشكة ما كان يستطيع هضم القزم، وما كان يخفي كرهه له. وقد فطن إيلينا لذلك، فكان يبدي نحوه احترامًا يفوق احترامه الآخرين، فإذا ما أشار إليه قال عنه ما يقوله عن رومولو: (كابيّرو=فارس.) وإن كان يقولها في قفاه بصيغة التصغير (كابييريتو: فويرس.). وكان القزم قبل أن يستلقي ليلاً، يسدّ بعناية الثقوب التي أحدثتها في المرآب الانفجارات ليلة الغارة الجوية.

استردّ رومولو عافيته تمامًا، وكان ينتظر إذن المرور العسكري الذي طلبه وكان يفكر في الدوقة كأنه يفكر في وعد كبير إلى أجلٍ مسمى. وكان يعمل إبّان ذلك في الأرض مقدّمًا يد العون للجنود. فقد كانت الحديقة مخرّبة خرابًا كبيرًا في الجانب الأقرب من مسكنه القديم. وكان جنود الميليشيا ينقلون التراب في عربات يدٍ صغيرة تئن محاورها على شكل مؤس. وكان رومولو يعدّ الساعات حسب حساباته كيما يستلم إذن المرور. وكان يستشعر نحوه مشاعر غامضة ومتناقضة يعزوها إلى السماء

الرمـادية التي كـانت تغطي المدينة هذا اليـوم أو ذاك . لأن الشـمس لم تشـرق مـرة أخرى منذ أن رحلت الدوقة . وكان يحس بالضعف والضياع . وبلغ به التأثّر مبلغًا حتى أصبح لا يطيق في الساعة الأخيـرة من المسـاء ، أنين عربة اليـد ، فسـعى إلى تشحيمها . والآن التأمت جراح الحديقة كما التأمت جراح ساقه .

وكان رومولو يذهب من حين لآخر إلى حجرته ، ويجلس على السرير ممعنًا النظر إلى الجدار . وكان يقول في سرّه : «هي تنتظرني في مكان ما» . كان بحاجة إلى أن يحافظ على ذلك الوهم وإن كان يعلم أنه يخلو من وعد محدّد .

كان القزم قليلاً ما يغادر القصر ، وإذا خرج منه إلى الشارع فما كان يعدم صبيًّا ما يدفعه فضوله إلى المدى الأقصى من الإزعاج . وكان القزم يعلم ذلك ، فيظل متنبّهًا دائمًا ، وكان صبيّان في الحادية عشرة من العمر يغنّيناه كلّما رأياه :

تـزوجـت قـــــــــــــــزمًا

لـكـي ألـهـــــــــــو بـه .

جـــــعلت الســـرير عـــاليًا

فـــــلا يمكنه الصـــعـــود .

وكـان خـبث الأغنيـة والبـراءة التـي تُغنّى بـهـا يـشكلان طبـاقًا طريفًا . وكان يجيبهما :

- لِمَ لا تذهبان إلى المدرسة؟ صارت المدارس اليوم هامّة جدًا .

وكان يضحك ضحكة قصيرة تنطلق من حلقه .

قال القزم لرومولو ذات يوم : «ألا تعلم أن بارّينو يبحث عنّي ليلاً؟ لقد قتلت أنثاه ، لذلك يسعى في طلبي خفية» . وأراه سكّينًا يحمله في حزامه احتراسًا .

وسار رومولو من غير أن يجيب. فقد بدت له رغبة جرذ في الثأر جنونًا محضًا. ومع ذلك، كان الخوف من الثأر واقعًا يلازمه كلّ النهار، وكان يفكر أحيانًا في جنون القزم، ويخشى أن تدفعه غفلته إلى الحديث عن الدوقة.

جاء المطبخ الجوّال وتأهّب الجنود لتناول الطعام. لم يكن رومولو يشعر بالجوع فسار شيئًا فشيئًا حتى الجادّة الرئيسة حيث جلس على مقعد. كان في أقصى الجادّة ورقة ملقاة على الأرض، كانت الريح ترفعها من جهة، ثم لا تلبث أن تسقط مرة أخرى. بثّت هذه الواقعة فيه إحساسًا بهجران مقلق، وكان يفكر: «هي لم تلمني حقًّا على شعوري بأني معادٍ لأنصارها». ثم أضاف بُعيد ذلك: «وما كانت تستاء إذا ذكرت الميليشيا بالحسنى. ولا أهميّة لهذه الأشياء في هذا المستوى الذي نعرفه هي وأنا». وكان ما يزال ينتظر إذن المرور. وحلّ البرد باكرًا، وأخذت الأعشاب تجفّ وتحترق. ذلك أن برد الشتاء يبعث الحمّى في العشب. إذًا، أهكذا يحرق البرد؟ أيوقد النار في جذور العشب وثناياه كما يحدث للبشر؟ نعم: هناك برد يحرق». كان رومولو يحس بذلك ويقول لنفسه إن ذلك البرد هبّ بعد غياب الدوقة على الحديقة، وعلى القصر أيضًا وعلى عظامه، عظام فلاّح ألِف البرد مع ذلك. لكنه سيسعى إثر الدوقة. فلربما جاء إذن المرور بين وقت وآخر. كان يفكر في كل شيء دون أن يكفّ عن ريّ الحديقة حتى العصر لما سمع صوت أورتِث الخشن:

- اترك هذا الخرطوم، يا رومولو، إذا كنت لا تريد أن تردّنا ضفادع.

أغلق رومولو صنبور الماء وترك الخرطوم بين العشب كأنه حيّة ميتة. وسار حتى القصر دون أن يقول شيئًا. وهتف إلى مفوضيّة الإجلاء وسأل عن جواز مروره. فأجيب إنه لا يستطيع الخروج من مدريد ما دام في سنّ حمل السلاح. فعلّق

سمّاعة الهاتف خائب الأمل . «سأذهب من غير إذن مرور . » فكر . وقصد حجرات البرج السفلى . ولمّا دخلها تذكّر الأشباح التي حدثّته عنها بلبينا . وفكر في لسان اللهب الرقيق والأزرق الذي يتحرك وسط الحجرة؛ وتذكر على شكل خاص ذلك الصوت الذي زعمت الخادمات أنهن سمعنه : أنا عطشانة . وبدت لرومولو العبارة : أنا عطشانة طبيعية جداً . وكان يخطر في باله أن الدوقة الأمّ لربما شعرت بالعطش بعد موتها بسبب ذلك «البرد الذي يحرق» . وقضى الهزيع الأول من الليل في ذلك المخدع أملاً منه في أن يستنشق ذات الهواء الذي استنشقته الدوقة . وصعد بعد ذلك الدرج إلى الطابق الثاني . وتلقّته الحجرة المقابلة للمخدع والغارقة في الظلمات كما تلقّته مرات أخر بهوائها البارد الذي تلتهب أحشاؤه هو الآخر أيضاً . وكانت ما تزال الدمى المتحركة متناثرة على الأرض تعلو وجوهها ملامح حيّة بإفراط . وراح يتلمّس طريقه في الظلمة حتى أشعل مصباحاً في إحدى الزوايا . كان باب القاع مفتوحاً، وكانت ظلمة المخدع تبدو كتلة من صقيع . كانت الملكة إيبوتنوسا منبطحة على «الديفونة» ، لكنها مالت بوجهها إلى جانب وكأنها تريد أن ترى ما تصنعه الدمى الأخر على السجّادة . وحسب رومولو أنه يسمع وراءه عند باب المخدع همس أقدام حافية ، مترافقاً في آن واحد بهمس صوت بشري يقول كما كان يقول شبح الدوقة الأم :

- أنا عطشانة .

والتفت فرأى الدوقة مرتدية قميصاً طويلة ؛ واهتدى إلى أن يسألها :

- ماذا تقولين؟

ووقف ذلك الشبح بين باب المخدع والحمّام وقال بصوت خفيض :

- أنا عطشانة!

وكانت الدوقة تفتح فمها وتطبقه؛ وبدا أنه جافّ وحار. وكانت تبحث عن الباب فلم تهتد إليه. وسار رومولو إلى الحمّام وملأ كأساً وعاد بها فلم يجدها فمكث والكأس في يده ناظراً صوب المخدع حيث كان يبدو أن ذلك الشبح الأبيض نفسه يضطرب. فدخل وأشعل الضوء. كانت فوضى الحجرة باعثة على الشجن. وكشف له الضوء بغتة أن ذلك الشبح ما هو غير الدوقة نفسها. وأنها لم ترحل إلى بلنسية، وقد أتت عليها بضعة أسابيع محتجزة مريضة ومهجورة، كانت أغطية السرير ساقطة على الأرض. وكان المعطف الجلدي الذي تحوّل إلى كرة قائمة عند قدمي السرير يشبه دبّاً منكمشاً على نفسه وساكناً، وكانت الحجرة كالجليد، وكانت ريح غير شديدة تئن في الزجاج المهشّم. وأزاحت الدوقة بحركة لا واعية القميص عن كتفها وكشفت عن ثديها عارياً. وكان يبدو محالاً أن يظل ذلك الثدي وسط هذا البؤس غضّاً بضاً. ولم تكن تلك الصفاقة بدافع الازدراء كما فعلت في مرات أخر، وإنما كانت بسبب الحمى والبرد الذي يكوي. إنه الهذيان الذي غرق فيه رومولو بوجهه الأبكم الشاحب. كان ينظر إليها من غير أن يدنو خطوة واحدة، وقد شلّ حركته احترامُه تلك الحركات اللاواعية وذلك الابتعادُ الذي لم يكن عنه فحسْب، وإنما عن الحياة ذاتها: رأى شفتها العليا التي كانت ما تزال ملتهبة قليلاً، وقد التأم الجرح الصغير فيها وسط وجه يبدو أنه من شمعٍ أو من زجاج صقيل أو صفيق. قرّب الكأس من يدها المرتعدة، فأخذتها متعثّرة، ولمّا شربت سكبت أكثر من نصفها على صدرها. ما كان يبدو أنها تحسّ بالبرد الناجم عن تبلّل قميصها اللاصق بالثدي الآخر. وبعد أن شربت بدا أنها تبحث عن سريرها تلمّساً متمتمة بكلمات مبهمة. ولما وجدته وضعت عليه الكأس التي تدحرجت وسقطت دون ضوضاء على السجّادة. واضطجعت وسحبت فوقها طرف الملاءة تاركة ساقيها عاريتين. وأغمضت عينيها قائلة:

- شعري...

وتابعت كلامها وعيناها مغمضتان: «أنا لست جائعة». وغطّى رومولو

جسمها إشفاقًا. كل شيء كان بردًا سواء أكانت الملاءات أم الأغطية أم المعطف الجلدي. كل شيء ما عدا جسمها الذي كان يحترق. ولمس فخذها العاري مرتين. وقالت:

- نعم، يا إستبان. أنا على خير ما يرام، يا إستبان.

وأصاخ رومولو السمع لكنها لم تزد شيئًا على ما قالته. كان يراها ضعيفة دون مقاومة. وأخذ ينشأ داخله اضطراب كبير. وبدا عليه أنه نسي وضع الدوقة حتى لا يضيع الكلمات التي كان يبدو أنها تتمتم بها. وكان يفكر: «في هذيانها لاتذكر الدوق، بل اسمًا آخر. ربما اسم عشيقها». وتنحّى قليلاً وقال:

- سيدتي...

وناداها مرة أخرى متوسّلاً. وكان صوته جد ملآن بالحنان حتى التقطته الدوقة. وقالت باسمة تقريبًا:

- لا تحسب أني سأموت. أنا على خير ما يرام.

ثم ذكرت مرة أخرى اسم إستبان. وسار رومولو إلى إحدى زوايا الحجرة. وجلس على كنبة. وشرع ينظر إليها من هناك من غير أن يفكّر في شيء. نظر إلى رأس السرير المنكّل وإلى القضبان العامودية التي تشبه البلّور. وسمع ضوضاء جافة تشبه ارتطام أشياء صغيرة بمعدن ارتطامًا متتابعًا، وتتردّد بانتظام وتصدر من هناك، من عند رأس السرير. فنهض ثم دنا. فرأى حافّة كيس من الماء ترتطم بالقضبان مرة أخرى على شكل يكاد لا يُدرك. وما كان يعلم إلام يعزوه. لكنه أدرك أن خفقات قلب الدوقة كانت تنعكس على السرير وتحدث ذلك الارتطام الخفيف المتكرّر، ولاحظ أن ماء الكيس بارد. فذهب إلى الحمّام وسخّن الماء وجدّد ماء الكيس وعاد به ساخنًا قربها. وكان عثر في حجرة الحمام على علبة من أقراص الإسبرين. فناول الدوقة منها قرصين مع قدح من الماء الساخن. وما هو غير قليل حتى بدا أن نفس الدوقة أخذ يهدأ. ومع ذلك، ما كان يعلم إن كانت نائمة أم أنها تنازع. ولما سوّى

الغطاء كشف عن قدميها فضمّهما بين يديه وقبّلهما طويلاً. كانتا باردتين وراح يدفئهما بنَفَسه. «لم تخدعني»، كان يردّد فيما يشبه الوسواس. «لم ترحل إلى بلنسية. وما كانت تريد الرحيل ولم تشأ الفرار». جلس مرة أخرى على المقعد وظل ينظر إليها صامتًا: «لعلّها نائمة. لعلّها آخذة بالنوم، ولسوف تستيقظ وقد استردّت صفاء ذهنها إذا استراحت». ولبث على ذلك ساعتين أو ثلاث ساعات. ولمّا فكر في البحث عن طبيب، تنبّه إلى أن الوقت تجاوز منتصف الليل، فلم يكن من السهل إيجاده. وفوق ذلك، ماذا عساها تصنع خيراً من النوم؟» وراح يتذكر: «بدأ مرضها يوم جعلتُ الدمى تتكلّم». وإذْ تذكر ذلك الحوار أخذ ينظر إلى السقف وإلى الجدران. وسمع بعد منتصف الليل احتدام القصف الجوي. وكان مسروراً بذلك السُعار من النار والانفجارات ويأس الظلمات التي كانت تبدو حياة الكون ستنتهي فيها. ودنا من السرير وجلس عليه مرة أخرى. وانفجرت بعض القنابل قريبًا من النوافذ. فأيقظ صوت الانفجار الدوقة التي فتحت عينيها وسلطتهما على رومولو. وكان يبدو عليها أنها تنظر إليه من بلد بعيد.

- لماذا رحلت، يا رومولو؟

ثم جلست

- أعطني مرآة.

وكان ينظر باهتمام أخرق إلى صورة رُسمتَ بالصدَف على خشب المنضدة، وتمثل ملكًا وملكة وأسطورة غوطية أسفل اللوحة. ثم نهض وجلب المرآة. لكنها فقدت رغبتها فيها:

- اسمعني، يا رومولو.

ثم ما عتمت أن كرّرت العبارة ذاتها: «اسمعني، يا رومولو ...» ولم تضف شيئًا. واعتدلت في جلستها، وأسندت رأسها إلى صدره وقالت متعبة تعبًا يتزايد:

- رومولو: أنت... أنت أول رجل عرفته في حياتي.

وحسب رومولو أنه يسمع الدمى أو مدبّريها تصخب عند الباب. ولما قالت الدوقة: «لِمَ تصخب هذا الصخب؟» أفزعته المصادفة. وكانت تقبّل يده وتقول:

-سامحني!

وأحسّ بأنها ماتت. وكان ذلك حقًا. فقبّلها على شفتها وقال بعدئذ:

- لِمَ الآن؟ لقد نظرت إليّ ذات النظرة لمّا هممتُ بإشهار الخنجر عليك. ولِمَ تلك النظرة حينئذ؟ ولِمَ هي الآن؟ أينبغي لها أن تكون هكذا؟ أوهذا حظّي منك، لماأصبحتِ فاقدةَ الشعور؟ لماذا؟ أهو القانون؟ القانون القديم؟»

وقبلها مرة أخرى، كان فمها ما يزال فاتراً، وكان يكلّم نفسه لكنه رفع صوته بأمل أنها ما تزال قادرة على سماعه:

- أي قانون هذا؟ أم أن قوانين الرب لا يفهمها غير الموتى؟

وما كان يجيبه أحد. غير أنه رأى القزم في الباب. وكان هذا ينظر إلى الحجرة وإلى السرير وعلى وجهه أمارات الرعب.

- أهي معالي السيدة الدوقة؟

ولم يجبه رومولو. فدخل على رؤوس أصابع قدميه.

- أهي ميتة؟

ونهض رومولو قائلاً:

- أنت لم ترَ شيئًا. أفهمت؟ إذا قلت كلمة واحدة حول هذا، سأنزع لسانك.

وساور إيلينا شعور بأن رومولو قتل الدوقة، لذلك كان يهدّده. وتنبّه إلى ذلك رومولو:

- لقد ماتت. ولا ينبغي لأحد أن يعلم عنها شيئًا.

ولم يستسلم القزم إلى موقف سلبي:

- أنا سأقف حارسًا في الباب.

وحسب رومولو أنه سمع الدمى مرة أخرى تصخب في الغرفة المجاورة. لم تكن تصرخ ككائنات بشرية، ولا كدمى ولا كفراريج وأرانب، ولا حتى كجرذان، وإنما كجنيّات مؤذية.

وكانت العمة ميسرِياس تغنّي:

- هلموا، هلموا إلى رغيف الخبز والقرفة. هلموا إلى الدم العتيق، وإلى الدم الجديد وإلى قانون الكون الذي يسري ولا يصل.

والعمّ بابو يردّد:

- هيّا نجدد شبابنا جميعًا من المهد إلى اللحد.

وانطلق يضحك على شكل فاضح. أما الملكة إيبوتنوسا فكانت تبدو أنها تنظر إلى موضوع الملك والملكة المرصّع بالصدف أسفل «الكومودا» وتضيف:

- ومن الظلمات إلى النور

وما كان يدري إن سمع: «نور أم حور أم غور، أو ربما سور».

- أنا سأقوم بحراستها هنا.

كانت تلك عبارة القزم. ونظر إليه رومولو دون أن يعي شيئًا. وأضاف:

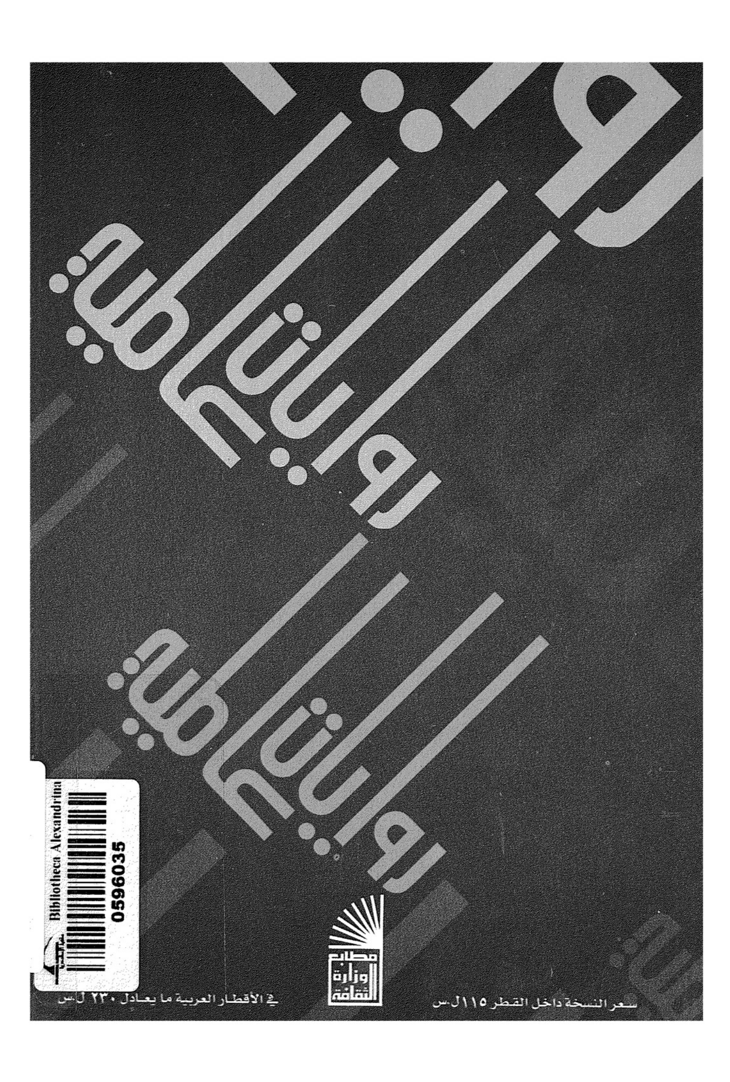
- ستصعد الجرذان. يقينًا ستصعد لكني سأتولّى مسؤولية حماية جثمان الدوقة.

وكان رومولو ينظر إلى ذلك الجسد، أي سرّ طاهر في ثغرها الذي فغر قليلاً! ورأى عند الباب دمية أخرى، وهي ليست الآن الملكة إيبوتنوسا. بل القاضي ريكيرميينتو الذي كان يبدو أنه يعوّض عن شبابه أيضًا صارخًا.

- تمّت اللعبة!

الطبعة الأولى / ٢٠٠٢

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة



مطابع وزارة الثقافة
سعر النسخة داخل القطر ١١٥ ل.س
في الأقطار العربية ما يعادل ٢٣٠ ل.س